جامعة أم درمان الإسلامية

كلية الدراسات العليا

كلية اللغة العربية

قسم الدراسات الأدبية والنقدية

أثـــر الحكـــام وثقافتهـــم في تطــور الأدب في العصر العباســـي

(١٣٢ – ٢٣٢ هـ)

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في اللغة العربيـــة

أعداد الطالب /

محمد محمد عيسى فيض

إشراف الدكتور /

صالح آدم بيلو

العـــــام

١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

صدق الله العظيم

سورة النساء ، الآية : ١١٢

الإهـــــداء

إلى روح والدي الطاهرة

إلى والدتي الحنونة

إلى جميع أفراد أسرتي السعيدة

وإلى كـــل مـــن ســـاهم في إخـــراج هـــذا البحث إلى النور .

أهدي هذا العمل المتواضع .

الباحـــث

شكر وتقديـــــر

يتقدم الباحث بجزيل الشكر إلى الدكتور :

مصطفى محمد أبو شعالــــة

الـذي تفضَّـل مشـكوراً بالموافقـة علـى الإشـراف علـى هـذا البحـث ، ومـنح البحـث وصـاحبه مـن علمـه ووقتـه الشيء الكثير ، فله بالـغ التقدير ، وخالص العرفان.

كمـا يتقـدم بالشـكر الجزيـل إلى الـدكتور   مـن جمهورية السـودان الذي لم يبخل علـى الباحث بنصائحه وتوجيهاتـه ، فإليـه يدين الباحـث بكل الـولاء ، فمنـه تعلـم الباحـث أن الإنسـان البسـيط الـذي يتواضـع بعلمـه هـو أعظم الناس .

كمـا يتوجـه الباحـث بالشـكر إلى كـل مـن أمـده بالعون الشخصي ولو بنصيحة أو كلمة طيبة.

الباحث

ملخص البحث

يهتم البحث الحالي بدراسة أثر الحكام وثقافتهم في تطور الأدب في العصر العباسي (١٣٢– ٢٣٢ هـ) ، وقد تضمن هذه البحث أربعة فصول ، حيث تناول الفصل الأول أهمية التأثير الثقافي عند الطبقة الحاكمة ، وقد اشتمل على ثلاثة مباحث ، المبحث الأول الاهتمام الديني ، والمبحث الثاني التأثير الأدبي والعلمي ، والمبحث الثالث الاهتمام بالثقافات الوافدة ، حيث تناول هذا الفصل أهمية التأثير الثقافي عند الطبقة الحاكمة ، والاهتمام الديني والعلمي، وتأثر الخلفاء برجال الدين، والتأثير السلوكي ، ثم تناول التأثير الأدبي واللغوي ، والاهتمام بالشعر القديم ، والاهتمام بآداب عصرهم وما تبع ذلك من المستوى الفني عند الطبقة الحاكمة ، ثم الاهتمام بالثقافات الوافدة ، وتناول البحث بعض الحكام الذين تزودوا بثقافات غير عربية ، فارسية كانت أو هندية أو يونانية ، وتناول التباين الثقافي بين الخلفاء ، وتناول الفصل الثاني اهتمام الطبقة الحاكمة بالأدب والنهوض به، وقد اشتمل على ثلاثة مباحث ، المبحث الأول الدعم المالي ، والمبحث الثاني الدعم الثقافي والعلمي ، والمبحث الثالث الدور السياسي ، حيث تناول هذا الفصل الدعم والأدوار المختلفة التي قام بها الحكام من أجل النهوض بالعلم بصفة عامة والأدب على جه الخصوص ، وقد تعددت هذه الأدوار ، من دعم مالي، ويعرض البحث فيه للجوانب المختلفة التي أنفق الحكام الأموال فيها من أجل النهوض بالأدب ، كبناء المكتبات العامة ، وتشجيع العلماء والإنفاق عليهم إلى غير ذلك ، ودعم ثقافي وعلمي يعرض البحث فيه للندوات الأدبية داخل فصول هؤلاء الحكام ، وللنقد الفني لهم وانعكاساته على الأدب ، ثم دورهم في تأليف بعض مصادر الأدب المهمة كالأغاني ، والحيوان ، والبيان والتبيين ، والمفضليات ، ودور سياسي يعرض البحث للأجواء السياسية المحيطة بالحكام والتي تناولها الأدباء في فنهم شعراً ونثراً ، وتناول الفصل الثالث التجديد في الشعر العباسي، وقد اشتمل على ثلاثة مباحث المبحث الأول الاهتمام بالمدح ، والمبحث الثاني الاهتمام بالغزل ، والمبحث الثالث الاهتمام بالهجاء وتناول هذا الفصل أهم الأغراض الشعرية التي ترك الحكام فيها أثراً بيناً ، وقد اتضح ذلك من خلال البحث ،

كالمدح والغزل ، والهجاء والزهد ، والشعر التعليمي ، وشعر الخمر ، وتناول الفصل الرابع دور الحكام في تطور النثر ، وقد اشتمل على مبحثين، والمبحث الأول تطور النثر والنهوض به ، والمبحث الثاني أنواع النثر ، حيث تناول هذا الفصل أثر الحكام في تطور بعض فنون النثر في ذلك العصر ، وجهود الحكام للنهوض بالنثر ، والذي تمثل في الترجمة، والاهتمام بديون الكتابة ، ثم يعرض البحث لأنواع النثر الفني المختلفة من خطب ، ووصايا ، ورسائل وتوقيعات ، ومناظرات ، ويمكن تخليص نتائج البحث في النقاط التالية :

١- أن العصر العباسي (١٣٢-٢٣٢ هـ) كان مملوءاً بالأحداث السياسية المهمة والخطيرة .

٢- أن المجتمع في هذا العصر قد ضم بين دفتيه طرفي النقيض في كل شيء.

٣- أن هذا العصر – خاصة – شهد نهضة علمية تظهر واضحة المعامل عبر تاريخ العرب الطويل .

٤- أن حكام هذا العصر كانون يحبون العلم ، ومجالسة أهله ، والاهتمام بهم .

٥- أن هذه الثقافة التي تثقف بها الحكام كانت متنوعة بين عربية وأجنبية .

٦- أن الأدب بشقيه ، الشعر والنثر قد تأثر بثقافة الحاكم.

Research Abstract

This research interested in studying the impact of rulers and their culture on the evolution of art in Abbasid Era (١٣٢-٢٣٢ h), the research comprises of four chapters. The first chapter tackles with the significance of cultural influence of ruling class. The first chapter consists of three subjects, first subject is religious interest, second subject is about scientific and literary impact, and third subject is on the attention paid to the newcomer cultures. Where the research handles in this chapter the significance of the cultural impact to the ruling class, religious and scientific interest, the influence of Caliphs by clergy, besides; the behavioral effect. Then, the chapter discusses the literary and linguistic impact, interest in old poetry and literature of their own time and , subsequently, the imprint of that on artistic level of ruling class. The interest of incoming cultures. The research indicates to some rulers who had been privileged with non-Arabic cultures, that is; Persian, Indian, or Greek. Along with the cultural Variation between the Caliphs. In the second chapter the research studies the interest of the ruling class with art and their role in its rise. This chapter consists of three subject. The first chapter is about financial support, second subject is focus upon cultural and scientific support, and the third subject is about the political role. This chapter illustrates the support and different roles the rulers had assumed to promote science generally, and art in particular. The research looks on the different aspects that rulers had spent money for the sake of promoting art, such as building libraries, and to encourage scholars to spend. In terms of cultural and scientific support the research reviews the literary symposiums inside the classrooms of those rulers, the artistic criticism and its effects on art, then; their role in writing some significant resources as "Al-Aqanni", "Al-Haywan", "Al-Bayan wal Tab'yeen", and "Al-Mufadali'yat". The political atmosphere that had surrounded the rulers and which authors had mirrored in their literature, poems or prose. The third chapter which comes into three subjects, the research examines the revival process in Abbasid poetry. The first subject confines itself to laudation, the second subject is concerned about philandering, and third subject on satire. This chapter deals with the most important purposes of poetry the rulers had left imprint on, such as laudation, philandering,

satire, asceticism, educational poems, "wine" poems. The fourth chapter handles the influence of the rulers on evolution and rise of prose. It comprises of two subjects, the first is on evolution and rise of prose, and the second one is about the types of prose. Where the research reviews the effects and efforts of the rulers in this regard which represented in translation, their interest in writing, the different types of prose such as speeches, commandments, letters, autographs and debates. The results of this research could be summarized as the following :-

١. Abbasid era (١٣٢-٢٣٢h) was full of significant, serious political events.
٢. the society in this era had embraced every types of opposites.
٣. this era, especially; witnessed a scientific resurgence, it is obviously mirrored through the long history of the Arab.
٤. rulers of this era had highly estimated science, the company and care of scientists and intellectuals.
٥. the culture that the rulers bears was of variant roots, Arab and foreign.
٦. art, in its two genres poetry and prose, had noticeably influenced by the ruler's culture.

قائمة المحتويات

الموضـــــوع	رقم الصفحة
الإهداء	أ
شكر وتقدير	ب
ملخص البحث باللغة العربية	جـ
ملخص البحث باللغة الإنجليزية	هـ
المقدمة	ح
الفصل الأول : أهمية التأثير الثقافي عند الطبقة الحاكمة	
المبحث الأول : الاهتمام الديني.	٢
المبحث الثاني : التأثير الأدبي والعلمي .	١٧
المبحث الثالث : الاهتمام بالثقافات الوافدة	٣٦
الفصل الثاني : اهتمام الطبقة الحاكمة بالأدب والنهوض به	
المبحث الأول : الدعم المالي .	٤٥
المبحث الثاني : الدعم الثقافي والعلمي .	٧١
المبحث الثالث : الدور السياسي .	١١٤
الفصل الثالث : التجديد في الشعر العباسي	
المبحث الأول : الاهتمام بالمدح.	١٢٤
المبحث الثاني : الاهتمام بالغزل.	١٣٦
المبحث الثالث : الاهتمام بالهجاء .	١٤٧
الفصل الرابع : دور الحكم في تطور الأدب	
المبحث الأول : تطور النثر والنهوض به .	١٦٢
المبحث الثاني : أنواع النثر .	١٧٠
خاتمة البحث.	١٩٩
المصادر والمراجع .	٢٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــــة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه ، وبعد ، دفعت رغبة الباحث إلـى أن يقـرأ الخليفـة المأمون قراءة عميقة ، وأخباره مع الشعراء قراءة أكثر عمقاً ، وعلى الفور وجده شاعراً وناقداً وعالماً ، فانتقل إلى قراءة باقي خلفاء العصـر العباسـي (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) وصلتهم بأدباء عصرهم ، وأثناء ذلك وجد أن الوزراء كان لهم حـظ كبير أيضاً من الثقافة والعلم أثرت في مجرى الحياة الثقافية بشكل عـام ، وفـي نهاية المطاف اهتدى إلى ضرورة دراسة علم هؤلاء الحكام ، وأثره فـي الحيـاة الثقافية بصفة عامة وفي الأدب على وجه الخصوص ، فكـان تحديـد موضـوع الدراسة وهو (أثر الحكام وثقافتهم في تطور الأدب في العصر العباسـي ١٣٢ – ٢٣٢ هـ) .

ويعني بالطبقة الحاكمة الخلفاء ، والوزراء ، وكبار القادة ، والكتاب ، وبالعصـر العباسي الفترة الممتدة من نهاية خلافة الأمويين سنة ١٣٢ هـ ، وانتقال الخلافـة إلى أبي العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين ، حتى نهاية حكم الخليفة العباسـي الواثق سنة ٢٣٢ هـ .

مشكلة البحث :

وهي دراسة تعنى بأثر الحكام وثقافتهم في تطور الأدب وتشجيعهم للشعراء والأدباء والعلماء وتزويدهم بالمال ، فضروري أن يؤثر المال في الأدب ، ومـن شعراء هذا العصر كبشّار بن برد ، ومروان بن أبي حفصة ، وسـلم الخاسـر ، وأبي نواس ، وأبي العتاهية ، ودعبل الخزاعي ، ومطيع بن إياس ، وأبـان بـن عبدالحميد ، وغيرهم ، كذلك كبار الكتاب ، والخطباء ، والوعاظ ومـا كـان ذا صلة من أعمالهم بأحد أفراد الطبقة الحاكمة ، ومما أثر كذلك إيجاباً فـي الشـعر والشعراء من تجديد لأغراض الشعر وتطور الأدب .

ومما أثر سلباً في مدح الشعراء للحكام والمبالغة المفرطة في المدح ، وفي الغزل الفاحش والتغزل بالغلمان والغلاميات والخمريات .
تتناول الدراسة الآثار الأدبية والثقافية لهؤلاء الحكام من شعر ، ونثر ، وخطب ، ورسائل ، وتوقيعات ، كل هذا لاستنباط ما لهذه الطبقة الحاكمة من دور مؤثر على الأدب والأدباء .

أهداف البحث :

وتهدف الدراسة إلى إبراز ما لهذه الطبقة من دور في الحركة الأدبية في هذه الفترة ، سلباً أو إيجاباً ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، وما كان لها من بصمات واضحة على الشعر والشعراء ، من تجديد لأغراض قديمة ، أو استحداث أغراض شعرية لم تكن موجودة ، وما كان لها من دور على النثر أيضاً ، ومن ازدهار أنواع ، وضعف أنواع أخرى ، وما كان لها من دور في شيوع ثقافات أجنبية عديدة ، وانعكاسات كل ذلك على الأدب ، وما كان لها من دور في تقويم ألسنة الشعراء وما كان لها من نقد فني واع ترك أثره على الأدب والأدباء.

أهمية البحث :

وترجع أهمية هذه الدراسة إلى أن الخلفاء في هذا العصر كانوا أهل ثقافة واسعة بجانب كونهم حكاماً للمسلمين ، فكانوا يأخذون أنفسهم بدراسة الأدب واللغة دراسة عميقة ، بل لم يكتف بعضهم بذلك وإنما أخذ ينهل من الثقافات الوافدة من اليونان والفرس والهند ، لذا فقد اجتمعت فيهم صفة العلم بجانب صفة الحكم .
إن هذا العصر كان عصر ترف زائد ، بسبب الأموال الهائلة التي كانت تدخل بيت مال المسلمين من الفتوحات الخارجية ، وكانت هذه الأموال تحت تصرف الطبقة الحاكمة إلى حد كبير ، ينفقونها كما يشاءون ، وقد كان لأكياس الشعراء والعلماء والأدباء منها نصيب كبير ، فضروري أن يؤثر المال في الأدب كما يؤثر في أي شيء آخر .

إن الخلفاء في هذا العصر كانوا أقوياء ، أو كانت الخلافة عربية إلى حد كبير ، خلافاً لما بعده من العصور العباسية ، وكان العصر يموج بنهضة ثقافية شاملة كان للحكام دور كبير في ازدهارها ، وبازدهار الثقافة يزدهر الأدب بالضرورة . هذا إلى جانب حب الباحث الذي لا يستطيع إخفاءه للعمل في أدب هذا العصر على وجه الخصوص لإعجابه الشديد بفنونه وإبداعاته الأدبية .

فروض البحث :

١- كلما كان الحاكم مثقفاً انعكس ذلك إيجاباً بطريقة مباشر أو غير مباشر على تطور الأدب .
٢- يزيد صرف أموال الحاكم في التأثير على الشعراء والعلماء والأدباء وتشجعيهم ، فالمال يؤثر في تطور الأدب كما يؤثر في أي شيء على الإطلاق .
٣- كلما كان الحاكم قوياً وله ثقافة واسعة كان له دور كبير في ازدهار الثقافة وبازدهار الثقافة يزدهر الأدب بالضرورة .

حدود البحث :

وهناك حدود زمنية وحدود مكانية للبحث .

الحدود الزمنية : وهو العصر العباسي من سنة ١٣٢ – ٢٣٢ هـ .

الحدود المكانية : بغداد .

منهج البحث :

تتناول الدراسة بتقسيم البحث إلى أربعة فصول :

الفصل الأول : أهمية التأثير الثقافي عند الطبقة الحاكمة .

المبحث الأول : الاهتمام الديني .

المبحث الثاني : التأثير الأدبي واللغوي.

المبحث الثالث : الاهتمام بالثقافات الوافدة .

تتناول الدراسة في هذا الفصل أهمية التـأثير الثقـافي عنـد الطبقـة الحاكمـة ، والاهتمام الديني والعلمي ، وتأثر الخلفاء برجال الدين ، والتأثير السـلوكي ، ثـم يتناول التأثير الأدبي واللغوي ، والاهتمام بالشـعر القـديم ، والاهتمـام بـآداب عصرهم وما تبع ذلك من المستوى الفني عند الطبقـة الحاكمـة ، ثـم الاهتمـام بالثقافات الوافدة ، كما يتناول بعض الحكام الذين تزودوا بثقافات غيـر عربيـة ، فارسية كانت أو هندية أو يونانية ، والتباين الثقافي بين الخلفاء .

الفصل الثاني : اهتمام الطبقة الحاكمة بالأدب والنهوض به .

المبحث الأول : الدعم المالي .

المبحث الثاني : الدعم الثقافي والعلمي .

المبحث الثالث : الدور السياسي .

ويتناول الدعم والأدوار التي قام بها الحكام من اجل النهوض بالأدب وكان لها أثرٌ في ازدهاره كالدعم المالي ، والدعم الثقافي والعلمي ، والدور السياسـي ، ففـي الدعم المالي يتناول الاهتمام بالعلماء وتشجعيهم ، ويتنـاول النهضـة الأدبيـة ، والتعليم المجاني ، وبناء المكتبات العامة ، ودعم الأدباء والشعراء ، وغير ذلـك ، والدور الثقافي والعلمي ، ويتناول هذا الفصل الندوات الأدبيـة ، والنقـد الفنـي وانعكاساته ، ونقد المعاني ، ورفض المساس بالدين ، والنقد اللغوي ، وانعكاساته، والاهتمام بالجودة الفنية ، ورجوعاً إلى علماء الأدب واللغة المتخصصين لتجويـد الفن الأدبي ، والشعر الشخصي والرسمي ، ثم يتناول البحـث الاهتمـام بتـأليف الكتب الأدبية ودعمها ، كالأغاني ، والحيـوان ، والبيـان والتبيـين ، وبعـض المختارات الشعرية كالمفضليات ، والدور السياسي وما لزمه من أدب .

الفصل الثالث : التجديد في الشعر العباسي .

المبحث الأول : الاهتمام بالمدح .

المبحث الثاني : الاهتمام بالغزل .

المبحث الثالث : الاهتمام بالهجاء .

ويتناول أغراض الشعر وأثر الحكام في كل منها ، كالاهتمام بالمــدح ، ويتنــاول الحث على الاهتمام بالمدح السياسي ، والتخصص في المدح ، وضرورات المدح ، وفي الاهتمام بالغزل ، يتناول الغزل الفاحش ، والمبالغة في الغزل ، ثم الاهتمام بالهجاء ، والزهد والشعر التعليمي والخمريات .

الفصل الرابع : دور الحكام في تطور النثر .

المبحث الأول : تطور النثر والنهوض به .

المبحث الثاني : أنواع النثر .

فيتناول جهود الحكام في تطور النثر والنهوض به ، والترجمة ، والاهتمام بديوان الكتابة ، ويتناول أنواع النثر ، ومن النثر الفني يتناول البحث الخطب والوصــايا والرسائل والتوقيعات والمناظرات .

الفصل الأول

أهمية التأثير الثقافي

عند الطبقة الحاكمة

المبحث الأول
الاهتمام الديني

أولاً – الاهتمام العلمي

اهتم خلفاء بني العباس بالعلم اهتماماً بالغاً ، وحرصوا حرصاً شديداً على مجالسة العلماء ، والنظر إليهم بعين ملؤها الاحترام والتقدير ، بل واختاروا علماء الأمة البارزين ليكونوا معلمين لأبنائهم " قيل للمنصور : هل بقى من لذات الدنيا شيء لم تنله ؟ قال : بقيت خصلةٌ ، أن أقعد في مصطبة وحولي أصحاب الحديث، يقول المستملى : من ذكرت – رحمك الله – فغدا عليه الندماء ، وأبناء الوزراء بالمحابر والدفاتر ، فقال : لستم بهم ، إنما هم الدنسة ثيابهم ، المشققة أرجلهم ، الطويلة شعورهم ، بُرد الآفاق ونقلة الحديث "[١] .

وقد كان الخلفاء منشغلين بتعليم أبنائهم الذين كانوا يعدونهم للخلافة أشد الانشغال ، فالأحمر النحوي يروي " بعث إليَّ الرشيد لتأديب ولده مُحَمَّد ، فقال لي: إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصيِّر يدك عليه مبسوطة ، وطاعتك عليه واجبةً ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعرِّفْه السنن ، وبصِّره مواقع الكلام وبدأه ، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرَّنَّ بك ساعةً إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها ، من غير أن تخرق به فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، قومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة "[٢] .

---

(١) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ط ١ القاهرة ، دار الفجر للتراث ، تحقيق، جمال محمود مصطفى ، سنة ١٩٩٩ م – ١٤٢٠ هـ ، ص ٢١٣ .

(٢) المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ، المكتبة الإسلامية ، ٣ / ٣٦٢ .

ويقول (الأَحْمَرْ النَّحْوِيّ) " كنت كثيراً ما أشدد على الأمين في التأديـــب ، فشكا ذلك إلى خالصة – ولعلها كانت كبيرة وصيفات القصر الزُبَيْـــدِي – فـــأتتنى برسالة من أمِّ جعفر تعزم عليَّ بالكف عنه ، وأن أجعل له وقتاً أجمه فيه لتوديـــع بدنه ، فقلت : الأمير قد عظُم قدره ، وبعُد صوته ، وموقعه من أميـــر المـــؤمنين ومكانه من ولاية العهد لا يحتملان التقصير ، ولا يقبل منه الخطل ، ولا يرضـــى منه بالزلل في المنطق والجهل بالشرائع ، والعمى عن الأمور التـــي فيهـــا قـــوام السلطان وإحكام السياسة ، فقالت : صدقت ، غير أنها والدة لا تملك نفســـها ، ولا تقدر على كف إشفاقها "[١] .

فقد كان العلم ومدارسته موضوع اهتمام الحكام ، مهما تخلل الوصول إلـــى إتقانه من قسوة وعناء ، فعِظَمُ قدر الخليفة أو ولي العهـــد يســـتلزمان منـــه أن لا يقصر في العلم ، وأن لا يتهاون في تحصيله ، ولا يُرضي منه بالزلل ، ولا يقبـــل منه أن يكون جاهلاً .

إلا أن الجهد الذي كان الخلفاء يبذلونه ، والأموال التي كانوا ينفقونها مـــن أجـــل تأديب أبنائهم لم تكن تؤتي ثمارها في كل الأحوال ، ومع كل الأبناء ، فلم يكن كل خلفاء العباسيين علماء ، ولم يكونوا كلهم أتقياء ، لأننا صادفنا خلفاء لم يكونوا كما يجب أن يكونوا عليه كخلفاء للنبي الكريم – ﷺ – ، ولم يستطيعوا وضع أنفســـهم في مصاف العلماء ، في حين اشتهر آخرون بمكانتهم العلمية المتميزة ، إلا أنهـــم جميعاً – كانوا يقدرون العلماء ، ويعلمون قدرهم وينزلونهم المنازل التي تليق بهم.

وإذا نظرنا إلى خلفاء بني العباس في العصر العباسي في الفترة من (١٣٢ هــــ إلى ٢٣٢ هــ) ، وإلى الثقافة التي تثقفوا بها واهتموا بتعليمها لأبنائهم ؛ لوجدناها لا تخرج عما اعتاده الناس في أيامهم من علوم ومعارف وآداب وثقافـــات ، فقـــد اهتموا بالثقافة الدينية ، وعلوم القرآن الكريم والحديث النبـــوي الشـــريف ، كمـــا اهتموا بعلوم اللغة من نحو وصرف وغيرها واهتموا اهتماماً بالغاً بالشعر العربي القديم ، والشعر المعاصر لهم ، واهتم بعض خلفائهم بثقافات أجنبية وافـــدة ، مـــن فارسية أو هندية أو يونانية .

---

(١) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المأمون ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧م ، ١٦١/١.

ثانياً – الاهتمام الديني :

إنه لأمر طبيعيٌ أن يكون حكام المسلمين هم أكثر الناس معرفة بأمور الدين، فلن يُستساغ أن يلي أمرَ المسلمين من يجهل أمور دينهم ، وأن يخلف رسول الله – ﷺ – مَن يكون أقل علماً من غيره بعلوم الدين وأحكامه وشرائعه ، ولقد اهتم خلفاء العصر العباسي في الفترة ما بين (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) بالتفقه في دين الله ، وحرص الآباء على تعليم الأبناء أوامر الدين ونواهيه ، فهذا أبو العباس السفاح – أول الخلفاء العباسيين – وكان يؤثر العلم يقول : " إنما العجب ممن يترك أن يزداد علماً ، ويختار أن يزداد جهلاً ! فقال له أبو بكر الهذلي : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالستك ومجالسة مثلك وأمثال أصحابك ، ويدخل إلى امرأة أو جارية فلا يزال يسمع سخفاً ويروى نقصاً "[(١)] .
فالخليفة يؤثر مجالسة العلماء والفقهاء على غيرها من مجالسه اللهو التي تغضب الله ، ويتمتع بمجالسة أبي بكر الهذلي وأصحابه على غير ذلك . وكان الرشيد من أكثر الحكام حباً للعلماء " ذكر في الإحياء عن الخولاني أن هارون الرشيد لما ولىَ الخلافة زاره العلماء ، وهنَّوه بما صار إليه ، ففتح بيوت الأموال ، وأجازهم الجوائز السنية ، وكان قبل ذلك يجالس العلماء ، ويظهر الزهد والتعفف ، وكان مؤاخياً لسفيان الثوري "[(٢)] .

وقال القاضي الفاضل في بعض رسائله " ما أعلم لملك رحلة قط في طلب العلم إلا للرشيد ، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمة الله " [(٣)].

وقال إبراهيم بن حسن " كنا عند المأمون فذكروا من بايع من الأنصار ليلة العقبة ، فاختلفوا في ذلك ، ودخل ابن أبي دؤاد فعدهم واحداً واحداً ، بأسمائهم

---

(١) المسعود (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ، المكتبة الإسلامية ، ٢ / ١٧٠ .

(٢) ابن وادران ، تاريخ العباسيين ، ط ١ ، بيروت ، طبعة دار الغرب الإسلامي ، تحقيق وتقديم ، المنجي الكعبي ، سنة ١٩٩٣ ، ص ٧١ .

(٣) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، تحقيق ، جمال محمود مصطفى ، سنة ١٩٩٩ م ، ١٤٢٠ هـ ، ص ٢٣٥ .

وكُناهم وأنسابهم ، فقال المأمون : إذا استجلس الناس فاضلاً فمثل أحمـد ، قـال أحمد! بل إذا جالس العالم خليفة فمثل أمير المؤمنين الذي يفهم عنه ، ويكون أعلم بما يقول منه "(١) . وكانوا يعرفون للفقيه قدره وللعالم مكانته ، " دخل هارون بـن زياد – مؤدب الواثق – على الواثق فأكرمه وأظهر من بره ما شهر به ، فقيل له: من هذا يا أمير المؤمنين الذي فعلت به ما فعلت ؟ قال : هذا أول من فتق لسـاني بذكر الله وأدناني من رحمة الله عز وجل "(٢).

أ- تأثر الخلفاء برجال الـدين :

وبالرغم من جلالة ملكهم وقوة خلافتهم ، فإنهم كانوا يتأثرون أشد التـأثير بنصائح العلماء والزهاد عند سماعها ، ولكنها النصيحة التي يتأكدون من إخلاص وورع قائلها ، فقد روى " أن ابن السماك*(٣) دخل على هارون الرشـيد يومـاً ، فاستسقى فأتى بكوز ، فلما أخذه قال : على رسلك يا أمير المؤمنين ، لـو مُنِعْـت هذه الشربة بكم كنت تشتريها ؟ قال بنصف ملكي ، قال : اشرب هنأك الله تعالى ، فلما شربها قال : أسألك لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتري خروجهـا من بدنك ؟ قال بجميع ملكي ، قال : إن ملكاً قيمته شربةُ ما وبولـةٌ لجـديرٌ أن لا ينافس فيه ، فبكى هارون بكاءً شديداً " (٤).

ولم يكن الخلفاء يكثرون من مجالسة علماء الدين مجالسة عادية ، بل كانوا يتواضعون لهم تواضعاً جمًّا ، فهذا أبو معاوية الضرير ، وكان من أعلـم النـاس يقول: " أكلت مع الرشيد يوماً فصب عليَّ الماء رجلٌ ، فقال لي : يا أبا معاوية !

---

(١) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر) ط ١ ، مكتبة النهضـة المصـرية ، تحقيق ، محمد محيى الدين عبد الحميد ، ١٩٤٨ م ، ١ / ٦٤ .

(٢) أبي الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دار الفكر العربي ، ٦ / ٣٥٤ .

(٣) * ابن السماك : أحد الزهاد في عصر الرشيد ، له مع الرشيد خاصة مواقف وعظية شهيرة انظر فـي ترجمته سير أعلام النبلاء ٨ / ٣٢٨ ، حلية الأولياء ٨ / ٢٠٩ ، وفيات الأعيان ٤ / ٣٠١ .

(٤) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ط١ ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، تحقيق : جمال محمود مصطفى ، سنة ١٩٩٩ – ١٤٢٠ هـ ، ص ٢٣٤ .

أتدري من صب الماء علي يديك ؟ قلت : لا يا أمير المؤمنين . قال : أنا فقلت يا أمير المؤمنين ، أنت تفعل هذا إجلالاً للعلم ؟ قال : نعم "[١] .

ولما " دخل المأمون بغداد وقرَّ بهما قراره أمر أن يدخل عليه من الفقهاء ، والمتكلمين وأهل العلم جماعة يختارهم لمجالسته ومحادثته ، وكان يقعد في صدر نهاره على لبود في الشتاء وعلى حصر في الصيف ليس معهما شيء من سائر الفرش ، ويقعد للمظالم في كل جمعة مرتين ، لا يمتنع منه أحد ، قال : واختير له من الفقهاء لمجالسته مائة رجل ، فما زال يختارهم طبقةً بعد طبقة حتى حصل منهم عشرة ، كان أحمد بن أبي دؤاد أحدهم وبشر المريسي*[٢] "[٣] .

" وكان الرشيد يستدعي إليه (العُمَرِي)**[٤] ، و(الفُضَيل بنَ عِياض) ***[٥] وابن السماك الكوفي و (أبَا إسحْق الفَزارِي)****[٦] وغيرهم من الأولياء فيحاورهم في مسائل الدين ، ويبكي من مواعظهم ، ويقوم بواجب الاحترام لعلمهم "[١] .

---

(١) محمد بن علي بن طباطبا العلوي المعروف بابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، بيروت ، دار صادر ، ص ١٩٤ .

(٢) * هو بشر بن غياث بن أبي كريمة المريسي المتكلم ، شيخ المعتزلة ، وأحد من أضل المأمون ، كان ينظر أولاً في شيء من الفقه ، ثم غلب عليه علم الكلام ، وتنسب إليه المريسية من المرجئة توفى سنة ٢١٩ هـ انظر البداية والنهاية ١٠ / ٦٤٣ .

(٣) ابن طيفور (أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر) كتاب بغداد ، القاهرة ، مكتبة ، الخانجي ، نشر ، عزت العطار الحسيني ، تحقيق : محمد زاهد الكوثري ، ص ٣٦ .

(٤) ** عبد الرحمن بن عبد الله العمري : قاضي مصر في أيام هارون الرشيد ، وهو أول من عمل " ثابوت القضاة " في بيت المال كان يجعل فيه أموال اليتامى ومال من لا وارث له ، قدم إلى مصر ، قاضياً من قبل الرشيد ، سنة ١٨٥ هـ ، واستمر تسع سنين وشهرين ؛ وعزله الأمين (لما ولى الخلافة) وتوفي سنة ١٩٤هـ . ينظر : خير الدين الزركلي ، الإعلام ، ط ١٠ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٩٢ . ٣ / ٣١٢ .

(٥) *** الفضيل بن عياض : أحمد العباد الزهاد العلماء الأولياء ، كان حسن التلاوة ، وكثير الصلاة ، له مواقف مع الرشيد ، توفي سنة ١٨٧ هـ انظر البداية والنهاية ١٠ / ٥٥٩ ، صفة الصفوة ٤ / ١٢١ .

(٦) **** إبراهيم بن محمد بن الحارث بن أسماء ابن خارجة الفزاري ، أبو إسحاق ، من كبار العلماء ولد في الكوفة وقدم دمشق وحدث بها ، وكان من أصحاب الأوزاعي ومعاصريه ورحل إلى بغداد فأكرمه الرشيد وأجله ثم عاش مرابط بثغر المصيصة ومات بها سنة ١٨٨ هـ . ينظر : خير الدين الزركلي ، الإعلام ، ط١٠ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٩٢ . ٥٩/١.

فقد كانوا يأنسون بهم ، ويرفعون من أقدارهم ، ويتواضعون لهم ، ولم يكن كل هذا الاهتمام إلا اعترافاً صريحاً ومباشراً من الخلفاء بقيمة العلم والاحتفاء بأهله .

ب- التأثير السلوكي :

كان الخلفاء على قدرٍ عالٍ من الثقافة الإسلامية جعلتهم يفهمون تعاليم السماء وما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله – ﷺ – ، كما كان يفهم ذلك العلماء ، فهذا هارون الرشيد " دخلت امرأة عليه وعنده جماعة من وجوه أصحابه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ! أقرَّ الله عينك ، وفرَّحك بما آتَاك ، وأتمَّ سعدك ، لقد حكمت فقسطت ، فقال لها : من تكونين أيتها المرأة ؟ فقالت : من آل برمك ، ممن قتلت رجالهم ، وأخذت أموالهم وسلبت نوالهم ، فقال : أما الرجال فقد مضي أمر الله ونفذ فيهم قدره ، وأما المال فمردودٌ إليك ، ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال : أتدرون ما قالت هذه المرأة ؟ قالوا : ما نراها قالت إلا خيراً ، قال : ما أظنكم فهمتهم ذلك ، أمّا قولها أقرَّ الله عينك ، فتعني أسكنها عن الحركة ، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت ، وأما قولها وفرَّحَكَ بما آتاك ، فأخذته من قوله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ (الأنعام: من الآية٤٥) ، وأما قولها وأتمَّ الله سعدك ، فأخذته من قول الشاعر :

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ بَدَا نَقْصُهُ ⁖ تَرَقَّبْ زَوَالاً إِذَا قِيْلَ تَمُّ

وأما قولها : لقد حكمت فقسطت ، فأخذته من قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً) (الجن:١٥) فتعجبوا من ذلك " (٢).

فهذا فهمٌ لا يكون إلا لعالمٍ ، ونظرٌ لا يكون إلا لذكى راسخ القدم في الفطنة والذكاء ولم يكن الخلفاء يجلسون بين هؤلاء العلماء جلوس المستمع فقط ، وإنما كان بعضهم يشارك علماء الدين في مناظراتهم ، ويتبادل معهم أطراف المناظرة عن فهم واعٍ للدين وأحكامه وتعاليمه ، ونذكر منهم على الفور الخليفة المأمون ،

---

(١) جميل نخلة المدور – حضارة الإسلام في دار السلام ، بولاق ، المطبعة الأميرية ، سنة ١٩٣٧ م ، ص ١١٤ .

(٢) الأشبيهي (شهاب الدين محمد بن أحمد) ، المستطرف في كل فن مستظرف ، طبعة مصطفى البابي الحلبي ، ٢ / ٢٠٣ .

يقول الجاحظ : " قال (سَهْلُ بن هَارُوْن) يوماً وهو عند المأمون ؛ من أصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين أن يرغبوا فيه ، وقد يرغب عن بعض العلم كما يرغب عن بعض الحلال ، قال المأمون : قد يسمى بعض الناس الشيء علماً وليس بعلم ، فإن كنت أردت هذا فوجهه الذي ذكرنا ، ولو قلت : إن العلم لا يدرك غوره ، ولا يسبر قعره ، ولا تبلغ غايته ، ولا يستقصي أصنافه ، ولا يضبط آخره ، فالأمر على ما قلت ، فإذا كان الأمر كذلك فأبدأو بالأهم فالأهم ، وأبدأو بالفرض قبل النفل فإذا فعلتم ذلك كان عدلاً ... "(١) .

ويصور لنا المسعودي مجلساً من مجالس العلم في بلاط المأمون فيقول : " كان المأمون يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء ، فإذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات وأدخلوا حجرةً مفروشةً ، وقيل لهم انزعوا أخفافكم، ثم أُحضرت الموائد ، وقيل لهم أصيبوا من الطعام والشراب ، وجددوا الوضوء ، ومن خُفُه ضيق فلينزعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها ، فإذا أتو بالمجامر، فبخروا ، وطيبوا ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه ، ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها من مناظرة المتجبرين ، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس ، ثم تنصب الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون ... "(٢).

والذي يمكن لنا أن نستنتجه من هذا ، أن الخلفاء قد تشبعوا بتعاليم دينهم ، ووقفوا أنفسهم على التثقف بآدابه ومبادئه ، حتى إنهم ليشاركون علماء الدين في مناظراتهم ومحادثاتهم ، بل إذا راموا الحكم بكتاب الله وسنة نبيه – ﷺ – لم يخطئوا " قال الفضل بن الربيع : قعد محمدُ الأمين يوماً ينظر في المظالم على فرش لبود ، وعليه مبطنة وقلنسوة وشي وطيلسان أرزق ، فأمر ونهى ووقع في نحو ثمانمائة وأربعين توقيعاً بأجزل الكلام ، وقيل إنه وقع في ثمانمائة توقيع ،

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين ، بيروت ، طبعة دار الكتب العلمية ، ٣ / ١٨٥ .
(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ، دار الأندلس ، ٤ / ٤٠٩ .

قال : فوالله لقد أصاب فما أخطأ ، وأسرع فما أبطأ ولقد عرضت على أولى الدواوين والفقهاء فما وجدوه خالف حكماً في قضية واحدة " [١].

فهذا الخليفة الأمين يحكم بكتاب الله في هذا الكم الهائل من المسائل ، فيشهد له الفقهاء أنه لم يجاوز الصواب ، إن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على العلم الشاسع الذي كانت تمتلئ به نفس هذا الخليفة ، مما جعله يتعرض للحكم بين الناس بكتاب الله وسنة رسول – ﷺ – فلا يخطيء ولا يجاوز الصواب ، وإذا صح خبر(الفضلْ بن الرَّبيع) بأنها عرضت على الفقهاء ، فإن ذلك دليلٌ كاف على سعة علمه الديني ، وفقهه ، وفطنته .

وإذا نظرنا إلى أخاه الخليفة المأمون ، عالم خلفاء بني العباس الأول باعتراف معاصريه ودارسيه ، تتضح مواقفه وكلماته عن تشبعه بالثقافة الإسلامية العميقة ، التي أهَّلته لأن يدافع خصوم الدين ؛ فيبهرهم بفهمه للإسلام ، وعمق ثقافته فيه فقد ذكر (ثُمَامَة بنِ أَشْرَس) قال : " ارتد رجل من أهل خُراسان ، فأمر المأمون بحمله إلى مدينة السلام ، فلما أدخل عليه أقبل بوجهه إليه ثم قال : لأن أستحييك بحقٍ واجبٍ أحبُّ إليَّ من أن أقتلك بحق ، ولأن أدفع عنك بالتهمة وقد كنت مسلماً بعد أن كنت نصرانياً ، وكنت في الإسلام أفيح مكاناً وأطول أياماً، فاستوحشت مما كنت به آنساً ، ثم لم تلبث أنْ رجعت عنا نافراً ، فخبِّرنا عن الشيء الذي أوحشك من الشيء الذي صار آنس لك من ذلك القديم ، وأنسك الأول، فإن وجدت عندنا دواء دائك تعالجت به ، إذ كان المريض يحتاج مشاورة الأطباء ، فإن أخطأك الشفاء ، ونبا عن دائك الدواء ، وكنت قد أعذرت ، ولم ترجع عن نفسك بلائمة ، فإن قتلناك بحكم الشريعة ترجع أنت في نفسك إلى الاستبصار والثقة ، وتعلم انك لم تقصر في اجتهاد ، ولم تدع الأخذ بالحزم ، فقال المرتد : أوحشني ما رأيت من كثرة الخلاف في دينكم قال المأمون : فإنَّ لنا اختلافين ، أحدهما : كالاختلاف في الآذان ، وتكبير الجنائز ، والاختلاف في التشهد ، وصلاة الأعياد ، وتكبير التشريق ووجوه القراءات ، واختلاف وجوه

---

(١) ابن وادران ، تاريخ العباسيين ، ط ١ ، بيروت ، طبعة دار الغرب الإسلامي ، تحقيق وتقديم ، المنجي الكعبي ، سنة ١٩٩٣ م ، ص ٢٠٩ .

الفتيا ، وما أشبه ذلك ، وليس هذا باختلاف إنما هو تخيُّرٌ وتوسعةٌ وتخفيف من المحنة ، فمن أذَّن مَثنى ، وأقام فُرادَى لم يؤثم ، ومن أذَّن مثنى وأقام مثنى لا يتعايرون ولا يتعايبون ، أنت ترى ذلك عياناً وتشهد عليه بياناً ، والاختلاف الآخر: كنحو الاختلاف في تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث عن نبينا -ﷺ- مع إجماعنا على أصل التنزيل ، واتفاقنا على عين الخبر ، فإن كان الذي أوحشك هذا حتى أنكرت كتابنا ، فقد ينبغي أن يكون اللفظ بجميع ما في التوراة والإنجيل متفقاً على تأويله كالإنفاق على تنزيله ، ولا يكون بين الملتين من اليهود والنصارى اختلاف في شيء من التأويلات ، وينبغي لك أن لا ترجع إلى لغةٍ لا اختلاف في ألفاظها ، ولو شاء الله أن ينزل كتبه ، ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا تحتاج إلى تفسير لفعل ، ولكنا لم نر شيئاً من الدين والدنيا دفع إلينا على الكفاية ، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة ، وذهبت المسابقة والمنافسة ولم يكن تفاضلٌ ، وليس على هذا بنى الله جل وعز الدنيا ، فقال المرتد : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن المسيح عبد الله ورسوله، وأن محمد-ﷺ- صادق ، وأنك أمير المؤمنين حقاً ، قال : فانحرف المأمون نحو القبلة فخرّ ساجداً، ثم أقبل على أصحابه فقال : وفّروا عليه عِرْضه ، ولا تبرّوه في يومه ، ريثما يعتق إسلامه ، كيلا يقول عدوّه إنه يسلم رغبة ، ولا تنسوا نصيبكم من بره ونصرته وتأنيسه والفائدة عليه"[(١)].

وقد حدا هذا بأحمد فريد الرفاعي أن عقب على هذه المناظرة قائلاً : "وهذا المنحى الذي نحاه المأمون في إقناع ذلك المرتد يدلنا على ناحيتين من نواحي تفكيره :

- **الأولى** : بصره بأسرار الشريعة ، وعلمه بدقائق الدين ، وتدقيقه في فهم أنواع الخلاف بين المسلمين ، ويكاد هذا التقسيم يقضي على كل شبهة عند من يريبهم هذا النزاع الذي طال بين الفرق الإسلامية ، وتشعبت به مذاهب الفقهاء .

---

(١) ابن طيفور (أبو الفضل أحمدبن أبي طاهر) كتاب بغداد ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، عني بنشره السيد، عزت العطار الحسيني ، تحقيق : محمد زاهد الكوثري ، ص ٣٨ .

– **الثانية** : تعمقه في درس النفسيات ، واستقصاء خلجات القلب ، وهجسات الضمير وذلك ظاهر في مراجعته لحياة الرجل الروحية ، وتأمله لما ألفته نفسه ، وسكن إليه وجدانه قبل إسلامه ، فقد بنى على هذه السابقة طريقة التآلف والتسامح التي قضى بها على ما منى به الرجل من الكفر بعد الإيمان " (١).

ولم تكن هذه الطريقة في المناظرة والمناقشة لتصدر إلا عن عالم بتعاليم وأوامر الله في كتابه الكريم ، وسنة نبيه – ﷺ – عن رجل ممتلئ بثقافة دينية راسخة يخرجها الموقف ، وتظهرها متطلبات الدفاع عن العقيدة والحفاظ على الفهم الواعي للدين الإسلامي .

وقد اهتم الخلفاء بحديث رسول الله – ﷺ – ، يتدارسونه ويحفظونه ، ومنهم من يروى الأحاديث عنه – ﷺ – " أمر الرشيد أبا يوسف القاضي بأن يجمع له أصحاب الحديث ؛ فيحدثوه وولده ، فجمع له أهل الكوفة ، إلا عبد الله بن إدريس*(٢) ، وعيسى بن يونس **(٣) فإنهما أبيا أن يحضرا ، فركب إليهما الأمين والمأمون ، فحدثهما عبد الله بن إدريس بمائة حديث ، فلما فرغا قال له المأمون أتأذن لي أن أقرأها عليك من حفظي ! فقال : إن شئت ، فوضع الكتاب من يده وقرأها بأسانيدها من حفظه. وحدثهما عيسى بن يونس ، فأمر له المأمون بعشرة آلاف درهم ، فقال : لا أقبل على حديث رسول الله – ﷺ – شربة ماء"(٤).

" وذكر أحمد بن اسحق الحلبي ، قال : سمعت عمر بن سيار المنبجي يقول : سمعت مالك بن أنس يقول : وجه إليَّ هارون الرشيد ، فسألني أن أحدثه فقلت :

---

(١) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المأمون ، ط ٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ، ١٩٩٧ ، ٢٨٦/١ .

(٢) * عبد الله بن إدريس بن يزيد بن عبد الرحمن : الإمام الحافظ المحدث ، حدث عنه مالك وابن المبارك وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وخلق كثير ، أقدمه الرشيد بغداد ، ليوليه قضاء الكوفة فامتنع ، توفي سنة ١٩٢ هـ سير أعلام النبلاء ٩ / ٤٢ ، طبقات المحدثين ١ / ٦٦ .

(٣) ** عيسى بن يوسن بن اسحق السبيعي الكوفي : أحد المحدثين ، وثقة أحمد بن حنبل وأبو حاتم والنسائي وابن خراش وطائفة أخرى ، عرض عليه جعفر البرمكي مائة ألف درهم فأبى أن يقبلها ، وقال لا حاجة لي فيها ، لا يتحدث أهل العلم أني أكلت للسنة ثمناً لا أخذ على الحديث شربة ماء ولا إهليلجة ، توفي سنة ١٨٨ هـ انظر سير أعلام النبلاء ٨ / ٤٨٩ وما بعدها ، طبقات المحدثين ٦٧/١ .

(٤) أبو هلال العسكري ، الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه ، مطبعة الفضيلة ، تحقيق عبد المجيد دياب ، ص ٧٦.

يا أمير المؤمنين ، إن العلم يؤتَى ولا يأتِي ، قال : فسار إلى منزلي فاستند معي إلى جدار ، فقلت ، يا أمير المؤمنين ، إن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم. قال فجلس بين يدي .... "[1] .

وقد حافظوا على حديث رسول الله – ﷺ – وعاقب بعضهم من حاول الاستخفاف به ، بل وقد وصلت عقوباتهم حين المساس بحديث رسول الله – ﷺ – إلى القتل ، " أخذ الرشيد زنديقاً ، فأمر بضرب عنقه ، فقال الزنديق : لِمَ تضرب عنقي ؟ قال له : أريح العباد منك ، قال : أين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله – ﷺ – كلها ما فيها حرف نطق به ؟ قال : فأين أنت يا عدو الله من أبي اسحق الفزاري وعبد الله بن المبارك *[2]، ينخلانها نخلاً فيخر جانها حرفاً حرفاً "[3]. " وحدثه أبو معاوية الضرير يوماً عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة بحديث احتجاج آدم وموسى ، فقال عمُّ الرشيد : أين التقيا يا أبا معاوية ؟ فغضب الرشيد من ذلك غضباً شديداً ، وقال : أتعترض على الحديث ؟ عليَّ بالنطع والسيف ، فأحضر ذلك ، فقام الناس إليه يشفعون فيه ، فقال الرشيد : هذه زندقة ، ثم أمر بسجنه وأقسم أن لا يخرج حتى يخبرني من ألقى إليه هذا ، فأقسم عمُّه بالأيمان المغلظة ما قال هذا له أحد ، وإنما كانت هذه الكلمة بادرة مني وأنا استغفر الله وأتوب إليه منها ، فأطلقه "[4] .

فلقد كانوا حريصين ليس بمذاكرة حديث رسول الله – ﷺ – فقط ، وإنما بالذنب عليه ، والحفاظ عليه ، والاهتمام بالمحدثين ، وقد أورثهم هذا قدرة على تمييز ما جاء عن رسول الله – ﷺ – صحيحاً عمَّا زاد عليه " ذكر الدُّمَيْرِيُّ في

---

(١) نفسه ، ص ٨٤ .

(٢) * عبد الله بن المبارك : أبو عبد الرحمن المروزي ، كان موصوفاً بالحفظ والفقه والعربية والزهد ، سمع من إسماعيل بن خالد ، والأعمش ، وهشام بن عروة ، وحميد الطويل ، وغيرهم من أئمة التابعين . قال أبو عمر بن عبد البر : أجمع العلماء على قبوله وجلالته وإمامته وعدله ، توفي عبد الله بن المبارك بهيت سنة ١٨١ هـ انظر في ترجمته البداية والنهاية ٥٣٧/١٠ ، صفة الصفوة ١٢١/٤.

(٣) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، تحقيق : جمال محمود مصطفى ، سنة ١٩٩٩ ، ١٤٢٠ ، ص ٢٣٤ .

(٤) الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ، المنصورة ، طبعة مكتبة الإيمان ، خرج أحاديثه، محمد بيومي ، عبد الله المنشاوي ، محمد رضوان مهنا ، ١٠ / ٥٧٦ د.ت.

حياة الحيوان أن هارون الرشيد كان يعجبه الحمام واللعب به ، فأهدي إليه الحمام وعنده (أَبُو البَخْتَرِي بْنُ وَهْبٍ القاضي) ، فروى له بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي – ﷺ – قال : " لا سَبْقَ إلاَّ في خُفٍّ أو حَافِرٍ أو جَنَاح " . فـزاد (أو جناح) وهي لفظة وضعها للرشيد ، فأعطاه جائزة سنية ، فلما خـرج قـال الرشيد : والله لقد علمت أنه كذب ، وأمر بالحمام أن يذبح فذبحت ، فقيل له : وما ذنب الحمام ، قال : من أجله كذب على رسول الله – ﷺ – "(١) .

ولقد روى عن المأمون " أن علّويه غنى قُدّامه :

بَرِئْتُ مِنِ الإِسْلاَمِ إِنْ كَانَ ذَا الَّذِي ∴ أَتَاكِ بِهِ الوَاشُوْنَ عَنِّى كَمَـا قَـالُوْا

فقال : يا علويه ، لمن هذا الشعر ؟ فقال : للقاضـي ، قـال : أي قـاضٍ ويحك؟ قال : قاضي دمشق ، فقال : يا أبا اسحق ؛ اعزله . قال : قـد عزلتـه ، قال: فيحضر الساعة قال : فأُحضر مخضوب قصير ، فقال له المـأمون : مـن تكون؟ قال فلانٌ الفلاني ، قال : تقول الشعر ؟ قال : قد كنت أقولـه ، فقـال يـا علّويه ، أنشده الشعر ، فأنشده ، فقال : هذا الشعر لك ؟ قـال : نعـم يـا أميـر المؤمنين ونساؤه طوالق ، وكل ما يملك في سبيل الله إن كان قـال الشـعر منـذ ثلاثين سنة إلا في زهد أو معاتبة صديق ، فقال : يا أبا اسحق ، اعزله ، فما كنت أولى رقاب المسلمين من يبدأ هزله بالبراءة من الإسلام" (٢).

وهكذا كانت غيرتهم على الدين ، وكان علمهم بحديث النبي – ﷺ – يتجلى فـي مواقفهم المتشددة بالذب عن الدين ، وأثر تعاليمه في سلوكهم وفي حكمهـم وفـي معاملتهم للرعية ، ولقد عرفنا أن الخليفة المهدي كان يغار علـى الـدين غيـرة شديدة، جعلته يتتبع الزنادقة ، ويفتك بهم ، ويطارد كل من تسول له نفسه التشكيك في أحكام العقيدة ، أو الاقتراب من أحكام الدين بالهمز أو اللمز، وقد كان كـذلك

---

(١) ابن وادران ، تاريخ العباسيين ، ط ١ ، بيروت ، طبعة دار الغرب الإسلامي ، تحيق وتقديم ، المنجـي الكعبي ، سنة ١٩٩٣ ، ص ١٠٨ ، الحديث صحيح (لا سبق إلا في خـف أو حـافر أو نصـل) تخـريج السيوطي عن أبي هريرة ، صحيح البخاري رقم ٧٤٩٨ تخريج الألباني .

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحـة ، طبعـة دار المعـارف ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، سنة ١٩٦٦ م ، ٨ / ٦٥٦ .

أبوه المنصور من قبل فقد " ذكر حماد التركي قال : كنت واقفاً على رأس المنصور فسمع جلبة في الدار ، فقال : ما هذا ياحمَّاد ؟ انظر فذهبت فإذا خادم له قد جلس بين الجواري ، وهو يضرب لهن بالطنبور ، وهن يضحكن ، فجئت فأخبرته فقال: وأي شيء الطنبور ؟ فقلت : خشبةٌ من حالها وأمرها .. ووصفتها له ؛ فقال لي : أصبت صفته ، فما يدريك أنت ما الطنبور ! قلت رأيته بخراسان ، قال نعم هناك ، ثم قال : هات نعلى ، فأتيته بها فقام يمشي رويداً حتى أشرف عليهم ، فرآهم ، فلما بصروا به تفرقوا فقال : خذوه ، فأخذ ، فقال : أضرب به رأسه ، فلم أزل أضرب به رأسه حتى كسرته ، ثم قال : أخرجه من قصرى ، وأذهب إلى حمران بالكرخ ، وقل له يبيعه "(١) .

ويذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء مجموعة من الأحاديث رواها الخلفاء العباسيون وبالبحث ثبت أن من بينها أحاديث صحيحة ، يقول السيوطي : " قال الصولي : كان المنصور أعلم الناس بالحديث " (٢). ومما ذكر أن المنصور رواه من حديث رسول الله – ﷺ – : " قال ابن عساكر في تاريخ دمشق .. عن المأمون ، عن الرشيد ، عن المهدي ، عن المنصور ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، أن النبي – ﷺ – " كان يتختم في يمينه "*(٣) . ويذكر أحاديث من رواية المهدي " قال الصولي : حدثني أحمد بن محمد بن صالح التمار ، حدثنا يحيى بن محمد القرشي ، حدثنا أحمد بن هشام ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن مسلم المدائني – وهو ثقة صدوق – قال : سمعت المهدي يخطب فقال : حدثنا شعبة عن علي بن زيد ، أبي نضرة ، عن أبي سعيد الخدري قال : خطبنا رسول الله – ﷺ – خطبة من العصر إلى مغيربان الشمس حفظها من حفظها ونسيها من نسيها ، فقال: " ألا

---

(١) نفسه ٨ / ٦٣ ، والخبر في ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، تحقيق ، محمد يوسف الدقاق ، ٥ / ٢٢٠ .

(٢) تاريخ الخلفاء ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، تحقيق جمال محمد مصطفى ، سنة ١٩٩٩ م ، ١٤٢٠ هـ ص ٢١٦ .

(٣) *عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، أن رسول – ﷺ – لبس خاتم فضة في يمينه فيه فص حبشي كان يجعل فصه مما يلي كفه " الإمام مسلم ، مختصر صحيح مسلم طبعة المكتبة الإسلامية ، عمان ، مكتبة المعارف ، الرياض سنة ١٤١٢ هـ ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، ص ٣٦١ .

إن الدنيا حلوة خضرة " الحديث بطوله[١] . ومما يرويه للرشيد من الحديث " حدثنا حدثنا عبد الرحمن بن خلف ، حدثني جدي الحصين بن سليمان الضبي ، سمعت الرشيد يخطب فقال في خطبته : حدثني مبارك بن فضالة ، عن الحسن عن أنس ، قال : قال رسول – ﷺ – اتقوا النار ولو بشق ثمرة " [٢].

وقد أورد السيوطي عدداً من الأحاديث لكل خليفة عند الحديث عنه ، بعضها في الصحاح بلفظه ومعناه وإذا نظرنا إلى خلفاء العصر العباسي (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) ، وقوادهم ووزراءهم كانوا يحفظون كتاب الله ، ويعرفون سنة النبي – ﷺ – عن علم تام ، وفهم واعٍ ومعرفة أحكام الدين ، ويجلسون مع العلماء ، ويناظرون الفقهاء ، ويحكمون بكتاب الله في مجالس القضاء ، فهم أقرب إلى العلماء منهم إلى العامة والغوغاء .

وتقديراً من خلفاء العصر العباسي (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) للعلم ، وإحساساً منهم بأهميته ، وعلم الدين في المقام الأول ، لم يكونوا يستوزرون أو يستكتبون إلا من ظنوه عالماً بكتاب الله عاملاً به ، وبسنة رسول – ﷺ – عاملاً بها أيضاً ، لذا كانوا يقومون على الفور بعزل من لم يجدوا فيه هذا العلم متوفراً ، وإذا نظرنا إلى الوزراء العباسيين وجدناهم جميعاً على قدرٍ عالٍ من العلم الديني ، والثقافة الإسلامية ، حتى إذا ثبت عكس ذلك تم عزل المقصِّر على الفور ، فقد كان للمأمون وزيرٌ (أبا عَبَّاد ثابت بنَ يَحْيَى بنَ يَسَار) ، وكان رجلاً أهوج – كما ذكر الطبري والجهشياري وابن طيفور – وقد " غضب (أبُو عبَّاد ثابِت بنُ يَحْيَى) يوماً على بعض كتابه ، فرماه بدواة كانت بين يديه ، فلما رأى الدم يسيل ندم وقال : صدق الله عز وجل : " والذين إذا ما غضبوا هم يتجاوزون "[٣] . فبلغ فبلغ ذلك المأمون ، فانتبه وعتب عليه ، وقال ويحك ! أنت أحد أعضاء المملكة

---

(١) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، تحقيق جمال محمود مصطفى ، سنة ١٩٩٩ م ، ١٤٢٠ ، ص ١٤٢٠ ، ص ٢٢٣ والحديث رواه مسلم ص ٥٤٥ .

(٢) نفسه ، ص ٢٣٧ ، والحديث رواه الإمام البخاري ، صحيح الإمام البخاري ، ط ١ ، طبعة دار التقوى للتراث ، ضبط ؛ رقم أحاديث ووضع فهارسه ، محمد عبد القادر أحمد عطا سنة ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م في المجلد الأول حديث رقم ١٣٢٨ ، ص ٣٤١ .

(٣) صحة هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ الشورى:٣٤.

وكتَّاب الخليفة ، ما تحسن أن تقرأ آية من كتاب الله ! فقال : بلى يا أمير المؤمنين ، إني لأقرأ من سورة واحدة ألف آية وأكثر فضحك المأمون وقال : من أي سورة ؟ قال: من أيها شئت ؛ فازداد ضحكه وقال : شئت من سورة الكوثر ؛ وأمر بإخراجه من ديوان الكتابة فبلغ ذلك دعبلاً الشاعر فقال :

أوْلَى الأمُورِ بِضَيْعَةٍ وَفَسَادِ .·. أَمَرٌ يُدَبِّرُه أبُوعَبَّادِ

خَرِقٍ عَلَى جُلسَائِهِ بِدَوَاتِهِ .·. وَمُضَمح وَمُرَفَّل بِمِدَادِ

فَكَأَنَّهُ مِنْ دَيرِ هِزْقَلَ مُفْلِتُ .·. حَرِد يَجُرُّ سَلاَسِلَ الأَقْيَادِ *[1][2]

وإذا نظرنا إلى وزراء العباسيين بأجمعهم وجدناهم يتمتعون بقدرٍ عالٍ من العلم والثقافة ، فقد وزر للمنصور أبو أيوب المورياني ، يقول عنه ابن الطقطقا : " فلما رآه السفاح أعجبته هيئته وفصاحته وصباحته "[3] ، ثم وزر له الربيع بن يونس ، يقول عنه ابن الطقطقا أيضاً : " كان الربيع جليلاً نبيلاً منفذاً للأمور مهيباً فصيحاً كافياً حازماً عاقلاً فطناً خبيراً بالحساب والأعمال " [4]. وكان يحيى بن خالد " كاتباً بليغاً لبيباً أديباً "[5] . والفضل بن الربيع كان " شهماً خبيراً بأحوال الملوك وآدابهم ، ولما ولى الوزارة تهوس بالأدب ، وجمع إليه أهل العلم فحصل منهم ما أراد في مدة يسيرة " [6]. وكذلك كان الفضل بن سهل ، وكان أحمد بن خالد الأحول ، وأحمد بن يوسف وزراء المأمون ، وكان غيرهم من الوزراء على قدر عالٍ من العلم والثقافة.

---

(١) * دير هزقل ، دير مشهور بين البصرة وعسكر مكرم ، وذكره الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك ، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، القاهرة ، دار المعارف ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ص ٥٢٨ .
وقال : يضرب به المثل لمجتمع المجانين ، ويقال للمجنون : كأنه من دير هزقل وذلك أنه مأوى المجانين بإحدى الديارات ، يشدون هناك ويداوون .

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، طبعة دار المعارف ، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، سنة ١٩٦٦ م ، ٨ / ٦٦٠ .

(٣) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، بيروت ، دار صادر ، ص ١٧٥ .

(٤) نفسه ، ص ١٧٨ .

(٥) نفسه ، ص ١٩٨ .

(٦) نفسه ، ص ٢١١ .

المبحث الثاني

التأثير الأدبي واللغوي

اهتم الخلفاء في هذا العصر باللغة العربية ، يتدارسون أشعارها ، الجاهلي منها والإسلامي ، ويحفظون نوادرها ، ويفقهون معانيها وأسرارها ، ويتدارسون نحوها وصرفها ، وهم يعرفون الأهمية الكبيرة لحفظ اللغة وفهم أسرارها ، لأنها لغة القرآن الكريم ، بفهمها تفهم أسراره ، وتعرف مرادات الله منه . فها هو هارون الرشيد يقول للأحمر النحوي حينما استدعاه لتعليم الأمين " يا أحمر ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصيِّر يدك عليه مبسوطةً ، وطاعتك عليه واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين أقرئه القرآن ، وعرّفه الآثار ، وروّه الإشعار ، وعلمه السنن ، وبصره مواقع الكلام وبدأه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا إليه ، ورفع مجالس القواد إذ حضروا مجلسه ، ولا تمرّن بك ساعةٌ إلا وأنت مغتنمٌ فيها فائدةً تفيده إياها ، من غير أن تخرق به فتميت ذهنه "[1] " ويحدثنا التاريخ أن الرشيد اتخذ فيمن اتخذ لتربية الأمين وتعليمه قطرباً النحوي "[2]. ومن المعروف بين رجالات العلم والأدب أن المفضل الضبي جمع مجموعته الشعرية المعروفة بالمفضليات للمهدي ، وسيأتي الحديث عن ذلك ، كان القاضي ابن أكثم مع المأمون يتحاوران ، فبلغ بهم أن ذكرا النحو ، " فقال المأمون : يا يحيى ، أعلمت أن علم النحو قد بلغ بأهله من عزة النفس وعلو الهمة منزلة بني هاشم في شرفهم، يا يحيى من قعد به نسبه نهض به أدبه :

قال الشاعر :

كُن ابْنَ مَن شِئْتَ واكْتَسِبْ أدَباً .:. يُغْنِيْكَ مَأْثُورهُ عن الحَسَبِ
إنَّ الفَتَى مَنْ يقُول ها أنذَا .:. ولَيْسَ الفَتَى مَنْ يَقُولُ كَانَ أَبِي

---

(١) المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ، طبعة المكتبة الإسلامية ، ٣ / ٣٦٢ .

(٢) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المأمون ، ط٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ م ، ١ / ١٦٢ .

قال (يَحْيَى بنُ أَكْثَم) : صدقت يا أمير المؤمنين ، أيَّد الله بك العالم " [١].

وكانوا يحرصون على تعليم أولادهم بوساطة نخبة من رجالات عصرهم فالمنصور ضمَّ الشرقيَّ بن القطامي إلى ابنه المهدي ، وأوصاه أن يعلمه أخبار العرب ومكارم الأخلاق وقراءة الأشعار ، والرشيد عهد بتعليم ابنه الأمين إلى الأحمر النحوي ثم الكسائي وعهد بالمأمون إلى اليزيدي وسيبويه وغيرهما[٢].

وقد كان بعضهم يتابع بنفسه تعليم العلماء لأبنائه ، حتى يقف على مقدار هذه الثقافة التي يجب أن يتزودوا بها ، ويقف على جدية العلماء في إيصال الضروري من العلم إليهم ، بل المشاركة في تعليمهم وتأديبهم بصورة مباشرة وغير مباشرة ، فعن (الكِسائِي) قال : " دعاني الرشيد ذات يوم وما عنده إلا حاشيته ، فقال : يا عليُّ ، أتحب أن ترى محمداً وعبد الله ؟ قلت : ما أشوقني إليهما يا أمير المؤمنين ، وأسر شيء إليّ معاينة نعمة الله جل وعز على أمير المؤمنين فيهما وبهما ، فأمر بإحضارهما ، فأقبلا كأنهما كوكبا أفقٍ ، يزينهما هديهما ووقارهما ، قد غضَّا أبصارهما ، وقاربا خطوهما ، حتى وقفا بباب المجلس ، فسلما بالخلافة ، ثم قالا : تمَّم الله على أمير المؤمنين نعمه ، وشفعها بشكره ، وجعل ما قلّده من هذا الأمر أحمد عاقبة بما يؤول إليه أمره حمداً اختصه به ، وأحاطه له بالبقاء ، وكثره لديه بالنماء ، ولا كدّر عليه منه ما صفا ، ولا خالط سروره الردَى ، فقد صرت للمسلمين ثقةً ومستراحاً ، إليك ينزعون في أمورهم ، ويقصدون في حوائجهم ، فأمرهما بالدنوِّ ، وصيَّر محمداً عن يمينه ، وعبد الله عن يساره ، ثم التفت إليّ فقال : يا عليّ ما زلت ساهراً مفكراً في معاني أبيات قد خفيت عليّ . قلت : إنْ رأي أمير المؤمنين أن ينشد فيها : فأنشدني :

قَدْ قُلْتُ قَوْلاً لِلغُرَابِ إِذْ حَجَلْ
عَلَيْكَ بِالقُوْدِ المَسَانِيْفِ الأُوَلْ
تَغَدَّ مَا شِئْتَ عَلَى غَيْرِ عَجَلْ

---

(١) ابن وادران ، تاريخ العباسيين ، ط ١ ، بيروت ، طبعة الغرب الإسلامي ، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي، سنة ١٩٩٣ ، ص ٣٥٦ .

(٢) أحمد فريد الرفاعي، عصر المأمون، ط ٢، الهيئة المصرية العاملة للكتاب، سنة ١٩٩٧ م ، ١٤٦/١.

فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ، إنّ العير إذا فصلت من خيبر وعليها التمر ، يقع الغراب على آخر العير ، فيطرده ، السَّوَّاق ، يقول هذا : تقدم إلى أوائل العير فكُلْ على عَجَل والقُوْدُ ، الطوال العناق ، والمَسَانِيفْ : المقدمة ، ثم أنشدني :

لعَمْرِي لئَنْ عَشَّرتُ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى ∴ نُهَاقَ الحِمَارِ إنَّنِي لَجَهُولُ

قلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ، كان الرجل من العرب إذا دخل خيبر ، أكبَّ على أربع ، وعشر تعشير الحمار ، وهو أن ينهق عشر نهقات ، متتابعات ، يفعل ذلك ليدفع عن نفسه حُمّى خيبر ، ثم أنشدني قول الآخر :

أجَاعِلُ أنْتَ بَيْقُوراً مُضَرَّمَةً ∴ ذَرِيْعَةً لَكَ بَيْنَ اللهِ وَالمَطَرِ

قلت : نعم ، كانت العرب إذا أبطأ المطر تشد العشر والسلع – وهما ضربان من النبت – في أدناب البقر ، وتلهب فيه النار ، وتشردُ البقر تفاؤلاً بالبرق والمطر ، ثم أنشدني :

لعَمْرُكَ مَا لامَ الفَتَى مِثْلُ نَفْسِهِ ∴ إذَا كَانَت الأَحْيَاءُ تُفْرَى ثيابُها
وَآذَنَ بالتَّصْفِيْقِ مَنْ سَاءَ ظَنُّهُ ∴ فَلَمْ يَدْرِ مِنْ أي اليَدَيْن جوابُها

قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، كان الرجل إذا ضل في المفازة ، قلب ثيابه وصاح كأنه يومئ إلى إنسان ، ويشتد شدة ، ويصفق بيديه ، فيهتدي إلى الطريق .

واستمر يسأل الكسائي وهو يجيب ، وكل ذلك أمام وَلَدَيْه ، ثم قال : اشتنشدهما – يعني ابنيه – فأنشدني محمدٌ الأمين :

وإنِّي لَعَفّ الفَقْرِ مُشْتَرِكُ الغِنَى ∴ وتَارِكُ شَكُل لا يُوافِقُه شَكْلِي
وَشَكْلِي شَكْلٌ لا يَقُومْ بِمثْلِهِ ∴ مِن النَّاسِ إلاَّ كُلُّ ذِي نِيْقَةِ مِثْلِي
ولِي نِيْقَةٌ فِي المَجْدِ والبَذْلِ لَمْ يَكُنْ ∴ تَأَنَّقَهَا فِيْمَا مَضَي أحَد قَبْلِي
وَأجْعَلُ مَالِي دُوْنَ عِرضِيَ جنَةً ∴ لِنَفْسِي ، وَأَسْتَغْنِي بِمَا كان مِنْ فَضْلِي

وأنشدني عبد الله المأمون :

بَكَرَت تَلُومُكَ مطْلَع الفَجَرِ ∴ وَلَقَدْ تَلُومُ بِغَيْرِ مَا تَدْرِي
مَا إنْ مَلَكْتَ مُصِيْبة نَزلَتْ ∴ إذْ لا يُحَكَّمُ طُائِعاً أمْرِي
مَلِكُ المُلُوكِ عَلَيَّ مُقْتَدِر ∴ يعْطي إذَا مَا شَاءَ مِنْ يُسْرِ

فَلَـــــرُبَّ مُغْتَـــــبِطٍ بِمُرْزِئَــــــةٍ .:. وَمُفَجَّــــع بِنَوائِــــب الــــدَّهْرِ
وَمُكَاشِـــحٍ لِـــي قَـــدْ مَـــدَدْتُ لُـــهُ .:. نَحْـــرَاً بِـــلاَ ضِـــرْعٍ وَلاَ غَمْـــرِ

حَتَّـــى يَقُـــوْلَ لِنفْسِـــهِ ، تَهفـــاً .:. فَبِـــأَي مَـــذْهَبِ غَايَـــةٍ أجْـــرِى
وَتَـــرَى قَنُـــاتِي حِـــينَ يَغْمِرُهَـــا .:. غَمْـــز الثِّقَـــاتِ بَطيْئَـــةَ الكَسْـــرِ

فقال : يا عليُّ ، فيكف تراهما فقلت :

أرَى قَمَـرَىْ أفْـقٍ وَفرْعَـي بَشَـامَةٍ .:. يزيْنُهُمَـا عِـرق كَـريْم وَمَحْتَـدُ
يَسُـدَّانِ آفَـاقَ السَّـمَاءِ بِشِـيمةٍ .:. يُؤَيِّـدُها حَـزْمٌ وَعَضْـب مُهَنَّـدُ
سـلِيْلَي أمِيْـرِ المُـؤمِنيْنَ وَحَـائِزَى .:. مَوَارِيْثَ مَا أَبْقَـى النَّبِـيُّ مُحَمَّـدُ

ثم قلت : يا أمير المؤمنين ، زَرْع زكا أصله ، وطاب مغرسه ، وتمكنت عروقه ، وعذبت مشاربه ، غذاهما ملك أغر ، نافد الأمر ، واسع العلم ، عظيم الحلم والقدر، علاَّهما فعليا وحكمهما فتحكما ، وعلمهما فتعلما ، فهما يطولان بطوله ، ويستضيئان بنوره ، وينطلقا بلسانه ، ويتقلبان في سعادته ، فما رأيت أحداً من أبناء الخلفاء أذرب منها لساناً ، ولا أعذب كلاماً ، ولا أحسن ألفاظاً ، ولا أشد اقتداراً على تأدية ما حفظا ورويا ، فأسأل الله أن يزيدهما الإيمان تأييداً وعزاً ، ويمتع أمير المؤمنين بهما ، ويمتعهما بدوام قدرته وسلطانه ، ما بقى ليل وأضاء نهار ! فضمهما إلى صدره وجمع يديه عليهما ، فلم يبسطهما حتى رأيت دموعه تتحادر على صدره"[1]. ولقد صدق صاحب " الاتجاهات الأدبية في قصر المأمون حينما قال : إن هذه من أروع ندوات الرشيد التربوية التعليمية ، وكأني به على علمٍ بنظريات التربية الحديثة "[2] . ومن يتبع هذه المتابعة فإن مصادر الأدب والتاريخ مملوءة بالندوات التي عقدها الخلفاء لتعليم أبنائهم الفضيلة واللغة والأدب فها هو المفضّل الضبي يقول " وجه إلىّ الرشيد ، فما علمت إلا وقد جاءتني

---

(١) البيهقي ، المحاسن والمساؤي ، مصر ، مكتبة النهضة ، ٢ / ١٣٩ حتى ١٤٣ والحادثة في مروج الذهب للمسعودي ٤ / ٢١٠ – ٢١٢ ط منشورات الجامعة اللبنانية .

(٢) سامي عابدين ، الاتجاهات الأدبية في قصر المأمون ، مطبعة دار العلوم العربية ، ص ٣٨ .

الرسل ليلاً ، فقالوا : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت حتى صرت إليه ، وذلك يوم الخميس ، وإذا هو متكئ ، ومحمد بن زبيدة عن يساره ، والمأمون عن يمينه ، فسلَّمت ، فأومأ إليّ فجلست ، فقال لي : يا مفضّل ، قلت ؛ لبيك يا أمير المؤمنين، قال : كم اسماً في " فسيكفيكهم " ؟ قلت : ثلاثة أسماء يا أمير المؤمنين ، قال وما هي؟ قلت : الكاف لرسول الله – ﷺ – ، والهاء والميم ، هي للكفار ، والياء وهي لله عز وجل ، قال : صدقت ؛ هكذا أفادنا هذا الشيخ – يعني الكسائي – ثم التفت إلى محمدٍ ، فقال له : أفهمت يا محمد ؛ قال : نعم قال أعد عليّ المسألة كما قال المفضل ، فأعادها ، ثم التفت إليَّ فقال : يا مفضّل عندك مسألة تسألنا عنها بحضرة هذا الشيخ! قلت : نعم يا أمير المؤمنين ؛ قال وما هي ؟ قلت : قول الفرزدق :

أَخَذْنَا بِأَفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمُ ∴ لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالِعُ

قال : هيهات : أفادناها متقدماً الشيخ ؛ لنا قمراها ، يعني الشمس والقمر ..." (١) .

وبالنظر إلى هذه الأسئلة التي يسألها هارون الرشيد لعلماء اللغة والنحو في عصره؛ نجد أنها أسئلة تحوي نقاطاً دقيقة من نقاط العلم ، لا يمكن أن تصدر من إنسان سطحي الثقافة هامشي الفكر ، يسأل عن أمورٍ عامية ، بل هي أسئلة سهر عليها مفكراً فيها كي يقولها ، فإذا كان الخليفة الأب يسهم في هذه المسائل العلمية الدقيقة ، فمما لا شك فيه أنه قد علمها وتدارسها ، فخطا خطوات واسعة في علم اللغة وآدابها ، وفهم أسرارها ، ثم هو يرجو أن يعلمها أبناءه ، فمن غير المعقول أن يعلمهم هذه المسائل في اللغة والأدب ويجهلها هو ، أو أنه تعلمها طفرةً واحدة دون تعلمٍ شارع يمر به كل من سعي إلى المعرفة والعلم ، إذا لابد للمتعلم لكي يصل إلى هذه الدرجة من الدقة أن يكون قد مر بمراحل علمية ضرورية كمرحلة أولية يستطيع على أساسها أن يفهم هو المسائل .

وكان هارون الرشيد ينتهز فرصة وجود العلماء إلى جانبه ، ليتعلم منهم ، ويستفيد من وجودهم ، " سأل الرشيد عن بيت الرَّاعي :

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، طبعة دار المعارف ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، سنة ١٩٦٦ ، ٨ / ٣٦١ .

قَتَلُوا ابْنَ عَفَّانَ الخَلِيْفَةَ مُحْرِماً ∴ وَدَعَا فَلَمْ أَرَ مِثْلَهُ مَخْزُوْلاَ

ما معنى محرماً ، قال الكسائي ، إحرامٌ بالحج ، فقال الأصمعي : والله ما كان أحرم بالحج ولا أراد الشاعر أنه أيضاً في شهر حرام ، يقال : أحرم إذا دخل فيه، كما يقال أشهر إذا دخل في الشهر ، وأعام إذا دخل في العام ، فقال الكسائي : ما هو غير هذا ، وإلا فما أراد ، فقال الأصمعي : ما أراد عديّ بن زيد بقوله :

قَتَلُوا كِسْرَى بِلَيْلٍ مُحْرِماً ∴ فَتَوَلَّى لَمْ يُمَتَّعْ بِكَفَنْ

أيُّ إحرام لكسرى ؟ فقال الرشيد : ما تطاق ، فما المعنى ؟ قال : كل من لم يأت شيئاً يوجب عليه عقوبةً فهو محرم لا يحل شيء منه ، فقال الرشيد : ما تطاق في الشعر يا أصمعي"(١) . ولم تكن الألفاظ الغريبة في العربية لتمر على هارون الرشيد مروراً عابراً ، ولكنه كان لا يترك العالم حتى يفهم منه غريب اللغة " عن الأصمعي قال : دخلت على هارون الرشيد ومجلسه حافلٌ ، فقال : يا أصمعي ، ما أغفلك عنا وأجفاك لحضرتنا ؟ فقلت : والله يا أمير المؤمنين ما ألا قتني بلادٌ بعدك حتى أتيتك ، فأمرني بالجلوس فجلست ، فلما تفرق الناس – إلا أقلهم نهضت للقيام ، فأشار إليّ أن أجلس ، فجلست حتى خلا المجلس فلم يبق غيري وغيره وما بين يديه من الغلمان ، فقال لي : يا أبا سعيد : ما ألا قتني ؟ قلت : ما أمسكتني ، وأنشدته :

كَفَّاكَ كَفٌّ لاَ تُلِيقُ دِرْهَمَا ∴ جُوْدَاً وَأُخْرَى تُعْطِ بالسَّيْفِ الدَّمَا(٢)

فقال لي : أحسنت ، وهكذا فكن وقِّرنا في الملأ ، وعلمنا في الخلاء ، فأمر لي بخمسة آلاف درهم ، وفي رواية دينار "(٣) ، فهو أولاً لا تحجبه أبهة الملك وعظمة الخلافة عن طلب العلم متى وجد إلى ذلك سبيلاً ، فهو لا يستحى أن يعترف بجهله ببعض المسائل ، ليس هذا فقط ، بل لا يقنع بأن يستمر جاهلاً لها ، وهو يعرف للعالم قدره للحكيم منزلته ، فلقد كان هارون الرشيد وابنه المأمون أكثر خلفاء هذا العصر تقديراً للعلماء وإعلاءً لمنزلتهم ، واعترافاً بفضلهم

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دار الفكر العربي ، ٦ / ٢١٢ .

(٢) الفعل المضارع (تعطي) ليس مجزوماً ولكنَّ الضرورة أوقعت الشاعر في الخطأ .

(٣) نفسه : ٣٦٥/٥.

ومكانتهم التي توجب على كل الناس أن ينزلوا لها من منازلهم العالية . ويكرمونهم أشد أنواع التكريم ، " كان المأمون قد وكل (الفرَّاءَ) يلقن ابنيه النحو، فلما كان يوماً أراد الفراء أن ينهض إلى بعض حوائجه ، فابتدرا إلى نعل الفرَّاء يقدمان له ، فتنازعا أيهما يقدمه ، ثم اصطلحا أن يقدم كل منهما فردا ، فقدماها ، وكان المأمون له على كل شيء صاحب خبر ، فرفع ذلك الخبر إليه ، فوجه إلى الفراء فاستدعاه ، ودخل عليه فقال له من أعزُّ الناس ، قال : ما أعرف أعز من أمير المؤمنين ، قال : بلى من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليا العهد ، حتى رضى كل واحد منهما أن يقدم فرداً ، قال يا أمير المؤمنين لقد أردت أن أمنعهما من ذلك ، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليهما ، أو أكسر نفوسهما عن شريفة حرصا عليها .

فقال له المأمون " لو منعتهما عن ذلك لأوجعتُك لوماً وعتباً ، وألزمتك ذنباً ، وما وضع ما فعلاه من شرفهما ، بل رفع من قدرهما وبين عن جوهرهما ، ولقد تبينت لي مخيلة الفراسة بفعلهما ، فليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلاث : عن تواضعه لسلطانه ، ولوالده ، ولمعلمه العلم"[١] . فإلي هذه الدرجة يصل الشعور عندهم بمكانة العالم ،حتى يعدون حمل حدائه شرفاً وليس نقيصةً .

هذا هو الجهد الذي بذله الآباء الخلفاء لكي ينهضوا بأبنائهم كي يجعلوهم في مكانة علمية تقارب مكانة العلماء ، ولنا أن نسأل ، هل استوعب المتعلمون الثقافة العربية ، وآداب العرب القديمة كما ينبغي لهم أن يستوعبوها ؟ ! يقول الباحث: نعم لقد كانوا على وعيٍ تامٍ بالأدب العربي القديم ، بل وحفظوا الكثير منه ، وفهموه فهماً جيداً ، وكذلك منهم – بل غالبيتهم – من تابع آداب عصره وعرف جيده من رديئه، فهو على علم بما قيل في الشعر ، بل ويحفظ كثيراً منه حفظاً جيداً ، ويصوب أخطاء وقع فيها الشعراء المعاصرون له ، وأخيراً فمن هؤلاء الحكام والخلفاء من قدر على نظم الشعر خالياً من الأخطاء ، مملوءاً بالروعة والنصاعة والفصاحة بجانب بلاغة القول النثري التي تنضج بالبلاغة والفصاحة ، والفهم لقواعد اللغة .

---

(١) نفسه : ٦ / ١٧٣ .

أ- الاهتمام بالشعر القديم :

أما عن معرفتهم بالشعر القديم فمما لا شك فيه أن هناك تبايناً بين الحكام في العلم به ، فهذا من طبيعة الأشياء ، ولكنهم على الجملة كانوا يحفظون الكثيــر منــه ، ويعرفون قدره " وكانوا يعنون بالمسائل اللغوية واللفظية عناية عظيمة ، كما كانوا يعنون أيما عناية بحفظ الأشعار ورواياتها ، ويعتبرون عدم حفظها مصيبة وكارثة، فقد روى الهيثم بن عدي عن ابن عياش قال : لما مات جعفر بن المنصور مشــي المنصور في جنازته من المدينة إلى مقابر قريش ، ومشى الناس أجمعــون معــه حتى دفنه ثم انصرف إلى قصره ، ثم أقبل على الربيع انظر من في أهلــي مــن ينشد :

أمِــــنَ المَنُــــونِ ورَيْبِهَـــا تَتَوَجَّـــعُ(١)

حتى أتسلى بها عن مصيبتي ، قال الربيع : فخرجت إلى بني هاشم وهم بأجمعهم حضورٌ فسألتهم عنها فلم يكون فيهم أحدٌ يحفظها ، فرجعت فأخبرته فقــال : والله لمصيبتي بأهل بيتي ألا يكون فيهم أحدٌ يحفظ هذا لقلة رغبتهم في الأدب ، أعظــم وأشد عليَّ من مصيبتي بابني ، ثم قال : انظر هل في القواد والعوام من الجند من يعرفها ، فإني أحب أن اسمعها من إنسان ينشدها ، فخرجت فاعترضت النــاس ، فلم أجد أحداً ينشدها إلا شيخاً كبيراً مؤدباً قد انصرف من موضع تأديبه ، فســألته هل تحفظ شيئاً من الشعر ؟ فقال : نعم شعر أبي ذؤيب فقلت : أنشدني ، فابتدأ هذه القصيدة العينية ، فقلت له : أنت بغيتي ، ثم أوصلته إلى المنصــور ، فاستنشــده إياها"(٢) فالمنصور يعرف القصيدة معرفة تامة ، ويقدر قيمتها ، وإن كان يريد أن يسمعها من غيره ، فليس معنى ذلك أنه يجهلها ، بل مصيبته تستدعي أن يسمع لا

---

(١) الشعر لأبي ذؤيب الهُزلِيِّ من قصيدته في رثار بنيه ، أبو سعيد الحسين بن الحسين الســكري ، شــرح شعر الهندليين ، تحقيق : عبد الستار فراج ، ٤/١ ، أخبار أبي ذويب في أبو الفــرج علــي بــن الحســين الأصفهاني ، الأغاني ، القاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٣٥ م ، ٦ / ٢٦٤ .

(٢) أحمد فريد الرفاعي ،عصر المأمون ، ط ٢ ، الهيئة العامة المصــرية للكتــاب ، ســنة ١٩٩٧ م ، ١ / ١٤٧.

أن ينشد ، ثم هو في هذا الجو المملوء حزناً على الابن المفقود ، فإن أبا جعفر المنصور لا ينسى أن يمنحه على إنشاده مائة درهم .

ثم هو – أي المنصور وأيضاً يطلب حماداً الراوية ، ويأمر بضرورة البحث عنه وإحضاره أينما كان " فلما مثل بين يديه قال له : أنشدني شعر هفان بن همام بن نضلة يرثي أباه ؛ فأنشده :

خَلِيْلَيَّ عُوْجَا إنَّهَا حَاجَةٌ لَنَا .:. عَلَى قَبْرِ هَمَّامٍ سَقتُه الرَّوَاعِدُ

عَلَى قَبْرِ مَنْ يُرْجَى نَدَاهُ ويُبْتَغَى .:. جَدَاهُ إذَا لَمْ يَحْمَدِ الأَرْضَ رَائِدُ

كَرِيْمُ النَّثَا حُلْوُ الشَّمَائِلِ بَيْنَه .:. وَبَيْنَ المُزَجَّى نَفْنَفٌ مُتَبَاعِدُ

إذَا نَازَعَ القَوْمُ الأَحَادِيْثَ لَمْ يَكُنْ .:. عَيِيًّا وَلا ثُقْلاً عَلَى مَنْ يُقَاعِدُ

صَبُور عَلَى العِلاَّتِ يُصْبِحُ بَطْنُهُ .:. خَمِيْصاً وَآتِيه عَلَى الزَّادِ حَامِدُ

وَضَعْنَا الفَتَى كُلَّ الفَتَى فِي حُفَيْرَةٍ .:. بَحرَّيْنِ قَدْ رَاحَتْ عَلَيْهِ العَوَائِد

صَرِيَعاً كَنَصْلِ السَّيْفِ تَضْرِبُ حَوْلَه .:. تَرَائِبهُنَّ المُعْوِلاتُ الفَوَاقِدُ

قال: فبكى أبو جعفر المنصور حتى أخضل لحيته ، ثم قال : هكذا كان أخي أبو العباس – رضى الله عنه "[١] . وهذا هارون الرشيد ، الخليفة العالم الفطن الذكى ، الخبير بآداب العرب القديمة ، " قال الأصمعي : تأخرت عن الرشيد ثم جئته ، فقال : كيف أنت ، قال بت بليلة النابغة ، فقال : إنا لله هو والله قوله :

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرَتْنِي ضَئِيْلَةٌ .:. مِن الرُّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعُ

فعجبت من ذكائه وفطنته لما قصدت "[٢] . وهذا هارون الرشيد أيضاً ، يدخل عليه (سَهْلُ بنُ هَارُوْن) وهو يضاحك المأمون فقال : اللهم زده من الخيرات ، وأبسط له من البركات ، حتى يكون في كل يوم من أيامه مربياً على أمسه ، مقصراً عن غده ! فقال له الرشيد : يا سهل من روى من الشعر أحسنه وأرصنه ، ومن الحديث أفصحه وأوضحه : إذا رام أن يقول لم يعجزه القول ، فقال : سهل بن

---

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، القاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٣٥ م ، ٦ / ٨٠ – ٨١ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دار الفكر العربي ، ٥ / ٣٦٥ .

هارون: يا أمير المؤمنين ما ظننت أن أحداً تقدمني إلى هذا المعنى ، قال : بل (أعْشَى هَمَدَان) حيث يقول :

رَأَيْتُكَ أمْس خَيْرَ بَنِي مَعدّ ∴ وَأنْتَ اليَومَ خَيْرٌ مِنْكَ أمْس

وَأَنْتَ غَداً تَزِيْدُ الضعف خيراً ∴ كَذَاكَ تَزِيدُ سَادَةُ عَبْدِ شَمْسِ[1]

فلو لم يكن حاضراً كمٌّ غزير من الأدب الرفيع في ذهن الرشيد ، لما استطاعت بديهته أن تستحضر هذه الأبيات بهذه السرعة ، ثم هو يعقد مقارنة سريعة بين قول (سَهْلٍ بنِ هَارُوْن) وقول (أعْشَى هَمَدَان) ، ثم يمرر على ذهنه الأدب السابق عليه حتى يقع على هذه الأبيات ، ولم يكن الرشيد وحده هو الفطن للأدب العربي السابق عليه ، الواعي له ، المملوء به إعجاباً وشغفاً ، فإذا قلنا إن المفضل الضبي قد جمع مجموعته الشعرية المسماة بالمفضليات للخليفة المهدي حينما كان أستاذاً له ومعلماً ، فنستطيع أن نقول مطمئنين إن الخليفة المهدي كان عالماً بالشعر العربي القديم ، فقد روى صاحب الأغاني قال " كانوا في دار المؤمنين المهدي بعيْسى بَاز ، وقد اجتمع فيها عدة من الرواة والعلماء بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها إذ خرج بعض أصحاب الحاجب ، فدعا بالمفضل الضبي الراوية ، فدخل فمكث ملياً ثم خرج إلينا ومعه حمادّ والمفضل جميعاً ، وقد بان في وجه حماد الانكسار والغم ، وفي وجه المفضل السرور والنشاط ، ثم خرج حُسَيْنَ الخادِم معهما فقال : يا معشر من حضر من أهل العلم ، إن أمير المؤمنين يعلمكم أنه وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره ، وأبطل روايته لزيادته في أشعار الناس ما ليس منها ، ووصل المفضل بخمسين ألفاً لصدقه وصحة روايته ، فسألنا عن السبب فأخبرنا أن المهدي قال للمفضل لمَّا دعا به وحده : إني رأيت (زُهَيْر بنَ أبِي سُلْمَى) افتتح قصيدته بأنه قال :

---

(١) ابن عبد ربه (عمر جمال الدين يوسف بن عمر) ، العقد الفريد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ضبطه وصححه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه ، أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الأبياري، سنة ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م ، ٥ / ٣٣٩ . وأبو اسحق الحصري القيرواني، زهر الآداب ، مصر المطبعة الرحمانية ، تحقيق : زكي مبارك ، ٢ / ٢٥٣ .

دَعْ ذَا وَعدِّ القَوْلَ فِي هَرِمٍ

ولم يتقدم له قبل ذلك قول ، فما الذي أمر نفسه بتركه ؟ فقال له المفضل : ما سمعت يا أمير المؤمنين في هذا شيئاً ، إلا أني توهمته كان يفكر في قول يقوله ، أو يروي في أن يقول شعراً ، فعدل عنه إلى مدح هرم وقال : دع ذا ... الخ ، ثم دعا بحماد فسأله عن مثل ما سأل عنه المفضل ، فقال : ليس هكذا قال زهير يا أمير المؤمنين ؛ قال : فكيف قال ؟ فأنشده :

لمِنِ الدِّيَارُ بِقُنَّةِ الحَجْرِ ∴ أقْوَيْنَ مُذْ زَمَنٍ وَمُذْ دَهْرِ

قفْرُ بِمُنْدَفِعِ النَّجَائِبِ مِنْ ∴ خَفْوَى أُولاَتِ الضَّالِ وَالسِّدْرِ

دَعْ ذَا وَعَدِّ القَوْلَ فِي هَرِمِ ∴ خَيْرِ الكُهُوْلِ وَسَيِّدِ الحُضْرِ

فأطرق المهدي ساعةً ، ثم أقبل على حماد فقال له : قد بلغ أمير المؤمنين عنك خبرٌ لابد من استحلافك عليه ، ثم استحلفه ، بأيمان البيعة وكل يمين محرجة ليصدقنه عن كل ما يسأله عنه ، فحلف له بما توثق منه قال له : اصدقني عن هذه الأبيات ، ومن أضافها إلى زهير ، فأقر له حينئذ أنه قائلها ، فأمر فيه وفي المفضل بما أمر به من شهرة أمرهما وكشفه"(١) . والذي يبدو من استنطاق هذا الخبر وللوهلة الأولى أن الخليفة المهدي شك في أمرين ، أولهما : شكه في الزيادة في عدد الأبيات ، والتي قد تكون أملتها عليه حاسته الثقافية ، فلم يستطع قبولها ، أما الأمر الآخر : فإنه شك في صدق حماد الراوية ، وذلك استحلفه بكل إيمان محرجة مغلظة بحمل الحالف بها يخشى الكذب والتمادي في الخطأ والزيادة ، وقد نلاحظ أيضاً أنه لم يقدم على استحلاف معلمه المفضل ؛ لاعتقاده صدقه وصدق روايته ، وأنه بعيد عن الكذب وبسبب ذلك " ذكر محمد بن زياد ، قال المفضل : قال لي المهدي : اجمع لي الأمثال مما سمعتها من البدو ، وما صح عندك ، قال فَكتبت له الأمثال وحروب العرب مما كان فيها ، فوصلني وأحسن إليِّ " (٢). فهو

---

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، القاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٣٥ م ، ٦ /٩٠ .

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، طبعة دار المعارف ، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، سنة ١٩٦٦ ، ٨ / ١٨٠ .

أستاذه ، ومعلمه وثقته ، لذا أثره بجمع العلم ، حتى يصل إليه وإلى الناس شيء موثوق به ، ولقد صدق الرفاعي حين قال : " لا يقدس العرب من علوم الحياة وفنونها شيئاً أكثر من تقديسهم الشعر الذي استودعوه أفكارهم وأخبارهم ، وحفظوا به فخرهم ومناسبهم ، وساقوا به الجيوش والجحافل ، فدكت عروشاً وأبادت ممالك، وضمنوه من أخلاقهم وعاداتهم وشئون حياتهم ما جعله مكان فخرهم ومفزع أمرهم ، وقد بقيت للشعر هذه المكانة في كل عصوره العربية ، ولم ينل منه أن دولة العباسيين قامت على سواعد الفرس ، وحلوا منها مكان الصدور والحكام ، فإن الخلفاء والسادة وجمهرة الأمراء والأدباء كانوا يحملون فوق أكتافهم رؤوساً عربيةً ، حفظوا فيها تراث آبائهم ومفاخر أجدادهم ، وأقبلوا على الشعر وإنشاده "(١) . وهذا عن الشعر القديم وتمثل الخلفاء له ، حفظهم إياه وكتب التراث الأدبي والتاريخي مملوءة بأخبار هؤلاء الخلفاء مع الشعر العربي القديم .

ب- الاهتمام بآداب عصرهـــــم :

كان الخلفاء يتابعون عن كثبٍ حركة الأدب شعراً ونثراً ، فيجلسون للشعراء فـــي ندوات ملئت بها مصادر الأدب ؛ فلم يكن بيتٌ نادرٌ ، ومعنى جميـــلٌ ، أو ســـبكٌ شعريٌّ محكم من مدح أو هجاء أو غزل أو حكمة ، إلا وكان عند الخلفاء علم به ، كل خليفة حسب ميوله واهتماماته ، من ذلك ما يروي عن " المهدي أن (مَـــرْوَانَ بن أَبِي حَفْصَةَ) دخل عليه بعد وفاة (مَعْن بن زَائِدةَ الشَّيْبَاني) في جماعـــة مـــن الشعراء فيهم (سَلْم الخَاسِر) وغيره ، فأنشد مديحاً فيه ، فقال له : ومن أنـــت ؟ قال : شاعرك يا أمير المؤمنين وعبدك مروان بن أبي حفصة ، فقال له المهدي ، ألست القائل :

أَقَمْنَـــا باليَمَامَـــة بَعْـــدَ مَعْـــنٍ .·. مُقَامـــاً لا نُرِيْـــدُ بـــه زَوَالاَ
وَقُلْنَـــا أَيْـــنَ نَرْحَـــلُ بَعْـــدَ مَعْـــنٍ .·. وَقَـــدْ ذَهَـــبَ النَـــوَالُ فَـــلا نَـــوَالاَ

---

(١) عصر المأمون ، ط ٢ ، الهيئة المصري العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ م ، ١/١٥١ ١٥٢ .

قد ذهب النوال فيما زعمت ، فلمَ جئتَ تطلبُ نوالنَا : لا شيء لك عندنا"(١) .

وإن الإنسان ليعجب بما حدث مع مروان بن أبي حفصة ، كيف عرف الخليفة هذا المدح ، ولا أقصد كيفية المعرفة ، لأن أبواب المعرفة كانت مفتحة أمام كل الناس ، ولكني أقصد كيف حفظه ، وكيف تمكن من معرفة اسم صاحبه ، علماً بأنه لا يعرف شخصه بدليل أنه سأله عن نفسه ، حتى حانت اللحظة المناسبة، فإذا هو يكرره بإجادة تامة ، ولو لم يكن مهتماً بالأدب الجيد ؛ لشغلته أمورٌ كثيرة من أمور الملك والحكم والخلافة عن متابعة مدح ليس له ، حتى غاظه كل هذا الغيظ ، فإذا به يطرده من مجلسه بسبب شعره فهو خليفة واعٍ بأدب عصره مهتمٌ به حافظٌ له .

وهذا هارون الرشيد فيم يرويه أبو الفرج عن (يَزِيْدَ بنِ مَزِيْدَ الشَّيْبَاني) "أرسل إلي الرشيد يوماً في وقت لا يرسل فيه إلى مثلي ، فأتيته لابساً سلاحي ، مستعدًّا لأمرٍ إن أراد مني ، فلما رآني ضحك إليَّ ثم قال : يا يزيد ، خبِّرني من الذي يقول فيك :

تَراهُ فِي الأَمْنِ فِي دِرْعٍ مُضَاعَفَةٍ ∴ لا يَأْمنُ الدَّهْرَ أنْ يُدْعَى عَلَى عَجَلِ

فقلت : لا أعرفه يا أمير المؤمنين ؛ فقال : سوءةً لك من سيد قوم يمدح بمثل هذا الشعر ولا يعرف قائله ! وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه ووصل قائله ، وهو مسلم بن الوليد ؛ فانصرفت فدعوت به ، ووصلته ووليته"(٢) . وللمرء أن يعجب أن يكون الخليفة السيد أعلم بالمدح ممن قيل فيه المدح ، ليس هذا فقط بل أن يكون الخليفة أعلم بالشعر من قائد من قواده ، علماً بأن هموم ومشاغل الخليفة أكثر بطبيعة الحال من هموم القائد ، خاصة إذا كان هارون الرشيد ، الذي كان يعلم جيداً تبعة مسئوليته عن الأمة ، ولكن حبه للأدب الرفيع ، ورغبته في العلم ، واهتمامه بآداب عصره ، جعله لا يقول يعلم به فقط بل ويحفظه حفظاً جيداً ثم

---

(١) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المأمون ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ م ، ١ / ١٥٢ الشعر في ديوان مروان ، ص ٧٩ .

(٢) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني طبعة دار الشعب طبعة كاملة محررة معها فهارس ، بإشراف وتحقيق : إبراهيم الأبياري ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م . ٢١ / ٧٢٦٨ .

يوبخ قائده على جهله به ، ولا يقل عنه بأدب عصره علماً ابنه المـأمون ، فقد رُوى عنه أنه " قال لأبي عمرو الشيباني : من أشعر الناس ؟ فقال : قد اختُلف في هذا يا أمير المؤمنين ؛ فقيل أشعر الناس (امْرُؤ القَيّس) إذا ركب ، و (زُهَيْر) إذا رغب ، و (النَّابِغَة) إذا رهب ، و (الأعْشَى) إذا طرب ، فقال المأمون : دعني من هذا ، من الذي يقول :

لا يَزالُ اللَّيْلُ حَيْثُ خلَّتْ ∴ فَدَهْرُ شُرَّابِهَا نَهَارُ

فقال : أبو نواس . فقال : من الذي يقول :

فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِم ∴ كَتَمَشِّي البُرْءِ فِي السَّقَمِ

فقال : أبو نواس . فقال : من الذي يقول :

إذا مَا أَتَتْ دُونَ اللَّهَاتِ مِنَ الفَتَى ∴ دَعَاهَمَّهُ مِنْ صَدْرِه بِرَحيْلِ

فقال : أبو نواس . فقال : هذا أشعر الأوّلين والآخرين" (١) .

والذي تجدر ملاحظته والإشارة إليه ، ليس إعجاب الخليفة بشاعرٍ معاصر له ، فمن حقه أن يعجب بمن يراه – من وجهة نظره – جيد القول ، بل لحكمة له بأنه أشعر الناس ، علماً بأن مسألة أشعر الناس هذه كانت محل خلاف بين العلماء ، ولو لم يكن الخليفة راسخ القدم في تمييز الشعر لاقتنع بما قاله أبو عمرو الشيباني نقلاً عن علماء اللغة والأدب ، خاصة وأن المعاصرة كثيراً ما تكون حاجزاً بين المعاصر من الشعراء وبين تفضيل شعره ، إلا أن الخليفة العالم يفضل أبا نواس على غيره من الشعراء قديماً وحديثاً ، ولم يكن هذا بالطبع رأياً عشوائياً منه إن صح التعبير ولكنه الذوق الفني العالي عند المأمون .

وكان كذلك هارون الرشيد فيما يحكيه عنه (شُرَاحِيلُ بنُ مَعْن بن زَائِدَةَ) " حج الرشيد وزميله (أبُو يُوسف القاضي) ؛ وكنت كثيراً ما أسايره ، فبينما أنا أسايره إذ عرض له أعرابيٌ من بني أسد ، فأنشده شعراً مدحه فيه وقرظه ، فقال له الرشيد ، ألم أنهك عن مثل هذا في شعرك يا أخا بني أسد ؟ إذا أنت قلت فقل كما قال مروان بن أبي حفصة في أبي هذا وأشار إليَّ ما يقول :

---

(١) ابن وادران ، تاريخ العباسيين ، ط ٢ ، بيروت ، طبعة دار الغرب الإسلامي ، تحقيق : وتقديم : المنجي الكعبي ، سنة ١٩٩٣ ، ص ٤٢٠ .

بَنُــوْ مَطــرٍ يَــوْمُ اللّقَــاءِ كَــأنَّهُمْ ∴ أُسُوْدُ لَهَا فِي غِيــلِ خَفَّــانَ أشْــبُلُ
هُمُ يَمْنَعُــونَ الجَــارَ حَتَّــى كأنَّمَــا ∴ لَجَــارِهُمُ بَــيْنَ السِّــمَاكَيْن منــزل
بَهَا لِيْلُ في الإسْلاَمِ سَادُوا ولَمْ يَكُــنْ ∴ كَــأَوَّلِهِم فــي الجَاهِلِيَّــةِ أَوَّلُ
هُمُ القَوْمُ إِنْ قَالوُا أصَابُوا وإِنْ دُعُوا ∴ أجَابُوا وَإِنْ أَعْطَوْا أطَابُوا وأجْزَلُــوا

وَمَــا يَسْــتَطِيعُ الفَــاعِلُوْنَ فِعَــالَهُمْ ∴ وَإِنْ أحْسَنُوْا فِي النَّائبات وأجْمَلُوا[(١)]

فهذا وعيٌ تامٌّ ، ومعرفةٌ كاملة بأدب العصر ، وقد كان هارون الرشيد مضرب المثل في الحكمة والعلم والاهتمام بالعلماء والإحاطة بالأدب ، وجعل ذلك أحمد فريد الرفاعي يقول عنه : " على أن شهرة هذا الخليفة ومصدر صيته راجع إلى أن حكمه عجّل بدخول عصر الآداب ، فقد كان قصره المثابة التي يهرع إليها الحكماء والعلماء من أنحاء العالم ، وكانت سوق البلاغة والشعر والتاريخ والفقه والطب والموسيقى والفنون نافقة ، إذ يقابلها الخليفة مقابلة من في سجيته النبل والكرم ، كل ذلك مما آتى أكله وثمره الناضج في العصور الآتية"[(٢)] . ولم تكن هذه الثقافة وهذا المعرفة لتأتي من فراغ ، أو دون جهد من الحكام ، وإنما كان الخلفاء على ترفهم ورهافتهم ونعمتهم دائمي النظر في الأدب في وجود أصحابه ودون وجودهم ، يجدون في ذلك لذة ومتعة ، لا يتركون أنفسهم مطبة للهو والتمتع والزخرفة في كل الأحيان ، ولكنهم يجعلون جل وقتهم للمفيد من العلم ، والجديد من الشعر ، والمفيد من الأدب ، على تفاوت بينهم إلى حد ما .

إذاً فإن خلفاء العباسيين كانوا يتابعون الحركة الأدبية في عصرهم متابعة جيدة يقيِّمون الشعر ، ويعرفون غثه من سمينه ، ويعطون الشعراء ما لا يتخيل من الأعطيات حال رضاهم عن جودة الشعر ، ويصل عقابهم إلى القتل عندما يتجاوز الشاعر حدوده في إغضاب الخليفة أو الحاكم كما حدث مع أبي نخيلة وبشار بن

---

(١) ابن عبد ربه (عمر جمال الدين يوسف بن عمر) ، العقد الفريد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ضبطه وصححه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه : أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الأبياري، سنة ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م ، ٥ / ٢٩١ . ديوان مروان ، ص ٨٨ .

(٢) عصر المأمون ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ ، ١ / ١١٦ .

برد ، مما كان له أثره ، وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل عن الحديث عن دورهم في تطور الأغراض في الشعر العباسي .

المستوى الفني عند الطبقة الحاكمة :

ولم تكن هذه الثقافة مجرد علم نظري علمه هؤلاء الخلفاء ، وإنما أنتج لنا تشبعهم بالثقافة اللغوية والأدبية فناً أدبياً عاليَ الجودة ، وقد كان هذا ثمرة مرجوة من هذه الأنفس ، وإذا نظرنا في كتاب الأوراق لأبي بكر الصولي المتوفي سنة ٣٣٥ هـ القسم الخاص بأخبار أشعار أولاد الخلفاء ، أدركنا مدى ما أنتج أولاد الخلفاء من فن راقٍ عالي الجودة ، إن دل على شيء فإنما يدل على ثمر الجهد الذي كان الخفاء يبذلونه ، وقد كان للخلفاء أنفسهم قطعٌ فنيةٌ ، كانت أثراً طبيعياً لهذا الكم من الثقافة ، يقول السيوطيُّ في (تاريخ الخلفاء) (ومن شعر المنصور وشعره قليل :

إذا كنت ذا رأى فكنْ ذا عزيمةٍ ∴ فإنَّ فساد الرأي أن تتردَّدَا
ولا تُمْهِل الأعداء يوْماً بقُدرةٍ ∴ وبادِرْهُمْ أن يَمْلُكُوا مِثْلَهاَ غَدَا[(١)]

ولما قتل أبو مُسْلِمِ الخُرَاسَانِي ورآه طريحاً بين يديه قال :

قَدْ اكْتَنَفَتْكَ خِلاَّت ثَلاثٌ ∴ جَلَبْنَ عَلَيْكَ مَحْتُوْمَ الحِمَامِ
خِلافُكَ وَامْتِنَاعكَ مِنْ يَمِيْنِي ∴ وَقَودُكَ للجَمَاهيرْ العِظَام[(٢)]

ومن شعره أيضاً :

المَرْءُ يَأمُلُ أَنْ يَعِيش ∴ وَطُولُ عُمْرٍ قَدْ يَضُرُّهْ
تَبلَى بَشَاشَتُه ويَبْقَى ∴ بَعْدَ حُلْوِ العَيْشِ مُرُّهْ
وَتَخُونُه الأَيَّامُ حَتَّى ∴ لا يَرَى شَيْئاً يَسُرُّهْ
كَمْ شَامِتٍ بِي إنْ هَلَكْت ∴ ُ، وَقَائِلٍ للهِ دَرُّه[(٣)]

---

(١) ص ٢٢١ .

(٢) الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ، المنصورة ، طبعة مكتبة الإيمان ، خرج أحاديثه ، محمد بيومي ، عبد الله المنشاوي ، محمد رضوان مهنا ، ١٠ / ٤٨٣ . د.ت.

(٣) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفجر للثرات ، تحقيق : جمال محمود مصطفى ، سنة (١٩٩٩) – ١٤٢٠ هـ ، ص ٢١٥.

والمهدي ينشد الشعر ، ومما رواه له الصولي :

مَـــا يَكُـــفُّ النَّـــاسُ عَنَّـــا .·. مَـــا يَمَـــلُّ النَّـــاسُ مِنَّـــا
إنَّمَـــــــا هِمَّـــــــتُهُم أنْ .·. يَنْبُشُـــوا مَـــا قَـــدْ دَفَنَّـــا
لَـــــوْ سَـــــكَنَّا بَطْـــــنَ أرْضٍ .·. فَلَكَـــانُوا حيْـــثُ كُنَّـــا
وَهُـــــــمُ إنْ كَاشَـــــــفُونَا .·. فـــي الهَـــوَى يَوْمـــاً مَجَنَّـــا[1]

ومن شعره أيضاً :

ظَفَـــرَتْ بِالقَلْـــب مِنِّـــي .·. غَـــادَةُ مِثْـــلُ الهِـــلالِ
كُلَّمَـــا صَـــحَّ لَهَـــاوُدّ .·. يَ جَـــاءَتْ بِـــاعْتِلالِ
لا لِحُـــبِّ الهَجْـــرِ مِنِّـــي .·. والتَّنَـــائي عَـــنْ وصَـــالِ
بَـــلْ لإبْقَـــاءٍ علـــي حُبِّـــ .·. ي لَهَـــا خَـــوفَ المَـــلالِ[2]

وله في نديم له يُسَمَّى عُمَرَ بن بزيغ :

رّبٍّ تمِّـــمْ لـــي نَعِيمِـــي .·. بِـــأبي حَفْـــصٍ نَـــدِيْمِي
إنَّمَـــا لَـــذَّةُ عَيشِـــي .·. فـــي غَنَـــاءٍ وكُـــرُومِ
وجَـــوَارٍ عَطِـــرَاتٍ .·. وســـماعٍ ونعـــيمِ[3]

فإذا ما جئنا إلى هارون الرشيد وجدناه شاعراً مفلقاً لشـهادة معاصـريه " قـال الأصمعي : دخل العباس بن الأحنف على هارون الرشيد ، فقـال لـه الرشـيد : أنشدني أرقَّ بيتٍ قالته العرب ، فقال : قد أكثر الناس في بيت جميل حيث يقول :

ألا لَيْتَنـــي أعْمَـــى أصَـــمَّ تَقُـــودُني .·. بُثَيْنَـــةُ لا يَخْفَـــىَ عَلَـــيَّ كَلامُهَـــا

قال هارون : أنت والله أرقُّ منه حيث تقول :

طَافَ الهَوى فـي عبـادِ اللهِ كُلِّهِـم .·. حَتّى إذَا مَرّ بي مِن بَيـنهم وَقَفَـا

---

(١) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، تحقيق : جمال محمود مصطفى ، سنة ١٩٩٩ م – ١٤٢٠ هـ ، ص ٢٢١ .
(٢) نفسه ، ص ٢٢١ .
(٣) نفسه ، ص ٢٢١ .

قال العباس : أنت والله يا أمير المؤمنين أرقُّ قولاً مني ومنه حيثُ تقول :

أمَـــا يَكْفِيْـــكِ أنَّـــكِ تمْلُكِيْنِـــي .:. وأنّ النَّـــاسَ كلَّهُـــمُ عَبيْـــدِيْ

وَأنَّكِ لـــو قطَعْـت يَـدي ورجْلـي .:. لَقُلْتُ مِن الهَوى أحْسَـنْتِ زِيْـدِيْ

فأعجب الرشيد بقوله وضحك " [(١)] . وإذا كانت صورة الخبر تقول إن الشاعـــر يجامل الخليفة ، فإن عين الخبر وهو الشعر نفسه يملك ما يثبت شاعرية الرشيد ، فهو شعر قويٌ في معناه وفي مبناه .

ومن شعره أيضاً في ثلاث جوارٍ كُنَّ له :

مَلَـكَ الـثَلاثُ الغَانِيَـاتُ عنَـانِي .:. وَحلَلْنَ مِـنْ قَلْبـي بكـلِ مكـانِ

مـالي تُطُـاوِعْني البَرِيَّـةُ كُلُّهـا .:. وَأطِيعُهُنَّ وَهُـنَّ فِـي عِصْـيَانِي

مَـا ذَاكَ إلاَّ أنَّ سُـلْطانَ الهَـوَى .:. وبهِ قَوْينَ أعَزَّ مِـنْ سُـلْطَانِي[(٢)]

ولسنا في حاجة إلى كلام كثير لندلل به على امتلاك الرشيد للنفس الشاعرة ، فـإن له كثير من الشعر في مصادر الأدب والتاريخ ، يدل على شاعريته .

أما المأمون فقد كان عالم بني العباس الأول ، علماً وفقهاً ، شعراً ونثراً ، فقد كان يبهر الناس بثقافته التي كانت تسَّاقط من فمه في كل موقف يعرض لـه ، ومـن شعر المأمون :

بَعَثْتُـكَ مُرْتـادا فَفُـزْتَ بنَظْـرَةٍ .:. وأغْفَلْتَنِي حَتَّى أسَأتُ بِـكَ الظَنَّـا

فَنَاجَيْتَ مَنْ أهوَىَ وَكُنْـتَ مُباعَـداً .:. فَيَالَيْتَ شعْرِي عَنْ دُنُوكَ مَا أغْنَـى

أرَى أثَـراً مِنْـه بَعَيْنَيـكَ بَيِّنـاً .:. لَقَدْ أخَذَتْ عَيَنَاكَ مِنْ عَيْنِهِ حُسْنَا[(٣)]

ونظر المأمون يوماً إلى ابنه العباس وأخيه المعتصم ، فابنه العباس يتخذ المصانع ويبني الضياع ، والمعتصم يتخذ الرجال ، فقال شعراً :

يَبْنِي الرَّجَالَ وغَيْرُهُ يَبْنـى القُـرَى .:. شَتَّانَ بَـيْنَ قُـرىً وبـيْنَ رِجَـالِ

---

(١) الخطيب البغدادي (أبوبكر أحمد بن علي بن ثابت أحمد) ، تاريخ بغداد ، بيروت ، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع ، ١٤ / ١٢ .

(٢) ابن الجوزي المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دار الفكر العربي ، ٥ / ٣٦٩ .

(٣) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحـة ، طبعـة دار المعـارف ، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، سنة ١٩٦٦ م . ٦٥٨/٨.

قَلِـــق بِكَثْـــرَةِ مَالِـــهِ وَضِـــيَاعِهِ ∴ حَتَّـــى يُفَرِّقَـــه عَلَـــى الأَبْطَـــالِ

وعَلَويْه قال : خرج المأمون يوماً ومعه أبياتٌ قد قالها وكتبها في رقعة بخطه ، وهي :

خَرَجْنَا إلى صَيْدِ الظِّبَـاءِ فَصَـادَنِي ∴ هُنَاك غَزَالٌ أدْعَجُ العَـيْنِ أحْـوَرُ

غَـزَالٌ كَـأنَّ البَـدْرَ حَـلَّ جَبِيْنَـهُ ∴ وفِي خَدِّه الشَعْرَي المُنِيرَةُ تُزْهِـرُ

فصَادَ فُـؤادِي إذْ رَمَـانِي بسَـهْمِهِ ∴ وَسَهْمُ غَزَالِ الإنْسِ طَرْفٌ وَمِحْجَرُ

فَيَا مَنْ رأَى ظَبْياً تَصِيْدُ وَمَـنْ رأَى ∴ أخَا قَنَصٍ يُصْطَادُ قَهْرَاً وَيُقْسَـرُ[١]

فيالها من بلاغة ، ويالە من بيانٍ ، وقد أفاض كثيرٌ من الباحثين في الثنـاء علـى شاعرية المأمون ، حتى أصبح علم المأمون وثقافتـه الواسـعة وشـاعريته مـن المسلَّمات المعترف بها ، ومما يُروي له كدليل على بلاغته العفوية غير المتصنعة ما ذكره المؤرخون أنه أصيب بابنة له ، كان يجد عليها وجداً شـديداً " فجلـس ، وأمر أن يؤذن لمن بالباب ، فدخل عليه العباس بن الحسن العلوي ، فقال له : يـا أمير المؤمنين ، إنا لم نأتك معزين ، ولكن أتيناك مقتدين ، ثم قـال : يـا أميـر المؤمنين ، إن لساني ينطلق بمدحك غائباً ، وأحبُّ أن يتزيـد عنـدك حاضـراً ، أفتأذن فأقول ، قال المأمون : قل فإنك تقول فتحسن ، وتشـهد فتـزين ، وتغيـب فتؤتمن ، فقال العباس له ، يا أمير المؤمنين ماذا أقول بعد هذا لقد بلغتَ من مدحي ما لا أبلغه من مدحك "[٢] . فلقد بهرَت الرجل رغم بلاغتـه – بلاغـة المـأمون فأحسن أنه لن يصل إلى هذا الرونق ، وإلى هذه الرشاقة ، فآثر السكوت .

---

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهارس، بإشراف وتحقيق : إبراهيم الأبياري ، ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ م ، ١١ / ٤١٤٦ .

(٢) ابن طيفور ، (أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر) كتاب بغداد ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، نشر ، عـزت العطار الحسيني ، تحقيق : محمد زاهد الكوثري ، ص ٥١ .

المبحث الثالث

الاهتمام بالثقافات الوافدة

من المتعارف عليه بين دارسي ذلك العصر ، أعني العصر العباسي في الفترة (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) ، أنه كان عصر العلم والثقافة والمعرفة ، وقد ذكرت آنفاً أن المجتمع قد عجَّ بالثقافات المختلفة ، إذ كانت مصادرُ الحصول على الثقافة والعلم متوفرةً وميسرةً ، وقد عب من هذا الزاد الوفير كل من له رغبة في العلم ، غنياً كان أو فقيراً ، وقد تحدثت عن انكباب الخلفاء والحكام وأبنائهم على منابع العلم يغترفون منها ، فيتعلمون اللغة وآدابها ، والشعر وحِكَمَه ، والقرآن وعلومه ، والحديث متنه وسنده ، وغير ذلك من العلوم ، ولم يكتف الحكام بالاغتراف من الثقافات العربية وحدها ، وإنما وجدنا كثيرين منهم يدرسون الثقافات الوافدة ، هندية كانت أم فارسية أم يونانية ، فقد كان المنصور أول من عُنى بالفلسفة مع براعته في الفقه(١) ، فقد " كان أول خليفة قرَّب المنجمين وعمل بأحكام النجوم ، وكان معه (نُوْبَخْت المَجُوسيُ) المنجم ، صاحب القصيدة في النجوم ، وغير ذلك من علوم النجوم وهيئة الفلك ، و (عَلِيُّ بنُ عِيْسى الأسْطُرْ لأبِي) المنجم ، وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية "(٢) .

يقول جميل نَخْلة المدوَّر " فلما جاء أبو جعفر قرب إليه المنجمين ، وقدم عليهم نوبخت المنجم المشهور "(٣) وقد كان هذا من أبي جعفر لأنه كان ميالاً إلى التنجيم ، لا يكاد يعمل عملاً إلا استشار المنجمين فيه ، وهو أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم .

ونظراً لكلف المنصور بحركات الكواكب ، وحبه للإطلاع عليها قصده أصحابها من بلاد فارس والهند والروم ، وفي جملتهم رجل من الهند ، بارع في حساب السند هنتا ، جاءه سنة ١٥٦ هـ وعرض عليه كتاباً في النجوم مع تعاديل

---

(١) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المأمون ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، لسنة ١٩٩٧ م ، ١ / ٢٩٧ .

(٢) المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ، طبعة المكتبة الإسلامية ، ٤ / ٣١٤ .

(٣) حضارة الإسلام في دار السلام ، بولاق طبع بالمطبعة الأميرية ، سنة ١٩٣٧ م ، ص ١٦٥ .

معمولة على مذاهب الهند فأمر المنصور أن ينقل هذا الكتاب إلى العربيـــة ، وأن يؤلف فيه كتاباً يتخذه العرب أصلاً في حركات الكواكب .

ويقول أحمد أمين " أول من عُنى بـــالعلوم الخليفـــة الثـــاني أبـــو جعفـــر المنصور.. فكان – رحمه الله – مع براعته في الفقه مقـــدماً فـــي علـــم الفلســـفة وخاصة في علم صناعة النجوم كلفاً بها وبأهلها "(١) .

أما المهدي فإنه انشغل عن هذه العلم بما ظهر في أيامه من البدع الدينيـــة وما انتشر من كتب مَانِي وابنِ ديْصَان ومَرْقِيُون ، فكثـــر الزنادقـــة ، وظهـــرت آراؤهم في الناس ، فأمر المهدي أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب لإبطال هذه المذاهب ، فلم ينشغل – تقريباً – بالعلوم الوافدة كما انشغل سلفه .

أما هارون الرشيد فقد ذكر ابن أبي الحديد أنه قال للكسائي : " يا عليَّ بـــن حمزة ، قد أحللناك المحل الذي لم تكن تبلغه همتك ، فروِّنا من الأشـــعار أعفهـــا ومن الأحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق وذاكرنا بآداب الفرس والهند ، ولا تسرع علينا الرد في ملأ ، ولا تترك تثقيفنا في خلاء "(٢) .

فقد درس الرشيد إذاً آداب الفرس ، وقد جالس مجي الفلسفة مـــن الأطبـــاء والعلماء " لأن الأفكار كانت قد نضجت ، والأذهان قد زادت تنبهـــاً إلـــى علـــوم الأقدمين بما كان يتقاطر إلى بغداد من الأطباء والعلماء مـــن الســـريان والفـــرس والهنود ، وكانوا أهل تمدن وعلم كما رأيت ، وكانوا يتعلمون العربية ويعاشـــرون المسلمين ويباحثونهم في تلك العلوم "(٣) . أما المأمون العباسي فقد كان موســـوعة علمية بكل المقاييس ، لم تفته فائتة من علوم عصره إلا وذاكرها وكان لـــه بـــاع علمي فيها ، حتى جعل أحد معاصريه وهو (جَعْفَر بن مُحَمَّد الأَنْمَاطِي) يقـــول : " تغدينا يوماً عنده – أي المأمون – فظننت أنه وضع علـــى المائـــدة أكثـــر مـــن ثلاثمائة لونٍ ، فكلما وُضِعَ لونٌ نظر المأمون إليه فقال : هذا يصلح لكذا ، وهـــذا

---

(١) ضحى الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة ، سنة ٢٠٠٢ م ١ / ٢٨٤ .

(٢) نفسه ، ١ / ١٨٨.

(٣) جورجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ، القاهرة ، طبعة دار الهلال ، طبعه راجعهـــا وعلـــق عليهـــا حسين مؤنس ، ٣ / ١٥٧ .

نافع لكذا ، فمن كان منكم صاحب بلغم ورطوبة فليجتنب هذا ، ومن كان صاحب صفراء فليأكل من هذا ، ومن غلبت عليه السوداء فليأكل من هذا ، ومن أحب الزيادة في لحمه فليأكل من هذا ، ومن كان قصده قلة الغذاء فليقتصر على هذا ، قال : فوالله ما زالت تلك حاله في كل لونٍ يقدم حتى رفعت الموائد . قال : فقال له يحيى بن أكثم : يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب كنت (جَالِيْنُوس) في معرفته ، أو في النجوم كنت (هِرْمَس) في حسابه ، أو في الفقه كنت (عَلِيَّ بنَ أبِي طالب) صلوات الله عليه) في علمه ، أو ذكر السخاء فأنت فوق حاتم في جوده ، أو ذكرنا صدق الحديث كنت أباذر في صدق لهجته أو الكرم كنت (كَعْبَ بنَ مَامَةَ) في إيثاره على نفسه فسرَّ بهذا الكلام" [١]. فلم يكن المأمون مقتصراً على علوم اللغة والأدب والدين فقط ، وإنما خلط ذلك بكثير من العلوم الوافدة ، وقد أكثر مؤرخو الأدب من ذكر معرفته بعلوم الفرس واليونان[٢] . " فقد كان على ذلك متأثراً بما ترجع من أخلاقيات فلاسفة اليونان وعلومهم ، وآداب ذلك متأثراً بما ترجم من أخلاقيات فلاسفة اليونان وعلومهم ، وآداب الفرس وفنونهم"[٣] يقول جرجي زيدان : " فلما أفضت الخلافة إلى المأمون (١٩٨ – ٢١٨ هـ) تغير وجه المسألة ، لأنه كان مع فطنته وسعة علمه شديد الميل إلى القياس العقلي، وقد تعلم وتفقه وطالع ما نقل إلى عهده من كتب القدماء ، فازداد رغبة في القياس والرجوع إلى أحكام العقل ، ويكفينا دليلاً على غوصه في علوم اعتناقه لمذهب المعتزلة ، ومعروفٌ صلة المعتزلة بالعلوم اليونانية والفارسية"[٤] .

إننا نستطيع أن نقول إن المأمون والمنصور قد طالعوا العلوم الوافدة ، الهندية أو الفارسية أو اليونانية ، وإن كان تبحر المأمون في هذه العلوم واضحاً

---

(١) ابن طيفور (أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر) كتاب بغداد ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، نشر عزت العطار الحسيني ، تحقيق : محمد زاهد الكوثري ، ص ٣٦ .

(٢) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المأمون ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ م ، ١/ ٢٨٩.

(٣) نفسه ، ١ / ٢٩٠ .

(٤) تاريخ التمدن الإسلامي ، القاهرة ، طبعة دار الهلال ، طبعة راجعها وعلق عليها : حسين مؤنس ، ٣ / ١٥٩ .

في تأثره بعلماء الكلام بشكل يجعل علمه بها من الأمور الواضحة أما باقي الخلفاء فلم أر لهم شيئاً يدل على علمهم بثقافات أخرى غير الثقافة العربيـــة الإســـلامية ، والله أعلم .

التباين الثقافي بين الخلفاء :

من خلال معايشة خلفاء العصر العباسي (١٣٢ – ٢٣٢ هـــ) معايشـــة موضوعية متأنية ، ألاحظ أن هناك تبايناً واضحاً في ثقافات هؤلاء الخلفاء ؛ ففي حين كان أبو جعفر المنصور " جيد المشاركة في العلم والأدب ، فقيه النفس "(١) . وكان هارون الرشيد " مليحاً ، فصيحاً ، له نظر في العلم والأدب "(٢) والمهدي قد " تأدب وجالس العلماء "(٣) وكان الهادي " فصيحاً ، قادراً على الكلام أديبـــاً "(٤) ، وكانت للأمين " فصاحة وبلاغةٌ ، وأدبٌ ، وفضيلةٌ " (٥) ، يقول الباحث؛ إذا كـــان هؤلاء الخلفاء على شيء غير قليل من العلم والأدب ، ومن الفصـــاحة والبلاغـــة والنظر ، فإن فيهم عالماً أجمع مؤرخو الأدب علـــى علمـــه ، ألا وهـــو الخليفـــة المأمون ، يقول جلال الدين السيوطي عنه – أي المأمون – " وكان أفضل رجـــال بني العباس حزماً ، وعزماً ، وحلماً ، وعلماً ، ورأياً ، ودهاءً ، وهيبةً ، وشجاعةً، وسؤدداً ، وسماحةً ، ولـــه محاسن وسيرة طويلةٌ " (٦) ، فكـــان يعـــد مـــن كبـــار العلماء(٧).

وقد لا يحتاج إلى ذكر أدلة اتفاق كثير من علماء الأدب ، ومن المـــؤرخين على علم هذا الرجل ، الذي ذكرنا شيئاً منه آنفاً ، ولم يكن هـــذا الإجمـــاع وهـــذا الاتفاق إلا لأن المأمون العباسي كان عالماً بالشرع واللغـــة والنجـــوم والفلســـفة

---

(١) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، تحقيق : جمال محمود مصطفي ، سنة ١٩٩٩ م – ١٤٢٠ هـــ ، ص ٢٠٨ .

(٢) نفسه ، ص ٢٢٧ .

(٣) نفسه ، ص ٢١٨ .

(٤) نفسه ، ص ٢٢٤ .

(٥) نفسه ، ص ٢٣٧ .

(٦) نفسه ، ص ٢٤٥ .

(٧) نفسه ، ص ٢٤٥ .

والمنطق ، وقد كان على العكس منه أبـــو إســحاق المعتصــم (٢١٨ – ٢٢٧) هجرية ، فقد ذكر السيوطي ، عن الصولي ، " عن مُحمَّد بن سَعِيد ، عن إبــراهيم بن محمد الهاشمي ، قال : كان مع المعتصم غلام في الكتاب يتعلم معـــه فمـــات الغلام ، فقال له الرشيد أبوه : يا محمد ، مات غلامك ، قال : نعــم يـــا ســيدي واستراح من الكتاب فقال : وإن الكُتَّاب ليبلغ منك هذا ، دعوه ، لا تعلِّموه ، قال : فكان يكتب ويقرأ قراءة ضعيفة "[١] .فإذا جاز لنا أن نصف المأمون بأنـــه أعلـــم خلفاء بني العباس ، ويرى الباحث أن المعتصم كان أقلَّهم علماً ومعرفـــةً ، وبـــين هذين الخليفتين كان هناك – فيما يرى – تفاوتٌ ليس كبيراً بين باقي الخلفـــاء ، إلا أنّ هناك ملاحظة لابد من ملاحظتها ، وهي طول وقصر مكث الخليفة في خلافته، فإن كثيراً من المصادر لا تسلط الضوء على الخليفة إلا بعد جلوسه على كرســـي الخلافة ، وعنها فإذا صحَّ ذلك فإن خلفاء كالهادي والأمين والواثق لم يعمروا فـــي الخلافة كالمنصور ، والرشيد ، والمأمون ، وبذلك فإنه يجوز لنا اعتبار طول مدة الحكم ذات أثر مهم في وصول شخصية الخليفة بكل جوانبها إلى المؤرخين ، ثـــم إلينا ، فمن الملاحظ أن الخلفاء الذين يكثر في المصادر ذكر علمها ، يكـــون مـــن أهم الأسباب في ذلك طول مدة حكمهم ، ويقل بقلتها ، وذلك – من بعض الجوانب – أمرٌ طبيعي ، وذلك لأن الخليفة يكون منشغلاً في بداية حكمه بـــأمور السياســـة اهتماماً زائداً ، ولم يكن العلم – غالباً – أحدهما ؛ لأن بداية تولي الخليفة يســـتلزم ممن يتولاها أن يُبْرِز شخصيته للناس ، ويثبت أركان حكمه ، بل تكـــون ملامـــح شخصيته قد استقرت قبل ذلك ، إن كان عالماً أو غير عالم ، أما اهتمامه بـــالعلم كشخصية حاكمة فلابد له من استقرار يحتاج إلى شيء من الوقت، فإذا استقام لـــه الحكم أمكن لشخصيته أن تظهر ملامحها ، وأن تتضح كمية حبها للعلم والفكـــر ، ومدى استيعابها له ، لذا فقد اشتهر عن الخلفاء ذوي المـــدد القصـــيرة كالهـــادي والأمين والواثق ، بأنهم أقل علماً من غيرهم ، أولئك الذين طالت مدة حكمهـــم ، لذى يرى الباحث أن هذا الأمر قد يكون منتقصاً من علـــم بعـــض الخلفـــاء ، أو مظهراً للحقيقة غير تامة ، لكن الذي برز من خلال ما وصلنا هو ذلك التفاوت .

---

(١) نفسه ، ص ٢٦٥ .

إذا كان هذه هي ثقافة الخلفاء ، وإذا كان هذا هو علمهم ، وإذا كان هذا هو فهمهم وتذوقهم فمما لا شك فيه أن هناك مجموعة من العوامل أوصلت الخلفاء إلى هذا العلم ، وإلى هذه الثقافة وإلى هذا الفكر ، فقد كان هناك استعداد خاصٌ عند هؤلاء الخلفاء لتحصيل العلم وقد كانت أرض الخلافة مهيأة لشيوع العلم ، وذلك لقوة الخلفاء ، وأحكام سيطرتهم بشكل تام على مقاليد الأمور في الدولة ، وقد ترك هذا التحكيم ، وهذه السيطرة الفرصة للعلماء والمفكرين لنشر علمهم ومعارفهم لأن أولي الأمر مغرمون بالمعرفة ، محبون لها ، إلا أنّ أمراً هاماً لابد من إرجاع كثير من الفضل إليه في تثقيف هؤلاء الخفاء ، وتعليمهم العلم النافع ، وإفهامهم الأمور كما يجب أن تفهم إلى جانب حبهم للعلم والمعرفة ؛ ألا وهو دور أساتذتهم ومعلميهم ، الذين لقنوهم العلم ، فإذا كان أبناء الخلفاء هم أعلى طبقة في الناس في ذلك الوقت قدراً وغنىً واهتماماً من قبل آبائهم فقد كان معلموهم يوازونهم في علو طبقة العلم لذا فقد اهتم الخلفاء بالدين واللغة اهتماماً بالغاً ، وكانوا يحرصون على تعليم أبنائهم اللغة العربية والعلوم الإسلايمة (فالمُفضَّل الضَّبّيّ) معلم المهدي ، وله اختار مجموعته الشعرية الملقبة بالمفضّليات ، و (الكسائي) معلم الرشيد وابنيه الأمين والمأمون ، و (قُطْرُب) مؤدب الأمين وأبناء (أبِي دُلَف العِجْلِي) قائد المأمون المشهور ، و (عَلِيُ بن المُبارك الأحْمَر) أحد مؤدبي الأمين"[1] .

ومن العلماء الذين أفادوا اللغة والأدب في العصر العباسي ١٣٢ – ٢٣٢ هـ هذا وفي كل العصور ، وسنذكر أمثلة لهؤلاء العلماء على سبيل المثال لا الحصر .

فمنهم المُفَضّل الضَّبّي[2] : وهو المُفَضَّل بن مُحَمَّد الضَّبّي ، من كبار علماء الأدب في الكوفة ، وكان يتميز بالصدق وكمال الوثوق ، أخذ عنه أبو زيد الأنصاري من البصريين لثقته به ، وكتابه في رواية الشعر يسمى (المفضَّليات) وهو قرابة مائة وثلاثين قصيدة ، جمعه للخليفة المهدي وأهداه إليه توفي سنة ١٦٨ هجرية .

---

(١) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط ٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٢٦٦ م ، ص ١٠٠ .

(٢) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، تحقيق محمود مصطفى سنة ١٩٩٩ – ١٤٢٠ هـ ، ص ٢٠١ .

ومنهم الخليل بنُ أحْمد الفَرَاهِيْدِي البَصْرِي[١] : تلميذ أبي عمرو بن العلاء، وأستاد سيبويه ، وشيخ علماء اللغة في البصرة ، صاحب كتاب العين ، توفي سنة ١٧٥ هجرية .

ومنهم خلف الأحمر[٢] : مولى أبي بردة ، أخذ عنه الأصمعي وسائر أهل البصرة ، وقد عرف بكثرة معارفه ، وبقدرته على انتحال الشعر لعلمه بأوزانه وقوافيه ، " كان عالماً بالغريب والنحو والنسب والأخبار شاعراً كثير الشعر ، ولم يكن في نظرائه من أهل العلم أكثر شعراً منه"[٣] توفى سنة ١٨٠ هجرية .

ومن أهمهم الكسائي[٤] : وهو عَلِي بنُ حَمْزَة ، مولى بني أسد ، وأصله من فارس ، وهو من أشهر نحاة الكوفة ، أخذ النحو عن مُعّاذٍ الهَرَّاء ، وأبي جَعْفَر الرُؤاسي في الكوفة ، وعن الخليل في البصرة ، وقدمه الرشيد والبرامكة ، وتأدب عليه الأمين والمأمون ، ودارت بينه وبين سيبويه شيخ نحاة البصرة مناظرات في النحو ، توفي الكسائي سنة ١٩٧ هجرية .

ومنهم الفَرَّاءُ [٥]: وهو أبُو زكَرِيَّا يَحْيَى بن زِنَادٍ الفَرَّاء الدَّيْلَمي من موالي بني أسد في الكوفة ، تتلمذ على الكسائي شيخ نحاة الكوفة ، وبلغ من الشهرة مبلغ أستاذة وفاق عليه ، واختص بالخليفة المأمون ، وعهد إليه بتأديب ابنيه ، توفى

---

(١) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، القاهرة ، دار المعارف ، نقله إلى العربية ، عبد الحليم النجار ، سنة ١٩٦١ م ، ٢ / ١٣١ .

(٢) نفسه ، ص ١٩ ، وابن النديم ، (أبو الفرج محمد بن إسحاق بن أبي يعقوب) ، الفهرست ، بيروت ، دار المعرفة ، سنة ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م ، ص ٧٤ .

(٣) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، الشعر والشعراء ، بيروت ، دار إحياء العلوم ، قدم له ، حسن تميم، وراجعه وأعد فهارسه محمد عبد المنعم العريان ص ٥٣٦ . .

(٤)ابن النديم (أبو الفرج محمد بن اسحاق بن أبي يعقوب) ، الفهرست ، بيروت ، دار المعرفة ، سنة ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م ، ص ٤٤ وابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، مصر ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، ٢ / ٣٠ .

(٥) الخطيب البغدادي (أبوبكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد) تاريخ بغداد ، بيروت ، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع ، ١٤ / ١٤٩ . ومحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله سير إعلام النبلاء ، ط ٩ ، بيروت ، مؤسسة الرسالة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي ، سنة ١٤١٣ هـ ، ١٠/١١٨.

الفراء سنة ٢٠٧ هجرية . وقربت مؤلفات الفراء على آثار الكسائي فضلاً عن كونها تعدت علم النحو إلى كثير من العلوم ، ومنها كتاب (معاني القرآن).

ومنهم الأصمعي[١] : موسوعة الأدب العربي هو لشهرته غني عن التعريف.

(وقُطْرُب) النحوي ، و (حَمْزَة الزَّيَّات) أحد معلمي القرآن (وعَبْدُ اللهِ بنُ إدْريس) المحدث، و(عِيْسَى بن يُونس) أحد أهم المحدِّثين في عصره ، والإمام (يَحْيى بنُ مَعين) المتوفي سنة ٢٢٣ هـ ، و (أبو مُحَمَّد اليَزِيديّ) معلم المأمون ، وغيرهم .

والخلاصة ، فإن من كان علماء الأمة أساتذته ومعلميه ، فلابد أن يكن فهمه فهم العلماء ، وأن يكون " فصيحاً بليغاً مفوّهاً خليفاً للإمارة "[٢] وأن يكون من أفضل الناس " حزماً ، وعزماً وحلماً ، وعلماً ، ورأياً "[٣] .

---

(١) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، القاهرة ، دار المعارف ، نقله إلى العربية ، عبد الحليم النجار ، سنة ١٩٦١ م ، ٢ / ١٤٧ .

(٢) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، تحقيق : جمال محمود مصطفى ، سنة ١٩٩٩ م – ١٤٢٠ هـ ، ص ٢٠٨ .

(٣) نفسه ، ص ٢٤٥.

الفصل الثاني

اهتمام الطبقة الحاكمة

بالأدب والنهوض به

المبحـــــث الأول : الدعم المالي

من الأمور المشهورة بين مؤرخي الأدب وعلماء اللغة ، التي يعدها كثيــر من الباحثين من المسلمات ؛ أن العصر العباسي (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) من أزهى عصور العرب على الإطلاق من الناحية العلمية والثقافية ؛ فقد عمت هذا العصــر نهضة شاملة وكبيرة ، تكاد تبرز عبر تاريخ العرب الطويل ، بروزاً لافتاً للنظر ، مثيراً لكثير من علامات الاستفهام ، عن هذا الكم الوافر من الفكر والعلم والفــن ، الذي عج به هذا العصر ، لم تضارع حضارة من الحضارات ولم يضارع عصرٌ من العصور – لا نستثنى من هذا التعميم حضارة الصين فــي أيــام لــي بــو ، ودووفو، ولا حضارة فيمار veimar حين كان فيها (مائة مواطن وعشــرة آلاف شاعر) – الحضارة الإسلامية في عهد الدولــة العباســية فــي عــدد شــعرائها وثرائهم[1] فقد حوى هذا العصر في مجال ، عمدة الرواة أو مرجع شعرائها فــي علوم العرب ، كما يقول / جرجي زيدان[2] من أمثال أبي عَمْرو بــنِ العَــلاَء ت ١٥٤هـ وأبي عُبَيْدة مَعْمَر بنُ المُثَنَّى ت ٢٠٩ هـ ، والأصمعي ت٢١٣ هـــ ، وأبي زيد الأنصاري ت ٢١٤ هـ ، وأبي عُبَيْد الله القاسم بن سلاَّم ت ٢٢٣ هـ. فمن العلماء الرواة للشعر العربي وجدنا عدداً كبيراً من أهــم رواة الشــعر عبــر تاريخه الطويل ، منهم حمادٌ الراوية ت ١٥٦ هـ ، والمفضَّل بن محمد الضــبي ت١٦٨ هـ ، وخَلفَ بن حَيَّان الأحْمَر ، وأبو عمــرو الشــيباني ت٢١٣ هـــ ، ومحمد بن سلاَّم الجمحي ت ٢٣٢ هـ ، وهؤلاء هم أصحاب الفضل في وصــول الشعر العربي إلى الأجيال اللاحقة لهم ، لا يستطيع منصف أن ينكر فضلهم .

وإذا انتقلنا إلى علم النحو وجدنا هذا العصر يضم أهم علماء النحو في كــل العصور ، من أمثال سِيْبَوَيه ت ١٨٠ هـــ ، ومُعَــاد الهَــرَّاء ت ١٨٧ هـــ ، والكيسَائِي ، وأبوزكريا يَحْيَى بن زيَاد الفَرَّاء ت٢٠٧ هـ.

---

(١) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ط ٣ ، انفقت على ترجمته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربيــة ، سنة ١٩٧٤ ، ترجمة محمد بدران ، جـ١ ، المجلد الرابع ، ص ٢٢٥ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة ، دار الهلال ، راجعها شوقي ضيف ، ٢ / ١١٣ .

وفي علوم اللغة ، ضم العصر الخَلِيْل بن أحمد الفَرَاهِيْدي صاحب علم العروض ، ومُؤرَّج السَّدُوْسِيّ ت١٩٥ هـ ، والنّضْر بن شُمَيْل ت٢٠٣ هـ ، وابن الأعرابي ت٢٣١ هـ .

ومن أهم العلماء في العلوم الفقهية في كل العصور أئمة الإسلام الأربعة المشهورون ، أبو حنيفة النُّعمان ت١٥٠ هـ ، والإمام مالك بن أنَس ت١٧٩ ، والإمام مُحَمَّد بن إدْريس الشَّافِعي ت٢٠٤ هـ ، والإمام أحمد بن حَنْبَل المتوفي في سنة ٢٤١ هـ ، وإلى جانب هؤلاء الأربعة فهناك القاضي أبو يوسف ت١٨٢ هـ، ومحمد بن الحَسَن الشَّيْبَاني ت١٨٩ هـ .

هذا من العلماء والمصنفين وأصحاب الثقافة والفكر ، أما الشعراء والكتاب فقد ضم العصر أيضاً عدداً وافراً منهم ، كبشار بن برد ت١٦٨ هـ ، والسَّيِّد الحِمْيَري ت١٧٣ هـ ، ومَرْوَان بن أبي حَفْصَة ت١٨٢ هـ، وأبي نواس ت١٩٨هـ ، ومُسْلِم بن الوَلِيْد ت٢٠٨ هـ ، وأبي العتاهية ت٢١١ هـ ، وأبي تمام ت٢٣١ هـ ، وأحمد بن يُوسف الكاتب ، وعِمَارة بن حمزة، والبحتري ، ومحمد بن الملك الزّيّات، وغيرهم كثيرون .

يقول الباحث : إذاً هذا العصر ضم بين جنباته هذا العدد ، لا يقول الوافر بقدر ما يقول المهم من أئمة كل العلوم العربية ، والأدبية الفقهية ، بجانب الشعراء أصحاب البصمة الواضحة في الأدب العربي ، فمما لا شك فيه أن حكام هذا العصر وأمراءه كان لهم دور مهم في النهوض بالثقافة والإبداع في هذا العصر ، وإذا كانت مجموعة من الأسباب قد تجمعت وتسببت في إفراز هذا الفئة الراقية من العلماء والمبدعين في هذا العصر ، فمما لا شك فيه أن اهتمام حكام العصر بالفكر، وتشجيع العلماء والمفكرين ، وتقديم العون لهم ، كان له أثره الفعال ، الذي لا يمكن إنكاره ، في نضوج هذه الطبقة العالمة ، وتوسيع مداركها ، وسعة إطلاعها وشمولية ودقة علمها وفنها .

وإذا كان الحديث عن الأدب هو بُغيتنا ، والتوصل إلى أثر الحكام في النهوض به هدفنا ، فإننا نستطيع أن نركز اهتمامنا أكثر على علوم الأدب ، واللغة نظراً لكونها أداة الأدب . فإذا كان الخلفاء والحكام على هذه الشاكلة من الثقافة

العالية والغزارة العلمية ، فمن خلال البحث لاحظت أن لهؤلاء الحكام مجموعة من الأدوار ، ساهمت بشكل مباشر في النهوض بالأدب في شقيه؛ الفني متمثلاً في الشعر والنثر وما امتازا به من جودة وإتقان وغزارة وتجديد ، والتصنيفي متمثلاً في دراسة العلم وتصنيف الكتب ومن خلال البحث يرى أن هذه الأدوار تبرز في:

أولاً – الدعم المالي :

أ- الاهتمام بالعلماء وتشجيعهم :

من المعروف بين الناس أن للمال أثراً كبيراً في الحياة بمناحيها المختلفة فإليه تتهافت النفوس ، ومن أجله تكون الصراعات ، ليس بين الأفراد فقط ، بل بين المجتمعات الكبيرة أيضاً ، ومن أجله تخضع الرقاب ، وتزهق الأرواح ويجد كثير من الناس لذة كبيرة في جمعه وتحصيله ، وفي إنفاقه وتوزيعه ، لذا لا يوجد خلافٌ على دور المال المهم والكبير في التأثير في كل مناحي الحياة ، " وقد قيل لبزر جمهر: العلماء أفضل أم الأنبياء ؟ فقال : العلماء فقيل له : فما بال العلماء بأبواب الأغنياء أكثر من الأغنياء بأبواب العلماء ؟ فقال : لمعرفة العلماء بفضل الغني وجهل الأغنياء بفضل العلم "(١).

فإذا كان العلماء أكثر الناس معرفة بأهمية المال ، فلابد وأن يأثر المال كثيراً من العلماء كما يأثر غيرهم ، حرصاً عليه ، واهتماماً به وسعياً من أجله ، وشعوراً بأهميته ، لذا فإن المال له أثره في كل مناحي الحياة تقريباً ، وفي كل العصور ، فله دوره الاجتماعي ، ودوره السياسي ، ودوره الثقافي والعلمي وغير ذلك من الأدوار في جوانب الحياة المختلفة والمتعددة .

وإن نظرة سريعة إلى ما دخل بيت مال المسلمين في العصر العباسي (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) من الأموال ، لتوضح لنا مدى ثراء الدولة البالغ ، فإنَّ هارون الرشيد " قد بلغ المحمول إليه في كل سنة نحواً من خمسمائة ألف درهم – من الفضة ، وعشرة آلاف ألف دينا من الذهب ، ما عدا الغلات والمصنوعات ،

---

(١) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، عيون الأخبار ، ط ١ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٢٨ م ، المجلد الثاني ، ص ١٢٢ .

فحمل الناس كثرة المحمول على أن يعدوه بالوزن لا بالعدد ، فيقولون : إنه يبلغ ستة آلاف أو سبعة آلاف قنطار من الذهب "[١].

ولا يعد ذلك غريباً على دولة مترامية الأطراف ، لم تكف عن الفتوحات ، ولا عن جني ثمارها من الغنائم ، بل يأتيها بجانب ذلك الخراج والجزية وغير ذلك، ويكفي دليلاً على ثراء الدولة ثراء أفرادها ، فإن البرامكة – مثلاً لما صودرت جميع أموالهم يقال إنها بلغت ٣٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار (١٤٢.٥٠٠.٠٠٠ دولار أمريكي) [٢] .

فقد كانت الدولة بشكل كبير ، مملوءة الخزائن أموالاً ، وأيدي الخلفاء في هذه الأموال نافذة ، ينفقونها فيما يحبون ، ويعطونها لمن يشاءون ، سواء أأرضى ذلك الناس أم أغضبهم خالف هواهم أم وافقه .

وفي حقيقة الأمر ، فإن خلفاء بني العباس أنفقوا على الثقافة والعلم بأيدٍ سخية ، لم يبخلوا على العلماء والمصنفين ، ولم يقصروا في أعطياتهم ، وجعلوهم يعيشون عيشةً تشبه عيشة الملوك ، يتنعمون بنعيم الدنيا المتاح كله ، يأكلون مآكل الخلفاء ، ويتمتعون بما يتمتع به الحكام أنفسهم ، فهذا أبو يوسف القاضي يقول: " توفي أبي وأنا صغير فأسلمتني أمي إلى قصَّار*[٣] فكنت أمرُّ على حلقة أبي حنيفة فأجلس فيها ، فكانت أمي تتبعني ، فتأخذ بيدي من الحلقة ، وتذهب بي إلى القصّار، ثم كنت أخالفها في ذلك وأذهب إلى أبي حنيفة ، فلما طال عليها ذلك قالت لأبي حنيفة : إن هذا صبيٌ يتيم ، ليس له شيء إلا ما أطعمه من مِغزلي ، وإنك قد أفسدته عليَّ ، فقال لها : اسكتي يا رعناء ، ها هو ذاك يتعلم العلم وسيأكل الفالوذج بدهن الفستق في صحون الفيروذج ، فقالت له : إنك شيخ قد

---

(١) جميل نخلة المدور ، حضارة الإسلام في دار السلام ، المطبعة الأميرية ، بولاق ، سنة ١٩٣٧ م ، ص ١٤١ .

(٢) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، جـ٢ ، مجلد ٤ ، ص ٩٤ .

(٣) * القصار : القصَّار : المبيض للثياب ، وهو الذي يهئ النسيج بعد نسيجه يبله ويدقه القصرة .

خرفت. قال أبو يوسف : فلما وليت القضاء ، فبينما أنا ذات يوم عند الرشيد إذ أتى بفالوذوج في صحن فيروذوج " [١] .

ومن هذا الخبر يتضح لنا أن كثيراً من المتعلمين كانوا ينظرون إلى قصور الحكام ، وإلى ملادّهم ونعيمهم ، بعين ملؤها الشوق واللهفة ، ولابد أن يكون هذا دافعاً لهم من أحد الوجوه إلى الصبر في تحصيل العلم ، وتحمل المشاق في درسه، لأنه عندهم السلم الذي يصعدون به إلى أعلى المراتب ومن خلاله يصلون إلى كراسي الخلفاء ، ينالون الحظوة والمال والشهرة .

أما من يصل إلى مجالس الحكام من هؤلاء العلماء ، فقد كانت تأتيه الأموال دون حساب ، وينفق عليه ببذخ وإسراف ، ويبتعد عما يعتري الناس من مشكلات مالية ، فأبو جعفر المنصور ، على الرغم مما عرف عنه من محافظته الشديدة على المال وعدم إنفاقه إلا بحساب شديد ، حتى أطلق عليه أبا الدوانيق لشدة محافظته على المال ، أقول : على الرغم من هذا ، فقد أعطى " جورجيس بن بختيشوع " عالم الطب ثلاثة آلاف دينار ، وأرسل إليه ثلاث جوار روميات ، حينما استخدمه لمعالجته في بغداد[٢] وكان المأمون ينفق على العلم بكرم زائد ، حتى أنه كان يعطي زنة ما يترجم له من الكتب ذهباً خالصاً [٣] ، وكذلك كان هارون الرشيد ، ذلك الخليفة الذي كان يختلق المواقف ، ويتفنن في الطرق التي يعطي بها العلماء والمفكرين ما يشجعهم به على مواصلة العلم ، ويحفزهم على الدقة والإتقان في جمعه ، والوقوف عليه ، قال الأصمعي " دخلت على هارون الرشيد وبين يديه بدرة – ١٠ آلاف درهم – فقال يا أصمعي ، إن حدثتني بحديث

---

(١) الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ، طبعة مكتبة الإيمان بالمنصورة ، خرج أحاديثه / محمد بيومي ، عبد الله المنشاوي ، محمد رضوان مهنا ، ١٠ / ٥٤٠ ، د.ت.

(٢) جرجى زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ، القاهرة ، دار الهلال ، طبعة راجعها وعلق عليها حسين مؤنس ٣ / ١٥٦ .

(٣) نفسه ، ٣ / ١٦١ .

في العجز فأضحكتني ، وهبتك هذه البدرة ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين " إلى أن حقق للخليفة ما أراده وأعطاه البدرة فأخذها الأصمعي وانصرف[١] .

وكأنَّ بالخليفة هارون الرشيد يتمتع بالعطاء لكل من شعر عنده بعلم أو بفن، وقد كان كثير العطاء للأصمعي ، ولأبي يوسف القاضي ، وللكسائي ولأبي عبيدة معمر بن المثنى ، وغيرهم من العلماء ، بجانب غيرهم من الشعراء والمغنيين والكتاب .

أما المأمون فلم يكن سوى سحابة عطاء على العلماء ، وأهل الفهم والنباهة والفن ، فإنه يعلم جيداً قيمة هؤلاء العلماء ، وضرورة إغراقهم بالمال ؛ حتى يتفرغوا لعلمهم وفنهم لأن الكفاية من أهم الأمور التي تعين على تحصيل العلم[٢].

إن الفراء لما اتصل بالمأمون أمره أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو ، وسمع من العربية وأمر أن يفرد بحجرة من حجر الدار ، ووكل به جواري وخدماً يقومون بما يحتاج إليه ، حتى لا يتعلق قلبه ، ولا تتوق نفسه إلى شيء ، حتى أنهم كانوا يؤذنونه بأوقات الصلاة ، وصير له الوراقين ، وألزمه الأمناء والمنفقين، فكان يملي والوراقون يكتبون ، حتى صنف الحدود في سنتين وأمر المأمون بكتبه بالخزائن[٣] .

الخليفة يأمر بعزل هذا العالم عن كل شيء من سبيله أن يشغله ، أو يشتت ذهنه ، فقد هيأ له كل سبل الراحة والمساعدة على إتمام مصنَّفه ، حتى أتمه في هذه المدة القصيرة .

---

(١) ينظر أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، الدينوري ، عيون الأخبار ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة ، ٣ / ٣٠٠ (بتصرف) .

(٢) ينظر أبو هلال العسكري ، الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه ، مطبعة دار الفضيلة ، تحقيق عبد المجيد دياب ، ص ٥٢ .

(٣) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ط١ ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٤٨ م ، تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد ، ٥ / ٢٢٦ .

وكما كان عصره عامراً بالعلماء والأدباء والنحاة ؛ فإنه كان كذلك حافلاً بجماعة المحدثين والمؤرخين ، والفقهاء كالبخاري ، والواقدي ، الذي نحن مدينون له بأوثق السير عن النبي – صلى الله عليه وسم –[١].

ولم تكن مجالس الحكام إلا أملاً يطمح إليه العلماء ، والشعراء وأصحاب الفضل ، من أجل التقرب من الخليفة وحاشيته ، لما لهم من كلمة مسموعة في كل الأمور من جهة ومن أجل الحصول على الأموال الطائلة في الشهرة وذيوع الصيت من جهة أخرى ، ولم يكن الخلفاء ينتظرون حتى يحتاج العلماء إلى المال، بل كانوا يغدقون عليهم الأموال والهبات بأسباب يختلقونها ، حدث ذلك مع الرشيد والأصمعي ، وها هو حماد الراوية يقول : " دخلت على المهدي فقال : أنشدني أحسن أبيات في السكر ، ولك عشرة آلاف درهم ، وخلعتان من كسوة الشتاء والصيف ، فأنشدته قول الأخطل :

تَرَى الزّجَاجَ وَلَمْ يَطْمِثْ يَطِيْفُ بِهِ ∴ كَأَنَّهُ مِنْ دَم الأَجْوَافِ مُخْتَضَبُ

حَتَّى إِذَا افْتَضَّ مَاءُ المُزْنِ عُذْرَتَهَا ∴ رَاحَ الزُّجَاج وَفِيْ أَلْوَانِهِ صَهَبُ

تُتْرُوْ إذا شَجَّهَا بالمَاءِ مَا ذِجُهَا ∴ نَزْوَ الجَنَادِبِ فِيْ رَمْضَاء تَلْتَهِبُ

رَاحُوْا وَهُمْ يَحْسَبُون الأَرْضَ مِنْ فلكٍ ∴ أَصُرِّعُوْا وَقتَ الرَّاحَاتِ والرُّكَبُ

فقال لي : أحسنت ، وأمر لي بما شرطه ووعدني به فأخذته"[٢] .

ولم يكن الخلفاء وحدهم أصحاب الفضل على العلماء ، بل كان الوزراء أيضاً أصحاب ثقافة عالية وفضل ما ينسيهم هموم الحياة المادية ، " وكان البرامكة على الخصوص يحبون العلم والعلماء ويبذلون الأموال في تقريبهم "[٣] . وقد كان يحيى بن خالد يجري على سفيان عيينه كل شهر ألف درهم ، وكان سفيان يدعو

(١) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المأمون ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ ، ١ /٣١٤ .

(٢) أبو الفراج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ – ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الأبياري ، ٥ / ٢١٦٨ .

(٣) جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة ، دار الهلال ، راجعها شوقي ضيف ، ٢ / ٢٣.

له في سجوده يقول : " اللهم إنه قد كفاني المؤونة ، وفرغني للعبادة ، فاكفه أمر آخرته "(١) .

ولم يكن عطاؤهم للعلماء على هذه الشاكلة إلا لمعرفتهم بقدر العلم ، وضرورة احتواء العلماء ، واحتمال مؤونتهم ، والحفاظ عليهم من عضة الدهر التي قد تشغل العالم عن علمه ، يقول إبراهيم بن محمد البيهقي : " حدثنا يزيد البرمكي قال : قدم الواقدي من المدينة بأسوأ حال ، فصار إلى يحيى وهو لا يعرفه ، فوضع الطويلة على رأسه ، فركب يحيى وخرج ، فرآه جالساً على باب داره في زي القضاة ، فقام الواقدي وأثنى عليه ، ودعا له ، ومر يحيى في موكبه إلى دار أمير المؤمنين ثم انصرف وإذا الواقدي في مجلسه ذلك ، فقام إليه ودعا إليه وأثنى عليه ، فدخل منزله وجلس الواقدي فسأل يحيى عنه ، وقال : من هذا الشيخ رث الهيئة ، فلم يعرفه أحد ، فقال : ويْحَكُم ، لا شك أنه شيخٌ أصيلٌ ، معه علم وفقه ، ودعا بكيس فيه أربعة آلاف دينار ، وأمر وكيلاً له أن يدفعها إليه ، وكان قصارى الواقدي ومناه أن يصله بألف درهم فخرج الرسول ووضع الكيس في حجره ، فلما رأى عظم الكيس ، أقبل يدعو ليحيي ويثني عليه ، ثم قام وانصرف إلى منزله ، وقد أخذته الرعدة والحرص أن يرى ما في الكيس ، وإذا أربعة آلاف دينار ، فكاد أن يغشى عليه من السرور ، فرم من حاله ، واتخذ ثياباً سوية ، وعزم على أن ينصرف إلى المدينة ، فلما كان من الغد بكر على يحيى ليودعه ، فدخل وأنشد فرآه عالماً فقيهاً مسامراً بليغاً ، فأعجب به ، فقام ليودعه ، فقال : أقم عندنا ولك في كل حول هذا المقدار . فأقام عنده "(٢) .

وقد تركت نكبة البرامكة انتكاسة كبيرة في الكثير من مناحي الحياة في عصر الرشيد ، لأن هؤلاء القوم عرفوا بالكرم الزائد على كثير من رجالات هذا العصر ، علماء ، وأدباء ومثقفين ، وأناس عاديين ، حتى أن كرمهم طال كثيراً من طوائف الناس ، إذا صح ما امتلأت به كتب الأدب ، ومصادر التاريخ عن

---

(١) الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ، طبعة مكتبة الإيمان بالمنصورة ، خرج أحاديثه ، محمد بيومي ، عبد للاه المنشاوي ، أحمد رضوان مهنا ، ١٠ / ٥٦٦ ، د.ت.

(٢) المحاسن والمساوئ ، طبعة دار المعارف ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ١ / ١٨٥ .

الأموال الهائلة التي كان ينفقها هؤلاء القوم على الناس ، فطبيعي أن يتأثر العلم بشكل سلبي بنكبة هؤلاء الوزراء بصورة أو بأخرى ، وإحقاقاً للحق ؛ فإن البرامكة لم يكونوا – بالرغم من كرمهم الزائد – منفردين بالاهتمام بالعلماء ، وإغراقهم بالأموال ، بل كان معظم وزراء بني العباس أصحاب ثقافة واسعة ، جعلتهم يهتمون بالعلم ، ويشجعون العلماء بشتى الوسائل ، بما في ذلك التشجيع المالي ، فهذا عبد الله بن طاهر بن الحسين يحتوي أبا عبيد الله القاسم بن سلام – ت٢٢٣ هـ ، فقد كان هذا العالم كلما ألف كتاباً أهداه إليه ، فيحمل له مالاً كثيراً ، فلما عمل كتاب غريب الحديث استحسنه ابن طاهر ، وقال : " إن عقلاً بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب ، لحقيق ألا يخرج عنا إلى طلب المعاش فأجرى له عشرة آلاف درهم في كل شهر(١) .

وكان محمد بن عبد الملك الزيات محباً للعلوم ، وقد أسهم بنصيب كبير في ازدهار العلوم والمعارف ، وقد شجع حركة الترجمة في عصره تشجيعاً كبيراً ، فكان يشجع العلماء ، ويجزل لهم العطاء وقد ذكر ابن أصيبعة أن محمد بن عبد الملك الزيات " كان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخين في كل شهر ألفي دينار ، ونقلت باسمه كتب كثيرة ، وكان مما نقل له الكتب اليونانية ، وترجمت باسمه جماعة من أكابر الأطباء "(٢) .

فعلى هذه الشاكلة ، اهتم الحكام في هذا العصر اهتماماً خاصاً بالعلماء ، فلم ينسهم الخلفاء ، واحتوى كثيرين منهم الوزراء ، بل وغير الوزراء من القائمين على حكومة بني العباس ، وقد كان لهذا الاهتمام ، وهذه الهبات فعل السحر من كافة النواحي في ازدهار العلوم ، فقد حملت عنه هموم الحياة المادية ، ومشاكلها الحياتية ، التي قد تعصف بنفسية العالم وتأخذ قسطاً وافراً من حياته وجهده وعرقه، وقد كان له دورها أيضاً النفسي ، من إشعار هؤلاء العلماء بقيمتهم أمام أنفسهم من جهة ، وأمام المجتمع كله من جهة ثانية ، فإن العالم في كثير من

---

(١) جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة ، دار الهلال ، راجعها شوقي ضيف ، ٢ / ١١٨.
(٢) ابن أبي أصيبعة ، (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم) ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ص ٢٨٤ ، د.ت.

الأحيان يحتاج إلى من يقدِّر علمه ، ويهتم بفكره وعقله وإبداعه ، فيكون ذلك دافعاً له إلى مزيد من الجهد في الاهتمام بالعلم ، والانشغال به ، مما ينتج عنه دقة في التحصيل ، ودقة في الملاحظة ، ودقة في التوصيل ، وبالطبع قام الحكام بهذا الدور دون توان ، هذا بجانب توفير الوقت لهؤلاء العلماء حتى يستثمروه في العلم ولا يضيعوه في كلفة السعي لجلب الرزق ، والكد لسد الفاقة ، والانشغال بسبب الحصول على المال ، والتفنن في سلب نهب الأموال لسد حاجة النفس والأسرة .

ويمكننا أن نقول بأن الحكام كان عليهم أن يشجعوا العلماء مادياً وأن يمدوا لهم يد العون ، وأن يحثوهم على طلب العلم ، وقد قاموا – فيما يظن – بهذا الدور إلى حد كبير ، وإحقاقاً للحق ، فإن بعض العلماء قد سخر علمه وفكره وعقله لمرضاة الله تعالى ، حباً منه للتزود من العلم ، والتوسع فيه ، غير ناظر إلى كيس أمير ، ولا متلمظٍ إلى جائزة وزير ، وعرضت عليه خزائن الحكام فأعرض عنها، دُعي إلى بلاطهم فاعتذر عنه مبتغياً بعلمه الجائزة من خالقه ، منهمكاً في عمله دون نظر إلى هدية دنيوية .

ومن العلماء من لم تتح لهم فرصة الالتقاء بالحكام ، والانتفاع بعطاءات الخلفاء والوزراء وبالرغم من ذلك خدم العلم وأفاد العلماء .

وهذا بالطبع لا ينقص القاعدة الأساسية ، وهي أن خزائن الدولة كانت ذات أثر بالغ في العلم والفكر ، وتقدمه خطواتٍ ، كان من الممكن أن يحدث لها شيء من التعثر إذا حرمت منه .

ب- النهضة الثقافية :

إذا كان العالم يمتلك من العلم – بعد رسوخ قدمه فيه – ما يصل به إلى ما يريد ، أو يأخذ بيده لينال ما تطمح إليه كثير من الأنفس ، من الوصول إلى بلاط الخليفة أو الوزير ، لينال عنده الشهرة والمال ، حتى إذا ما وصل تحقق له ما يريده كثيرون ويتمنونه من ذلك ، فمن الطبيعي أن هذا العالم لم يولد عالماً ، ولم يأته العلم دون توفر لأسبابه الرئيسية ، من رغبة وحرص ، وغير ذلك ، هذا بجانب موارد الثقافة التي يستقى منها المتعلم علمه ليصل إلي رتبة العلماء ، متمثلة في العلماء وأهل الفكر ، أو في الكتب التي تحفظ العلم ، أقول : إن مصادر

وموارد العلم إذا لم تكن متوفرة ، وفي متناول المتعلمين فإن ينبوع العلم سينقطع ، وإن مشاعله ستنطفئ بتوالي الأيام والسنوات ، إذن فلابد من توافر ينابيع الثقافة والعلم ؛ لكي ينهل منها المتعلمون أسس العلم ، ثم يطورون ويبدعون في هذه الأسس ، مستخدمين عقولهم وأفهامهم ، فيصبحون علماء على أساس من هذه الينابيع ، ومن هذه المصادر ، وإذا كنا قد تحدثنا عند دور الحكام المادي متمثلاً في تشجيع العلماء ورعايتهم مادياً ، فإنه من الضروري أن نعترف للعباسيين بالفضل أيضاً تسهيل طرق الحصول على الثقافة في بلادهم في أثناء هذه الفترة التي نحن بصددها ، مما جعلها " تحقق أكبر نهضة ثقافية شهدتها الحضارة الإسلامية " (١) فقد كانت طرق الحصول على الثقافة سهلة ميسرة لكل الناس ، وقد نبغ على أساس من هذه السهولة كثير من أبناء الطبقات الدنيا في المجتمع " ويكفي أن نعرف أن أعلام الشعر حينئذ وهم (بشَّار بن بُرد وأبو نواس وأبو العتاهية ومُسْلِم بن الوليد وأبو تمام) كانوا جميعاً من الطبقة الدنيا من المجتمع ، فبشار كان أبوه طياناً يضرب اللَّبن ، وأبو نواس كانت أمه غازلة للصوف ، ومن هذا الغزل كانت تعوله ، وأبو العتاهية كان في صغره يحمل الخزف والجرار على ظهره في شوارع الكوفة يبيعها للناس ، وكان أبو مسلم حائكاً ، أما أبو تمام فكان أبوه عطاراً أو خماراً ، ومن وراءهم من الشعراء كانوا من أبناء العامة " (٢).

من هذا يمكننا أن نعترف للحكام بشيء غير قليل من الدور جعل التعليم سهلاً أمام عامة الناس ، الغنيِّ والفقير ، الكل باستطاعته الحصول على العلم ، والكل باستطاعته النبوغ فيه ، أما هذا التسهيل فتمثل في :

١- التعليم المجاني :

لا يذكر المسجد في أوساط المسلمين إلا وتذكر الصلاة ملازمة له ، ذلك لأن المسجد هو المكان الذي تؤدي فيه الصلاة في كل يوم خمس مرات ، ويغيب عن الكثيرين أن المسجد منذ عهد النبي – صلى الله عليه وسلم – هو مكان العبادة

---

(١) محمد بن عبد العزيز الموافي ، حركة التجديد في الشعر العباسي ، مكتبة الشباب ، سنة ١٩٩١ م ، ص٤١ .

(٢) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط ٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ م ، ص ١٠٧.

عامة وليس الصلاة فقط ، فهو المكان الذي يجتمع فيه الحاكم والمحكوم ، فيتـاح من خلاله المنازعات الاجتماعية ، وقد كان أيضاً المكان الذي تجيء إليه الزكاة ، تم يتم توزيعها على المستحقين إلى غير ذلك من الأمور التي تمس عدة جوانـب من هموم المجتمع المسلم " والمسجد لم يكن في صدر الإسـلام مكانـاً للسـجود فحسب ، ولم يكن بمعزل عن الحياة وتطورها ورقيها ، بل كان المسجد يلتحم مع المجتمع ؛ ليقدم له النماذج الطيبة من العناصر الصالحة التي تربت بين جدرانه ، ونشأت في محيطه ، وشربت من رحيق الإيمان الصافي "(١) .

وبجانب هذا وذاك كان من أهم أدوار المسجد كونه مدرسة لتعليم العلـم ، يـذهب إليه من يريد مقابلة العلماء ؛ فيسألهم عن كافة ما يحتاج إليه مـن علـم وفقـه ، "والمساجد تظل في العادة مفتوحة الأبواب طوال النهار ، يؤمها كل مسلم صـالح أو زنديق ، ليتوضأ أو ليصلي أو ليستريح ، وهناك تحت سُـقُفها الظليلـة كـان المدرسون يعلمون التلاميذ ، والقضاة يفصلون في الخصومات ، والخلفاء يعلنـون سياستهم أو أوامرهم ، وكان الناس يجتمعون فيها ليتحدثوا في كل ما يعنيهم "(٢) .

فلم يكن المسجد في يوم من الأيام حكراً على أناس دون آخرين ، يتعلم فيه العلـم طائفة دون أخرى ، بل كان مفتوحاً أمام جميع المسلمين ، يتعلم فيه الناشـئة مـا يريدون تعلمه من أصناف العلم المختلفة " فحلقة لفقيه ، وحلقة لمحـدث ، وحلقـة لقاص أو لمفسر ، وحلقة للغوى ، وحلقة لنحوي ، وحلقة لمتكلم "(٣) .

ويجلس المتعلم في الحلقة التي يريدها ، ويجلس ما يحلو له أن يجلس ، ثـم ينصرف وقتما يحب ، لم يتكلف أعباءً مادية تثقل كاهله وتجعله يترك العلم ، ولـم يجبر على حلقة بعينها قد لا تتوافق مع هوى نفسه أو مع ميوله الشخصـية ، لـذا نرى كثيراً من أبناء الطبقة الدنيا في هذا المجتمع لمعوا أو اشتهروا – كمـا قلنـا آنفاً – ، ووصلوا إلى أعلى المراتب العلمية ، بل وإلى بلاطات الخلفاء والوزراء،

---

(١) منصور الرفاعي عبيد ، مكانة المسجد ورسالته ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، ص ٢٨ .

(٢) ول ديورانت ، قصة الحضارة ن ط ٣ ، اتفقت على ترجمته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربيـة ، سنة ١٩٧٤ ، ترجمة محمد بدران ، جـ ١ ، المجلد ٤ ، ص ١٢٠ .

(٣) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ ، ص ١٠١ .

من أمثال أبي تمام ، وأبي العتاهية ، وأبي يوسف القاضي ، وبشار ، ومسلم بن الوليد ، وغيرهم ، ولأن منابع ومصادر العلم مفتوحة للجميع ، لم يكن طالب العلم يجد عنتاً أو في إيجاد إجابات لما قد يعن له من أسئلة علمية ترد على ذهنه ، في أي مكان ، فما كان منه إلا أن يذهب لأداء فريضة الصلاة ، ثم يسأل العالم المتخصص فيها يريد ، وليس هناك حكرٌ في الوقت ، أو التزام يضيق على العالم الوقت المخصص للعلم ، أو للإجابة على أسئلة السائلين ، بل كان جلوس العالم في المسجد معظم الوقت ، لأن تعليم العلم شغله واهتمامه .

" وكانت في معظم المساجد مكتبات ، كما كان معظم المدن دور عامة للكتب تضم عدداً كبيراً منها ، وكانت مفتحة الأبواب لطلاب العلم " (١). فالمكتبات، ووجود العلماء في المسجد جعلاه منارة علمية تحوي ينابيع العلم ، وفنون الثقافة وهي مفتحة الأبواب أمام الناس ، مما كان له أكبر الأثر في ازدهار الحركة العلمية والثقافية في العصر العباسي (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) ، ونصب عينيَّ الكثير من العلماء وصلوا من خلال التعليم بالمسجد إلى بلاط خليفة ، أو منزل وزير أو ثري ، أو أمير تتحسن أحواله المادية من خلاله ، فقد حدث الزجاج قال: " اشتهيت النحو فلزمت المبرد لتعلمه وكان لا يعلم مجاناً ولا يعلم بأجرة إلا على قدرها ؛ فقال لي : أي شيء صناعتك ؟ قلت : أخرط الزجاج ، وكسبي في كل يوم درهم ودانقان ، أو درهم ونصف ، وأريد أن تبالغ في تعليمي ، وأعطيك كل يوم درهماً ، وأشرط لك أن أعطيك إياه أبداً ، إلى أن يفرق الدهر بيننا ، استغنيت عن التعليم أو احتجت إليه ، قال : لزمته وكنت أخدمه في أموره مع ذلك ، وأعطيه الدرهم فينصحني في العلم حتى استقللت ، فجاءه كتاب بعض (بَنِي مَازِمَة) من السراة يلتمسون معلماً نحوياً لأولادهم ، فقلت له أسمني لهم ،

---

(١) ول يورات ، قصة الحضارة ، ط ٣ ، أنفقت على ترجمته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، سنة، ١٩٧٤ م ، ترجمة محمد بدران ، جـ ٢ المجلد ٤ ، ص ١٧٠ .

فأسماني ، فخرجت فكنت أعلمهم وأنفذ إليه في كل شهر ثلاثين درهماً ، وأزيده بعد ذلك بما أقدر عليه "[١] .

ولم يقتصر دور المسجد العلمي على احتوائه على مجموعة علماء العصر، وعلى ما تضمه المكتبات بداخله من كتب ومجلدات وقراطيس ، بل كان المسجد أيضاً منبراً مهماً للندوات الشعرية ، فلقد كان الشعراء يستغلون اجتماع الناس في المسجد ، وينشدون أشعارهم التي يمدحون بها من يمدحون ، أو يهنئون بها من يهنئون ، هذا بجانب عرض بعض الشعراء أشعارهم على المتخصصين ، ليستفيدوا بفهمهم قبل إنشادها الممدوحين ، فهذا خلاَّدٌ الأرقط يقول : " جاءنا مروان بن أبي حفصة إلى حلقة يُونُس ، فأخذ بيد خلف الأحمر فأقامه ، وأخذ خلف بيدي فقمنا إلى دار أبي عمير ، فجلسنا في الدهليز ، فقال : مروان لخلف : ناشدتك الله يا أبا مِحْرِز إلا نصحتني في شعري ، فإن الناس يخدعون في أشعارهم ، وأنشده قوله :

طرَقَتْكَ زَائِرة فحَيِّ خَيَالهَا ⁂ بَيْضَاءُ تَخْلِطُ بالجَمَال دَلالَهَا

فقال له : أنت أشعر من الأعشى في قوله :

رَحَلَتْ سُمَيَّة غُدْوَةَ أجْمَالهَا

فقال له مروان : أتبلغ بي الأعشى هكذا ! ولا كل ذا : قال : ويحك ! الأعشى قال في قصيدته هذه : " فأصاب قلبها وطحالها " والطحال ما دخل قط في شيء إلا أفسده ، وأنت قصيدتك سليمة كلها "[٢] .

وهذا الخبر نفسه في " العقد الفريد " أن إنشاد مروان كان في المسجد والذي يهمنا من هذا كله أن المسجد كان منتدى للشعراء ، وقد وجدنا الخليفة

(١) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، ط الأخيرة ، القاهرة ، دار المأمون ، طبعه لجنة التأليف والترجمة والنشر ، عناية أحمد فريد الرفاعي ، ١ / ٤٧ .

(٢) أبو الفرج على بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ – ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة محررة معها بإشراف ، وتحقيق / إبراهيم الأبياري ، ١٠ / ٣٥٦٤ وقصيدة الأعشى – ديوان الأعشى، ط ١ ، بيروت ، طبعة دار الجيل ، سنة ٤١٣ هـ – ١٩٩١ شرح يوسف شكري فرحات ، ص ٢٢٦ .

المهدي يزحف من صدر مصلاه حينما سمح قصيدة مروان السابقة ، ولاشك أن صدر مصلاه هذا كان في المسجد ، وقد كان بشار يجلس بالليل في مسجد الرصافة ، فيحضره ناس كثير ، ويحدثهم ، وينشدهم شعره [١] ، وذكر أحمد بن عبيد بن ناصح أن أبا تمام كان يجيء إلى المسجد الجامع ينشد أشعاره[٢].

ويرى الباحث : إن المسجد لم يكن فقط منارة علمية تحوي كبار العلماء والعدد الكبير من الكتب في مكتباتها ، بل كان إلى جانب هذا منبراً لإلقاء الشعر الرصين من أكابر الشعراء ، بل والتحاور حوله بالمدح أو القدح ، مما كان له أكبر الأثر في انتشار الشعر في الأماكن المختلفة ، وقد أفاد كل هذا الأدب والعلم والفكر والفن إفادة لا يمكن لمنصف أن ينكرها .

وقد كان المسجد في كثير من الأحيان يمثل ما يشبه درجات السلم ، أمام العالم أو الشاعر أو الفقيه ، فمن خلاله قد يصل إلى دار الخلافة نديماً أو معلماً ، أو قاضياً " وليس من شك في أن هذا الصنيع كان من أهم الأسباب في ازدهار الحركة العلمية بالمساجد ، إذ كان من بزغ نجمه حلقاتها لا يلبث أن يستدعي إلى دار الخلافة أو دار الولاية أو دور أحد الوزراء ، فإذا العطايا تفرض عليه وإذا الرواتب تفرض له شهرياً " [٣].

٢- بناء المكتبات العامة :

ولم تكن المساجد وحدها هي المورد السهل الذي يقصده محب العلم ومبتغي الثقافة دون غيرها ، ولكن تطوراً آخر – في حياة العباسيين العلمية – ظهر بصورة ملموسة ، جعلت الحصول على العلم والثقافة أكثر سهولة من اللجوء لمجالس العلماء ، وحلقات الدرس في المساجد ، وجعلت العلم يذهب إلى الناس في منازلهم ، يرافقهم حيث يسيرون ، ولم يكن هذا التطور سوى بدعة عباسية خالصة، وأقصد بهذا التطور ظهور (الورق) ، فمن المعروف أن الناس كانوا

---

(١) الخطيب البغدادي ، أبوبكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد ، بيروت ، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع ، ٨ / ٢٤٩ .

(٢) نفسه : ٨ / ٤٦٨ .

(٣) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ م ، ص ١٠٢ .

يدونون العلم قبل ذلك في الجلود والقراطيس ، إلى أن أنشأ (الفضل بن يحيى البرمكي) في عهد الرشيد مصنعاً للورق ببغداد " ففشت الكتابة فيه لخفته ، وغلبت على الكتابة في الجلود والقراطيس " [١].

وإذا استطعنا أن نرجع بخيالاتنا إلى ما قبل هذه الفترة الطويلة ، وتخيلنا الفارق الكبير بين الكتابة في الجلود ، والكتابة في الورق ، أقول : إذا استطعنا ذلك شعرنا بالنقلة الحضارية الكبيرة التي سهلت تدوين العلم من جهة ، وسهلت حمله من جهة ثانية ، وسهلت أيضاً مدارسته من جهة ثالثة ، وهي عوامل لم تكن متاحة من قُبل ، فلما " جاء العصر العباسي ، ونشطت حركة التأليف والترجمة ، وعظمت صناعة الورق ، وتبع ذلك ظهور حرفة الوراقين ، ووجود أمكنة لهم تتخذ مباءة للعلماء والأدباء "[٢] .

فإن حركة التأليف والترجمة ازدهرت ازدهاراً ملحوظاً في هذا العصر ، وذلك بفضل جهود المأمون أعلم خلفاء بني العباس في هذا الجانب ، الذي شجع الترجمة تشجيعاً لم يسبق له مثيل في العصور السابقة عليه ، وإن كان خلفاء عصره من قبله ، أمثال المهدي والرشيد ، كان لهم نشاط في ذلك ، إلا أنه لم يكن بحجم جهوده في مجال الترجمة على وجه الخصوص : " ففي القرن الأول من خلافة العباسيين كان المترجمون من الإغريقية إلى السريانية ، ومن السريانية إلى العربية هم الذين يحتلون المرتبة الأولى من النشاط العلمي ، ولاسيما أولئك المترجمون الذين كانوا من المسيحيين المنشقين ، مثل " تِيُوفِيْل بن تُومَا الرَّهاوي " الذي كان فلكي الخليفة المهدي ، وقد ترجم من السريانية كتاباً لجالينوس ، مثل " جُرْجيس بن جبرِيل بن بَخْتِيشُوع " الذي عمل عند المنصور ، وهو أقدم ممثل لطبقة من الأطباء الذائعي الشهرة "[٣] فلم يكن المأمون أول خليفة اهتم بالترجمة

(١) نفسه : ص ١٠٣ .

(٢) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة ، سنة ١٩٩٨ م ، طبعة سنة ٢٠٠٢ م ، ٢ / ٦١ .

(٣) محمد مصطفى هدارة ، المأمون الخليفة العالم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٥ م ، ص ٢١٧ .

وإن كان عصره أزهى عصورها " وكان تشجيعه لكل العلوم على قدم المساواة ومن هنا جاء الازدهار العظيم في حياة الترجمة في عصره "[١] . وقد ذكر (جورجي زيدان) في (تاريخ التمدن الإسلامي) الكتب التي ترجمت في النهضة العباسية[٢] والمقام لا يستوجب ذكرها ، فكل ما يعنينا أن نعلم أن الكم الكبير من الكتب المترجمة كان في حاجة ماسة إلى التفكير في مصنع الورق الذي ذكرناه آنفاً ، والذي كان له أثر كبير في انتشار العلم المؤلف والمترجم ، وعلى أساس منه ظهرت حرفة الوراقين الذين يكتبون العلم في الورق ، ووجود أمكنة لهم تتخذ مباءة العلماء والأدباء ما يتزودون منها العلم ، وكثرت المكتبات وذخرت بالكتب[٣] .

وكان من أهم مظاهر اهتمام الدولة بالعلم والكتب أن أنشأت خزانة للكتب أسمتها (بيت الحكمة) أيام الرشيد أو ولده المأمون ، وإن كان مؤرخو الأدب قد اختلفوا هل هي من صنع الرشيد أم من صنع المأمون ، فهذا لا يعنينا كثيراً ، فهي في الحالتين في العصر الذي نحن بصدد دراسته ، وقد قدمت هذه المكتبة خدمة هامة في سبيل تسهيل الحصول على الثقافة والعلم ، وهي مكتبة ضخمة عنيت فيها الدولة أشد العناية بالكتب المترجمة التي تحمل كنوز الثقافات الأجنبية ، ولا ريب في أن هذه المكتبة كان جامعة كبرى لطلاب العلم والمعرفة .

" وقد أخذ كثير من الأفراد يعنون باقتناء المكتبات ، وكانوا يوظفون فيها بعض الوراقين للنسخ ، من ذلك مكتبة إسحق بن سليمان العباسي ، وكانت تمتلئ بالكتب والأسفاط والرقوق والقماطير والدفاتر والمساطر والمحابر "[٤] .

وأضخم منها وأعظم مكتبة يحيى بن خالد البرمكي والتي يقال إنه لم يكن في مكتبة كتاب إلا وله ثلاث نسخ[١] ؛ وربما فاق هذه المكتبة عظماً وضخماً

---

(١) نفسه : ص ٢١٦ .

(٢) ٣ / ١٧١ .

(٣) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، الهيئة المصرية للكتاب ، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة ، ١٩٩٨م، طبعة سنة ٢٠٠٢ م ، ٢ / ٦١ .

(٤) عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، الحيوان ، القاهرة ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، سنة ١٩٣٨ م ، ٦١/١ .

الواقدي المؤرخ المشهور ، ت٢٢٧ هـ ، وكانت تشتمل على ستمائة صندوق مملوءة بالكتب ، وكان له مملوكان يكتبان له ليلاً ونهاراً (٢) .

ولأن العصر كله كان يدوي باختراع مادة الورق ، وبالمصنع الذي أنشئ لها في بغداد على يد البرامكة ، فقد ازدهرت حرفة الوراقين ، وأفادوا منها ، وأفادوا محبي العلم والثقافة أيضاً ، فقد " أنشأ بعض الوراقين لهم دكاكين كبيرة ملأوها بالكتب ، يتجرون فيها ، وكان بعض الشباب يغدو إلى هذه الدكاكين ، لا يشتري منها فحسب ، بل ليقرأ فيها ما لذ وطاب من صفوف الآداب ، نظير أجر بسيط يتقاضاه منه صاحبها "(٣) .

فقد أصبحت الوراقة مصدراً لكسب الرزق ، يتنافس الوراقون وأصحاب الدكاكين فيما بينهم ، ليجذبوا إليهم القراء والمطلعين ، إما بتقليل الأجر الذي يتقاضونه من القراء ، أو بتجويد خطوطهم وزخرفتها وتحسينها لتروق القراء وفي هذا وذاك خدمة كبيرة لتشجيع العلم بطريق مباشر أو غير مباشر ، وبلغ من عناية الوراقين بعلمهم ، أن موه بعضهم خطوطه بالذهب ، ويذكر الجاحظ أن الزنادقة كانوا يتأنقون في كتبهم تأنقاً شديداً (٤) وهذا التأنق وهذه الزخرفة يعدان عنصراً مهماً لجذب القراء " وكان في معظم المدن دور عامة للكتب تضم عدداً كبيراً منها، وكانت مفتحة الأبواب لطلاب العلم "(٥) ونستطيع أن نقول – على أساس من ذلك – إن طرق الحصول على الثقافة كانت سهلة ميسرة ، في متناول كل من أراد العلم ، فقد كان منها أن شجع الحكام العلماء بعده وسائل ، فجعلوهم منشغلين بالعلم وحده وأنشأوا المكتبات العامة يردها الراغبون ، فيجدوا أصنافاً من العلم ، يتزود كل مما يميل إليه " ويخيل إلى الإنسان كأنما كانت أزواد المعرفة والثقافة ملقاة

---

(١) نفسه : ١ / ٦٠ .

(٢) ابن النديم (أبو الفرج محمد بن إسحاق بن أبي يعقوب) الفهرست ، بيروت ، دار النهضة ، سنة ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م ، ونسخة طبعة مصر ، ص ١٤٤ .

(٣) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط١٤ ، القاهرة ، درا المعارف ، سنة ١٩٦٦ م ، ص ١٠٤ .

(٤) الحيوان ، القاهرة ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، سنة ١٩٣٨ م ، ٥٥/١.

(٥) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ط ٣ ، أنفقت على ترجمته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، سنة ١٩٧٤ م ، ترجمة محمد بدران ، جـ ٢ ، مجلد ٤ ، ص ١٧٠ .

بكل مكان بأمصار العراق ، وهي حقاً كانت مطروحة في الطرقات ، معرضة لكل الأيدي ، فأبواب المساجد مفتوحة على مصاريعها لكل الواردين ، ومثلها دكاكين الوراقين ، ولا مصاريف تطلب للتعليم ، فالتعليم مجاناً ومن حق الجميع"(١)

وقد تمتعت طوائف مختلفة من هذا الانفتاح الثقافي الذي عمَّ المجتمع ، حتى الجواري ، كان النخاسون يوفرون لهن أسباب الدراسة والثقافة ، لتزداد قيمتهن ، وليستفيدوا من صناعتهن فوائد مضاعفة ، إذ كان الشباب يجتمعون في بيوتهم لاستماع الغناء والتلذذ بالغزل والشراب .

جـ- دعم الأدباء والشعراء :

إذا كان حكام العباسيين قد اجتمعوا بالعلماء والمصنفين ، وشجعوهم تشجيعاً مادياً بسخاء زائد ومدوا لهم يد العون ، وشجعوهم تشجيعاً كبيراً ، وحثوهم على العلم تأليفاً وترجمة ، وكالوا لهم الدراهم والدنانير كيلا، مما كان له أكبر الأثر في ازدهار العلم والفكر، يقول الباحث : إن ذلك لم يكن للعلماء ، فقط ، ولكنه شمل أيضا الأدباء والشعراء، فإذا كانوا قد اهتموا بالعلم فإنهم لم يغفلوا الفن ، فقد احتووا الشعراء ، ومنحوهم من العطايا حسب ما ذكر ذلك كثير من مصادر الأدب- ما يبهر العقول ، وقد يجعلها تقف حائرة بين التصديق والتكذيب لهذه الأخبار التي أوردها مؤرخو الأدب ، " دخل ابن الخياط المكي على المهدي وقد مدحه، فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما قبضها فرقها على الناس وقال:

أخَذْتُ بكَفِّيْ كَفَّهُ ابْتَغِى الغِنَى ∴ ولَمْ أدْر أنَّ الجُوْدَ مِنْ كَفّهِ يُعْدِيْ

فلا أنا مِنْهُ ما أفادَ ذوُوْ الغِنَى ∴ أفدْتُ وَأعْدَانِي فبَدَّدْتُ مَاعِنْدِيْ

فنمى إلى المهدي فأعطاه بكل درهم ديناراً " (٢).

ولقد كان المهدي من أكثر خلفاء بني العباس كرماً مع الشعراء ، فقد أعطى مروان بن أبي حفصة مالم يعط لشاعر من قبله ، ولقد أحس الشعراء ، بكرمه هذا فأتحفوه بشعرهم الرائع الرصيف حتى غيبوه من وعيه في العطاء " وكان سَلم الخَاسر – قد كسب مالاً بقصيدته التي مدح بها المهدي ، التي أولها:

---

(١) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ م ، ص ١٠٧.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دار الفكر العربي، ٥/٢٥٩.

حَصَنْـرَ الرَّحْيــلُ وشُـدَّتْ الأحْـدَاجُ ∴ وَحَــدَا بهــنَّ مُشَــمِّرُ مِزْعَــاجُ

شَــرِبَتْ بمكَّــة مِــنْ دَوِيْ بَطْحائِهَــا ∴ مَاءَ النُّبُوَّةِ لَيْسَ لَيْسَ فِيْــهِ مِــزَاجُ

وكان المهدي قد أعطى ابن أبي حفصة مائة ألف درهم بقصيدته إلى أولها: " طرقتك زائرة فحي خيالها " فأراد أن ينقص سلماً عن هذه الجائزة ، فحلف سلم ألا يأخذ إلا مائة ألف درهم، وألف درهم ، وقال: تطرح القصيدتان إلى أهل العلم حتى يخيروا بتقديم قصيدتي ، فأنفذ له المهدي مائة ألف درهم ، وألف درهم ، فلما بلغ إلى زمان الرشيد قال قصيدته التي أولها :

قُــلْ للمَنَــازل بالكَثِيــبْ الأعْفَــر ∴ أسقيْتِ غادِيَــة السَّـحاب المُمْطِــر

قــدْ بَــايَعَ الــثقلان مَهْـدي الهُـدَى ∴ لِمُحَمَّدِ بْــن زُبَيْــدةِ ابْنَــةِ جَعْفَــر

فحشت زبيدة فاه دراً " [1].

" ذكر أبو محمد التَيْميّ قال: دخلت على محمد الأمين أول الخلافة، فقال : ياتَيميّ، وددت أنه قيل فيَّ مثلُ قول طريح بن إسماعيل في الوليد بن يزيد

طُــوبَى لفَرْعَيْــكَ مِــنْ هُنَــا وَهُنَــا ∴ طُــوبَى لأعْرَاقِــك الَّتِــيْ تَشِــجُ

فإني والله أحق بذلك منه، فقلت : أنا أقول ذلك يا أمير المؤمنين ، ثم دخلت إليه من غدِ فأنشدته قصيدتي : إلى :

لابُــدَّ مِــنْ سَــكْرةٍ عَلَــى طَــربِ ∴ لعَــلَّ رُوْح بَــديْلَ مــن كُــربِ

حتى انتهيت إلى قولي :

أكْــــرمْ بفــــرْعَيْن يَجْرِيَــــان بــــه ∴ إلى الإمَام المَنْصُـوْر فــي النَّســبِ

فتبسم ، ثم التفت إلى الفضل بن ربيع ، فقال: بحياتي أو قر له زورقه مالاً ، فقال: نعم يا سيدي فلما خرجت طالبت الفضل بذلك ، فقال: أنت مجنون ، من أين لنا ما يملأ زورقك: ثم صالحني على مائة ألف درهم" [2] .

وخلفاء بني العباس جميعهم كانوا يغدقون الأموال على الشعراء ببذخ وإسراف زائد، إلا (أبو جعفر المنصور) ، فقد كانت حياته في شخصه، وفي عماله ، وفي

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دار الفكر العربي، ٤٩١/٥.

(٢) أبو الفرج عل بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الشعب، سنة ١٣٨٩- ١٩٦٩م، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق إبراهيم الابياري، ٧٦٨٥/٢٢.

أهله تخضع لمحاسبة شديدة، فقد كتب إليه صاحب الخبر مرة أن المهدي – وهو ولي عهده– أعطى المؤَمَّل بن أميْل الشاعر *(١) عشرين ألف درهم على قصيدة امتدحه بها، فإذا به يبعث في طلب الشاعر، ويسترد منه المال إلا أقله(٢) ولم يكن هذا التصرف من المنصور مع شاعر مجيد مبنياً على عدم التقدير للفن نفسه، ولكن يرى أنه أراد أن يعلم المهدي التصرف بحساب، وخاصة أن الدولة في بدايتها تحتاج إلى مثل هذا الحساب، حتى لا تنهار سريعاً بسبب البذخ والإسراف، ولكن حاسة المنصور الفنية لم تكن عاجزة عن تقدير الفن، وتكريم المبدعين من الشعراء ، والدليل على ذلك أن المنصور كانت تسرقه نفسه أحياناً فيعطي الشعراء ببذخ أيضاً، من ذلك ما حكاه الجاحظ قال: " كان أبو دلامة بين يدي المنصور واقفاً، فقال له:سلني حاجتك ، قال أبو دلامة: كلبٌ أتصيد به، قال أعطوه إياه. قال: ودابةٌ أتصيد عليها. قال أعطوه. قال: غلامٌ يصيد بالكلب ويقوده . قال: أعطوهُ غلاماً. قال: وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه. قال: أعطوه جارية. قال: هؤلاء يا أمير المؤمنين عبيدك فلا بد لهم من دار يسكنوها . قال أعطوه داراً تجمعهم قال: فإن لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون : قال قد أعطيتك مائة جريب(٣) عامرة، ومائة جريب غامرة. قال وما الغامرة ، قال: ما لا نبات فيها. فقال: قد أعطيتك أنا يأمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فيافي بني أسد، فضحك وقال: اجعلوها كلها عامرة " (٤)، ولم يكن المنصور ليحتمل هذا الإفراط في المطالب– فيما يرى – على هذه الشاكلة إلا من رجل هو يعلم قيمته وقدره، لذا فقد أعطاه وأغناه.

---

(١)*المؤمل بن أميل، شاعر من أهل الكوفة ، أدرك العصر الأموي واشتهر في العصر العباسي، انقطع إلى الخليفة المهدي قبل خلافته وبعدها، وهو صاحب الأبيات التي أولها : إذا مرضنا أتيناكم لعودكم ** وتذنبون فنأتيكم فنعتذر. وقد عمى في آخر عمره ، توفى سنة ١٩٠هـ. ينظر : خير الدين الزركلي ، الإعلام ، ط ١٠ بيروت ، دار العلم للملايين ، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٢ .٣٣٤/٧.

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ط٣، منقحة ، دار المعارف، سنة ١٩٦٦م، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٧٣/٨.

(٣) الجريب : المزرعة – المعجم الوسيط ، جرب.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ٣٧٠٠/١٠.

أما غير المنصور فإن الأعطيات كانت تخرج عن حدود المعقول، وتـدخل في باب المبالغات في كثير من الأحيان ، ولو لم تذكر الأخبار ذلك في أكثر مـن مصدر لعُدت من قبيل الأكاذيب. وقد كانت هذه الأموال الكثيرة التي يحصل عليها الشعراء، كفيلة بأن تجعلهم يجلسون في بيوتهم، لا همَّ لهم إلا إحكام بناء القصائد ، والدقة في معانيها؛ لتنال القبول الذي يجلب هذه الأموال ، يقول مروان بـن أبـي حفصة: " إني إذا أردت أن أقول القصيدة ، رفعتها في حول، أقولها فـي أربعـة أشهر، وأنتخلها في أربعة أشهر، وأعرضها في أربعة أشهر "(١) فلـم يكـن نيـل القبول بالأمر الهين، لأنهم كانوا يمدحون علماء بالشعر خبراء به.

وعلى شاكلة المهدي كان الرشيد، وكان المأمون، وكان المعتصم، وإن كان هناك تفاوتٌ إلى حد ما بينهم في العطاء ، إلا أنهم على الجملة قد أغنوا الشـعراء وكفوهم، وأغدقوا عليهم الأموال بغير حساب ، بل وحددوا لهم أوقاتاً معينة يسمح لهم بالوصول إليهم فيها، والوقوف بحضرتهم ، وإنشاد الشعر لهم.

ولم يكن الخلفاء وحدهم أصحاب الفضل على الشعراء في العطاء، بل كان كذلك وزراؤهم وقوادهم ، وأعيانهم، وأهلوهم أصحاب فضل أيضـاً، فالبرامكـة كانوا أجود الناس على وجه العموم، وخاصة مع الشعراء والمبدعين " دخل سـعيد بن وهب على الفضل بن يحيى يوماً وقد جلس للشعراء ، فجلعوا ينشدونه ويـأمر لهم بالجوائز حتى لم يبق منهم أحدٌ ، ثم التفت إلى سعيد بن وهب كالمستنطق له : أيها الوزير : إني ما كنت استعددت لهذه الحال ، ولكن قد حضرني بيتان أرجـو أن ينوبا عن قصيدة فقال: هاتهما، فرُبَّ قليلِ أبلغُ من كثير، فقال:

مَـدَحَ الفَضْـلُ نَفْسَـهُ بالْفِعَـال ∴ فعَـلا عَـنْ مَـدِ يْحنَـا بالمقَـال

أمَرُوْنِـي بمَدحِـهِ قُلْـتُ كَـلاَّ ∴ كَبُرَ الفَضْلُ عَـنْ مَـدِيْح الرِّجَـال

فطرب الفضل وقال: أحسنت وأجدت ، ولئن قل القول وندر ، لقـد اتسـع المعنى وكثر، ثم أمر له بمثل ما أعطى لكل من أنشده يؤمئذٍ ، وقال: لا خير فيمـا يجيء بعد بيتك وقام من المجلس" (٢).

---

(١) نفسه : ٣٥٤٦/١٠.

(٢) ابن الجوزري، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، طبعة دار الفكر العربي ١٩٣/٦.

وقد كان البرامكة يحترمون الشعراء احتراماً شديداً، ويقدرونهم حق قدرهم، ولاينظرون إليهم نظرة انتقاص بسبب طلبهم للأموال على قول الشعر، وكان الشعراء يسمون في قديم الدهر إلى أيام خالد بن برمك السؤَّال، فقال خالد: " هذا والله إسم استثقله لطلاب الخير، وأرفع قدر الكريم عن أن يسمى به أمثال هؤلاء المؤمنين . لأن ، فيهم الأشراف، والأحرار ، وأبناء النعيم ، ومن ولعله خيرٌ ممن يقصد ، وأفضل أدباً، ولكن نسميهم الزوَّار، فقال بشار: يمدحه بذلك:

حَدا خَالدُ فِيْ فِعْلِهِ حَدْوَ بَرْمَكٍ ∴ فمَجْدُ لَهُ مُسْتَطرَفُ وَأصِيْلُ

وَكَانَ ذوُو الآمَال يُدْعَوُنَ قبْلَهُ ∴ بلَفْظٍ عَلَى الإعْدَام فِيْهِ دَلِيْلُ

يُسَمَّوْنَ بالسُوَّال فِيْ كُلِّ مَوْطِنِ ∴ وَإنْ كَانَ فِيْهِمْ نَابهُ وَجَلِيْلُ

فسَمَّاهُمُ الزُوَّارَ سَتْراً عَلَيْهِمُ ∴ فأسْتَارُهُ في المُجْتَدِيْنَ سُدُوْلُ(١)

وكان لكبار القادة شعراء أيضاً يغدقون عليهم الأموال الطائلة ، من أمثال معن بن زائدة الشيباني، وعمرو بن العلاء ، وأبي دلف العجلي وغيرهم ، ولقد بلغ بعلي بن جبلة أنه استحيا من كثرة عطاء أبي دلف له قال " علي بن جبلة: كنت لا أدخل على أبي دلف إلا يلقاني ببر، فلما أفرط انقطعت عنه حياء منه ، فبعث إليَّ أخاه يقول : لم هجرتَنا فكتبت إليه: :

هَجَرْتُكَ لَمْ أهْجُرْكَ مِنْ كُفر نِعْمَةٍ ∴ وَهَلْ يُرْتَجَى نَيْلُ الزِّيَادَةِ بالكُفْر

وَلَكِنَّنِيْ لَمَّا أَتيْتُكَ زَائِراً ∴ فافرَطْتَ فِيْ برِّيْ عَجَزْتُ عن الشُكْر

من الآن لا آتِيْكَ إلاَّ مُسَلِّماً ∴ أزُوْرُكَ في الشَّهْرَيْن يَوْماً وفِي الشهْر

فإنْ زدْتَنِي برًّا تزَايَدْتُ جَفْوَةَ ∴ وَلَمْ تَلْقِنيْ طُوْل الحَياةِ إلى الحَشْر (٢)

وكأنَّ بهؤلاء الممدوحين يسعون للمجد الدائم من خلال الشعر ، وينفقون على أصحابه بهذا الكرم؛ لإحساسهم بقيمته الباقية.

---

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني ، طبعة دار الشعب، سنة ١٣٨٩-١٩٦٩م، طبعة كاملة ، محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق، إبراهيم الإبياري، ١٠١٩/٣.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، طبعة دار الفكر العربي، ٢٣٧/٦. وديوان علي بن جبلة " ط٣ ، دار المعارف ، جمع وتحقيق وتقديم حسين عطوان ، صـ٦٣. د.ت.

– نستطيع بعد ذلك أن نقول مطمئنين : إن حكام العباسيين اعتنوا بالفن الشعري متمثلاً في الشعراء، وأراحوا كثيرين منهم من هموم الحياة المالية، وجعلوهم يعيشون حياة رغدة ثرية ، لم يشعروا فيها بضيق الرزق، ولا بالسعي لجلبه بل " ما كانوا ليجدون الاعتراف الكامل بمواهبهم الفنية إلا في بلاط الخلافة " (١).

– وإحقاقاً للحق ،فإن طائفة من الشعراء لم تتكسب بالشعر، ولم تسع به إلى أعتاب القصور، طلباً لجائزة من خليفة، أو درهم من وزير، ولكن كان من الواضح أن الشعراء الذين داروا في فلك الحكام كانوا أكثر شهرة وأجود إنتاجاً ممن ابتعد عن مدحهم.

" حسبك أن تعلم أن للخلفاء شعراء اختصوا بهم ، كأبي دلامة، وحماد عجرد ، وبشار بن برد، ومروان بن أبي حفصة، وأبي نواس، ومنصور النمري، وغيرهم، وللبرامكة شعراء أمثال: أبان بن عبدالحميد ، وابن مناذر، والرقاشي " (٢).

– إذا كان الحكام العباسيون قد أنفقوا على الشعراء بهذه الكثرة ، فلم يكن هذا إلا تقديراً منهم للفن والأدب، وعلماً بأهمية الشعر كفخر لهم يبقى أبد الدهر، لذا هانت عليهم الأموال، والتذوا بالسماع ، وطربوا للمديح، وفي الجهة المقابلة فإن سطوة سلطانهم – الحكام– قد دفنت بعض ينابيع الشعر دفنا نهائياً، وحرمت دنيا الأدب من فنهم وإبداعهم ، لأسباب اختلف فيها فبسبب ما قتل عيسى بن موسى أبا نخيلة الشاعر حينما " لقب نفسه شاعر بني هاشم، فمدح الخلفاء من بني العباس، وهجا بني أمية فأكثر، وكان طامعاً ، فحمله ذلك على أن قال في المنصور أرجوزة يغريه فيها بخلع عيسى بن موسى، ويعقد العهد لابنه محمد المهدي، فوصله المنصور بألفي درهم ، وأمره أن ينشدها بحضرة عيسى بن موسى، ففعل، فطلبه عيسى فهرب منه ، وبعث في طلبه فأدركه في خراسان ، فذبحه وسلخ جلده ،

---

(١) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦١، نقله إلى العربية، عبدالحليم النجار، ١٢/٢.

(٢) أحمد فريد الرفاعي، عصر المأمون ، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٧م، ١٥٤/١.

وأقسم ألا يريم مكانه حتى تمرق الطير والسباع لحمه، فأقام حتـــى لــم يبقـــى إلا عظامه وانصرف " [١] .

– فالقرب من هذه الطبقة سلاح ذو حدين ، قد يرفع المرء إلى أعلى المراتب، وقد يكلفه حياته، وقد " كان سبب قتل المهدي لبشار ، أن المهدي ولى صالح بن داوود أخا يعقوب بن داود وزير المهدي ولاية ، فهجاه بشار بقوله:

هُمُ حَمَلُـوْا فَــوْقَ المَنَــابر صَــالِحاً ∴ أخَاكَ فَصَجَّتْ مِنْ أخِيْــكَ المَنَــابرُ

– فبلغ يعقوب هجاؤه فدخل على المهدي وقال له: إن بشاراً هجاك ، قال: ويلــك ماذا قال. قال: يعفيني أمير المؤمنين من إنشاد ذلك فقال: لابد. فأنشده:

خَلِيْفَــــــةٌ يَزْنِــــــى بعَمَّاتِــــــهِ ∴ يَلْعَــــبُ بالــــدَّبُّوْق وَالصَّـــــوْلَجَانْ

أبْـــــــدَلَنَا اللهُ بــــــهِ غَيْـــــــرَهُ ∴ وَدَسَّ مُوْسَى فِــيْ حِــر الخَيْــزُرَانْ

فطلبه المهدي ، فخاف يعقوب أن يدخل عليه فيمدحه فيعفوا عنه، فوجه إليه مــن القاه في البطيحة "[٢] .

– وقد حدث ذلك مع صَالِحُ بن عَبْدِ القُدُّوس الشاعر حينما اتهمه المهدي بالزندقة، فأمر بحمله إليه فأحضر ، فلما خاطبهُ أعجب بغزارة علمه وأدبه وحســن ثيابــه، فأمر بتخلية سبيله، فقال : ألست القائل:

والشَّـــــيْخُ لا يَتْـــــرُكُ أخْلاَقَـــــهُ ∴ حَتَّى يُــوَارى فِــيْ ثــرَى رَمْسِــهِ

إذا ارْعَــــوَىْ عَــــادَ إلـــىْ جَهْلِـــهِ ∴ كَـــدَا الفَتَـــى عَـــادَ إلـــى نُكْسِـــهِ

قال: بلى ، قال: وأنت لا تترك أخلاقك، ونحن نحكم فيك بحكمك ، ثم أمر به فقُتل وصلب على الجسر [٣].

وإذا كان صالح بن عبد القدوس قد اتهم بالزندقة فكانت سبب قتلــه ، فـــإن غيره قتل بسبب شعره ليس إلا ، كأبي نخيلة مثلاً .

---

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب، سنة ١٣٨٩-١٩٦٩م، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، ٨١٠٧/٢٣.

(٢) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر) / ط١، مكتبة النهضة المصرية، ســنة ١٩٤٨ م، تحقيق / محمد محي الدين عبد الحميد ٢٤٨/١.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دار الفكر العربي، ٣٣١/٥.

والذي يخلص إليه بعد كل هذا ، أن الحكام شجعوا العلماء، وسهلوا طــرق الحصول على العلم والثقافة ، وأثابوا الشعراء، واهتموا بهم، إلا أنهم بالرغم مــن ذلك قد أخمدوا بعض ينابيع البيان ، والدرس الموضوعي يقتضي أن نعتــرف أن هذه خسارة للأدب والشعر.

المبحث الثاني : الدعم الثقافي والعلمي

إذا كان قد تحدثنا في ثقافة حكام العباسيين حديثاً فيه شيء من التفصيل والتوضيح، وحاولنا الإلمام بالجوانب المختلفة لثقافة هؤلاء الحكام، من دينية إلى أدبية ولغوية أوثقافات أجنبية، وإذا كنا قد توصلنا إلى مكانة هؤلاء الحكام العلمية المتميزة ، والتي جعلتهم في منزلة تقترب من منزلة العلماء ، وإذا كُنا قد أوضحنا الدور المالي المهم لهؤلاء الحكام ، والذي تمثل في إنفاق الحكام الكثير من الأموال على العلماء ، تشجيعاً لهم على مواصلة السير في هذا الطريق الوعر، وأعني به طريق العلم وتحصيله ، وعلى منابع الثقافة ومصادرها المختلفة حتى يسهلوا للناس التزود بالعلم، وارتياد منابع الفكر ، وعلى الأدباء والمبدعين والشعراء والمثقفين ومحبي البيان الرفيع ، اهتماماً بفنهم وإبداعهم ، واحتواء لهمومهم المالية التي قد تعرقل أدبهم وشعرهم.

يقول الباحث : إذا كان ذلك قد ثبت واتضح، فإحقاقاً للحق، لم يكن دور الحكام من خلفاء ووزراء وقادة مقتصراً على هذه النواحي المالية وحدها، إلا لأصبح هذا الدور – المالي – مجرد واجهة يتحلى بها الحكام دون إحساس حقيقي بقيمة ما ينفقون من أجله، ولأصبح الأدب مفتقداً لشيء غير قليل من رونقه ومن قيمته المالية. بل كان لهم دورهم الثقافي والعلمي الملموس، والذي قدم للأدب شعراً ونثراً– الكثير من العون، وكان له أكبر الأثر في توجيه الأدب، وفي نهوضه ، وفي صياغته الفنية العالية ، وفي تحريكه في اتجاه معين ، وفي ظهور سمات معينة محورها الحكام وحدهم لولاهم لما وجدت ، هذا بجانب التوجيهات الفنية الدقيقة التي صدرت عن خليفة ، أو عن وزير ، وكان لها أكبر الأثر في أدب أديب أو مجموع من الأدباء.

وإذا حاولنا تلمس هذا الدور العلمي الذي أداه الحكام ، نجد يتمثل في :

أ– الندوات الأدبية :

من المتعارف عليه بين مؤرخي الأدب ، أن المجالس الأدبية قد عرفت قبل العباسيين ، بل كانت هناك مجالس أدبية راقية قبل الإسلام ، كسوق عكاظ

وغيرها، وفي صدر الإسلام وعصر بني أمية اهتم العرب اهتماماً كبيراً بــالأدب أيضاً ، غير أن الدور الحقيقي الذي لعبته قصور الأمويين في تنشيط هذه المجالس وتطويرها ، بدأ مع عبد الملك بن مروان ، نظراً لما تمتع به هذا الرجل مــن أدب رفيع ، وثقافة واسعة ، وسليقة أدبية حملته على الاهتمام بشئون الشــعر والأدب ، وإكرام أهلهما(١) . واستمر الأمويون يهتمون بالشعر والأدب داخــل قصــورهم ، يتباين ذلك من خليفة إلى آخر ، حتى وصلت هذه المجالس إلى أعلى مستوى لهــا في الاهتمام والإعداد والثقافة ، وذلك في عهد خلفاء الدولة العباسية ، فقد صادفت هذه المجالس حكاماً من نوع متميز عامر بالعلم ، وافر الثقافــة ، محــبٍ للفــن ، مشغوف بالإبداع ، فتصادفنا شخصيات أدبية راقية من الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد ، فنجد أنفسنا أمام أسماء شــامخة كالرشــيد ، والمــأمون ، والواثــق ، والبرامكة ، وإذا بهؤلاء الحكام يهتمون اهتماماً كبيراً ومتميزاً بمجالسهم الأدبيــة ، يهيئون لها الأماكن التي تليق بها ، بالغة من الرقي والتنظيم والزخرفــة والبــذخ مبلغاً هائلاً ، من ذلك ما رواه الأصمعي عن مجلس الفضل بن يحيــى قــائلاً " .. فلما دخلت عليه إذا هو في بهو له قد فرش بالسمور ، وهو في دست منه ، وعلى ظهره دواج سمور أشهب ، مبطن بخز ، وبين يديه كانون فضــة ، فوقــه أثفيــة ذهب، في وسطها تمثال أسدٍ رابض ، في عينيه ياقوتتان تتوقدان ، وفوق الصينية إبريق زجاج فرعوني ، وكأس كأنها جوهرة محفورة ، تسع رطلاً لا أظنها يفــي بها مالاً كثير ، وهو على سرير من عاج "(٢) . وأعظم من هــذه المجلــس أبهــة وإسرافاً وبذخاً ما رواه ابن المعتز عن مجلس الأمين يقول :

" بُنى للمخلوع مجلس لم تر العرب والعجم مثله ، قد صوِّر فيه كل التصــاوير ، وذهب سقفه وحيطانه وأبوابه ، وعلقت على أبوابه ستور معصفرة مذهبة ، وفرش بمثل ذلك من الفرش ، فلما فرغ من جميع أسبابه ، وعرف ذلك اختار له يومــاً ، وتقدم بأن يؤمر الندماء والشعراء بالحضور غدوة ذلك اليوم ، ليصــطحبوا معــه

---

(١) علي محمد هاشم ، الأندية الأدبية في العصر العباسي في العراق حتى نهاية القرن الثالــث الهجــري ، بيروت ، منشورات دار الأفاق الجديدة ، سنة ١٩٨٧ ، ص ٥٩ .

(٢) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، دار المعارف بمصر ، تحقيق عبد الستار فراج ، ص ٢١٤ .

فيه، فلم يتخلف أحد وكان فيمن حضر أبو نواس ، فدخلوا فرأوا أساً لم يروا مثلــه قط ، ولم يسمعوا به ، من إيوان مشرف فاتح فاسخ يسافر عليه البصر ، وجُعــل كالبيضة بياضاً ثم ذهب بالإبريز المخالف بينه باللازوردي ، ذي أبواب عظــام ، ومصاريع غلاظ ، تتلألأ فيها مسامير الذهب ، وقد قمعــت رؤوســها بــالجوهر النفيس ، قود فرش بفرش كأنها صبغ الدم ، فنقش تصــاوير الــذهب ، وتماثيــل العقيان ، ونُضِّد فيه العنبر الأشهب ، والكافور المصعَّد ، فــأمر فنثــرت علــيهم فانتهبوها ، والشراب يدور عليهم بالكبير والصغير ، من الصــرف والممــزوج ، وليس يمنع أحد منهم مما يريد ، ولا يكره على ما يأباه وكــان جيــد الشــراب ، فصبروا معه إلى أن سكر فنام "(١) .

وإذا كانت كل هذه الزخارف لا تعنينا كثيراً في شكلها ، فإن الــذي يعنينــا اهتمام الحكام بها على هذه الشاكلة ، فلم يكن يعني هذا الاهتمام إلا بما يدور فيهــا من أدب وفن ، فكما اهتم الحكام بهذه الصورة بتجهيز أماكن مجالسهم الأدبية فإنهم اهتموا أكثر بما يدور داخلها من أدب ، وأشرفوا عليه إشراف المتمكن منه ، العالم به ، المشارك فيه ، المتمتع به ، وقد امتلأت كتب ومصــادر الأدب بكثيــر مــن الشعر والنثر الذي تداوله الشعراء والمبدعون في حضرة الحكام في هذه المجالس " كانوا في هذه المجالس يتناولون جد الحياة فيحسون فيه ، فنراهم يروون الشعر ، وينقدون الشعراء ، ويتحدثون بطرائف الحديث وغرائبــه ، ويتنــاولون الخلفــاء والأمراء والوزراء بالمدح وضرب الثناء ، فيخرجون وقد أملأت أيديهم بخيــرات الدنيا ، فإذا خرجوا ذهبوا بما كسبوا من العطاء إلى حيــث ينفقونــه فــي اللهــو واللعب، وفي اللذة والفسوق "(٢) .

وقد كان من الخلفاء مَنْ يجعل يوماً من أيام الأسبوع لاستقبال الشــعراء ، والاستماع إلى أدبهم في مجلسه ، ويجعل محور الحديث برمته للشعر ، فيتبــاري كل شاعر في أن ينال الجائزة الكبرى من الخليفة أو من الــوزير ، كــلٌ يُحَسِّــنُ بضاعته بما يستطيع لها من تحسين ، ويبحث عما يرضي ولي الأمر بكل ما أوتى

---

(١) نفسه : ص ٢٠٩ .

(٢) طه حسين ، حديث الأربعاء ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، جـ ٢ ، ص ٣٤ .

من بيان ، سواء اتَفَقَ ذلك مع مذاهبه وميوله هو أو لم يتفق ، لأنه إنما جاء إلى هذا المكان المعدَّ لذلك من أجل غيره لا من أجله هو " بعث المهدي إلى بشار فقال له : قل في الحب شعراً ولا تطل ، واجعل الحب قاضياً بين المحبين ولا تسَمِّ أحداً ، فقال :

اجْعَل الحُبَّ بَيْنَ حِبِّيْ وبَيَنِي ∴ قاضياً إنَّني به اليَوْمَ رَاضِيْ

فاجْتَمَعْنَا فقُلْتُ يَاحِبَّ نَفْسِيْ ∴ إنَّ عَيْنِي قليْلَة إلا غمَاض

فبعث إليه المهدي: حكمت علينا ووافقنا ذلك ، فأمر له بألف دينار " [1] .

ومن ذلك أن المهدي كان قد أجرى الخيل ، فسبقها فرسٌ له يقال له الغضبان ، فطلب الشعراء ، فلم يحضر إلا أبُودُ لامة فقال له : قلِّد يا زَنْد ، فلم يفهم ، ما أراد، فقلده عمامته ، فقال المهدي : يابن اللخناء أنا أكثر عمائم منك ، إنما أردت أن تقلده شعراً ، ثم قال : يالهفي على العُمَاني ، فلم يتكلم بها حتى أقبل العماني ، فقيل له : ها هو ذا قد أقبل الساعة يا أمير المؤمنين ، فقال : قدموه ، قدموه ، قلد فرسي هذا ، فقال غير متوقف :

قدْ غَضِبَ الغضْبَانُ إذ جَدَّ الغَضَبْ ∴ وَقَامَ يَحْمِي حَسَباً فَوْقَ الحَسَبْ

من إرثِ عَبَّاس بْن عَبْدِ المُطَّلِبْ ∴ وَجَاءَتِ الخَيْلُ بِهِ تَشْكُو التَّعَبْ

لهُ عَلَيْهَا مَا لَكُمْ علَىَ العَرَبْ[2]

ويُعجب الهادي بسيف عمرو بن معد يكرب ، فدعا به بعد ما ولى الخلافة ، ووضعه بين يديه ، وملء مِكْتَل دنانير ، وقال لحاجبه : إئذن للشعراء ، فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا في السيف ، فبدأهم ابن يَامِيْن البَصْريّ فقال :

حَازَ صَمْصَامَةَ الزَّبَيْدِ يِّ عَمْرو ∴ مِنْ جَمِيْع الأنَام مُوْسَى الأمِيْنُ

سَيْفُ عَمْرو وكَانَ فِيْمَا سَمِعْنَا ∴ خَيْرَ ما أغْمِدَتْ عَلَيْه الجُفُونُ

أوْقَدَت فوْقَهُ الصَّوَاعِقُ نَاراً ∴ ثُمَّ شَابَتْ فِيْه الدعَاف المَنُونُ

---

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ – ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهارس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ٣ / ١٠٦٨ .

(٢) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، القاهرة ، نسخة طبعة دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٣٥ ، ٣٢٠/١٨.

وإذا مَا شُــهْرَتُه تَبْهَــرُ الشَّــمْسَ .·. مِــنْ ضِــيَاءٍ فلَــمْ تكَــدْ تســتبينُ
وَكَأنَّ الفرنْــدَ وَالجَــوْهَرَ الجَــار .·. ري فــي صــفْحَتيْن مَــاءٌ مَعِــيْنُ
مَــا يُبــالي إذا الضَّــرِيْبَةَ كانَــتْ .·. أشِــمَالٌ سَــطَتْ بــه أمْ يَمِــيْنُ (١)

حتى وصل الأمر إلى هارون الرشيد وجدنا أكثر من سابقيه اهتمامــاً بــالأدب ، ورعاية له ، وحباً لسماعه وتوجيهاً له " قال الرشيد للمفضل الضبي : أنشدنا بيتــاً أوله أعرابي في شملته ، هب من نومته ، وآخره مدني رقيق غُذِّي بماء العقيق . قال المفضل : هولت على يا أمير المؤمنين ، فليت شــعري بــأي مهــر تفــتض عروس هذا الخدر ؟ قال هارون : هو بيت جميل حيث يقول :

ألا أيُهَــا النُــوَّامُ وَيْحَكُــمْ هُبُّــوْا .·. أسَائِلُكُمْ هَلْ يَقْتُــلُ الرَّجْــلَ الحُــبُّ*

فقال له المفضل : فأخبرني يا أمير المؤمنين عن بيت أوله (أكْثم بن صَيْفِي) في إصابة الرأي ، وآخره (بُقْرَاط) الطبيب في معرفته بالداء والــدواء ، قــال لــه هارون : ما هو ؟ قال : هو بيت الحَسَن بن هَانِي حيث يقول :

دَعْ عَنْكَ لوْمِيْ فإنَّ اللَّوْمَ إغْــرَاءُ .·. وَدَاوِنِيْ بــالَّتِي كَانَــتْ هــي الــدَّاءُ

قال : صدقت " (٢) :

ومن ذلك ما رواه صاحب تاريخ الرسل والملوك قال : " دخل أعرابي في جبة خز ، ورداء يمان ، قد شد وسطه ثم ثناه على عاتقه ، وعمامة قــد عصــبها على خديه وأرخى لها عذبة ، فمثل بين يدي أمير المؤمنين ، وألقيت الكراســي ، فجلس الكسائي والمفضل وابن سلم والفضل بن الربيع ، فقال ابن سلم للأعرابي : خذ في شرف أمير المؤمنين ، فاندفع الأعرابي في شعره ، فقال أمير المــؤمنين : أسمعك مستحسناً ، وأنكرك متهماً عليك فإن يكن هذا الشعر لك وأنت قلتــه مــن

---

(١) المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) ط ٣ ، مطبعة السعادة بمصــر ، ســنة ١٩٥٨ م ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، ٣ / ٣٤٥ .

* جميل بثينة ، ديوان ، بيروت ، دار صادر ، سنة ١٣٨٦ هــ – ١٩٦٦ م ، تقديم / بطــرس البســتاني ، ص ١٦ .

(٢) ابن عبد ربه (عمر جمال الدين يوسف بن عمر) العقد الفريد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٣٦٥ هــ – ١٩٤٦ م ، ضبطه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه أحمد أمين وأحمد الزين وإبــراهيم الإبياري ، ٥ / ٣٢٨ .

نفسك ، فقل لنا في هذين بيتين ، يعني محمداً والمأمون – وهما حفافاه – فقال : يا أمير المؤمنين حملتني على القدر في غير الحذر روعة الخلافة ، وبهر البديهة ، ونفور القوافي عند الروية ، فيمهلني أمير المؤمنين ، يتألف إلى نافراتها ، ويسكن روعي ، قال : قد أمهلتك يا أعرابي وجعلت اعتذارك بدلاً من امتحانك ، فقال : يأمير المؤمنين نَفَسْتَ الخناق ، وسَهَّلتَ ميدان النفاق ، ثم أنشد يقول :

هُمَا طُنُبَاهَا بَارَكَ اللهُ فِيهِمَا .·. وَأَنْتَ أَمِيْرَ المُؤْمِنْين عَمُوْدُهَا

بَنَيْتَ بَعْبْدِ اللهِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ .·. ذُرى قبَّة الإسْلام فاهْتَزَّ عُوْدُهَا

فقال : وأنت يا أعرابي بارك الله فيك ، فسلنا ولا تكن مسألتك دون إحسانك ، قال الهنيدة* يا أمير المؤمنين ، قال : فتبسم أمير المؤمنين وأمر له بمائة ألف دهم وسبع خلع " (١) .

فإذا كنا نرى أن ثقافة هؤلاء الحكام لم تكن دون ثقافة المتخصصين في علوم اللغة والأدب إلا بقدر يسير ، فما بالنا إذا كانت المجالس الأدبية التي ينشد فيها كل شاعر ما جاءت به قريحته أمام الخليفة أو الوزير قد ضمت معهم علماء من أهل اللغة والأدب ، فطبيعيٌّ أن ينعكس ذلك ولابد على الأدب نفسه إتقاناً وتجويداً لاشك في ذلك ، فهذا المجلس الذي ضم الكسائي والفضل وغيرهم ، لابد أن يجعل الشاعر واعياً أشد الوعي لتحسين بضاعته وتجويدها ، لا يقول إلا ما يتفق مع الصحة اللغوية والأدبية والبلاغية ، من أجل ذلك وجدنا الشاعر يطلب من الخليفة ضرورة التروي حتى يمرر ما سيقوله على عقله ولو للحظات ، وفي كثير من الأحيان كان الخليفة يطلب من أحد الشعراء أن يسمعه شعراً بعينه ، كشعر لم يُقلْ فيه ، أو قاله شاعرٌ من الشعراء وأعجب به الحكام ، أو يطلب مطلباً شعرياً بعينه من الشعراء ومن عرفه منهم أجازه ، فعن مروان بن أبي حفصة قال : " قال لي الرشيد يوماً : هل دخلت على الوليد بن يزيد ؟ فقلت : نعم ، دخلت مع عمومتي إليه . قال : فأخبرني عنه ، قال : فذهبت أتزحزح . فقال

---

* الهنيدة للمئة ، المعجم الوسيط ، مادة هَندَ .

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، ط دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ م ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٨ / ٣٦٣ .

لي: إن أمير المؤمنين لا يكره ما تقول ، فقل ما شئت فقلت : يا أمير المؤمنين ، كان من أجمل الناس ، وأشدهم وأشعرهم وأجودهم .. إلخ ، قال لي الرشيد : فهل تحفظ شيئاً من شعره ؟ قلت : نعم سمعته ينشد في خلافته ذكر هشاماً وتحامله عليه :

لَيْتَ هِشَاماً عَاشَ حَتّى يَرَى .:. مِكْتَلَهُ الأوْفَرَ قَدْ أتْرِعَا

كِلْنَا لَهُ الصَّاعَ الَّتِي كَالَهَا .:. وَمَا ظلمْنَاهُ بهَا أصْوَعَا

ومَا أتيْنَا ذَاك عَنْ بدْعَةٍ .:. أحلَّهُ الفُرْقَانُ لِيْ أجْمَعَا

فقال الرشيد : يا غلام ، الدواة والقرطاس ، فأتى بهما ، فأمر بالأبيات فكتبت"(١) .

ومن ذلك ما يروى " عن كوثر خادم المخلوع – أي الأمين – أن محمداً أرق ذات ليلة ، وهو في حربه مع طاهر ، فطلب من يسامره فلم يقرب إليه أحدٍ من حاشيته، فدعا حاجبه فقال : ويلك ! قد خطرت بقلبي خطرات فأحضرني شاعراً ظريفاً أقطع به بقية ليلتي . فأتاه بأبي نواس ، فقال الأمين له : إنه عرضت بقلبي أمثال أحببت أن تجعلها في شعر ، فإن فعلت ذلك أجزت حكمك فيما تطلب ، فقال : وما هي يا أمير المؤمنين ؟ قال : قولهم : عفا الله عما سلف ، وبئس والله ما جرى فرسي ، واكسري عوداً على أنفك ، وتمنعي أشهى لك . قال حكمي أربع وصائف مقدودات ، فأمر بإحضارهن ، فقال :

فقدْتِ طُولَ اعتِلالِكْ .:. ومَا أرَى فِي مِطَالِكْ

لقَدْ أرَدْتِ جَفَائي .:. وَقَد أردتُ وِصَالَكْ

مَاذا أرَدتِ بهذا .:. تَمَنَّعِي أشْهَى لكْ

وأخذ بيد وصيفة فعزلها ، ثم قال :

قدْ صَحَّتِ الأيْمَانُ مِن حَلْفِكِ .:. وصِحَتُ حتَى متُّ مِن خلفِكِ

باللهِ يا ستّى احنثي مَرَّةً .:. ثم اكْسِري عُوْداً على أنفِكِ

ثم عزل الثانية ، ثم قال :

---

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ – ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهارس بإشراف وتحقيق : إبراهيم الأبياري ، ٣٥٤٥/١٠ .

فديْتُكِ مَاذا الصَّلفْ .:. وشَتمُكَ أهلَ الشَّرَفْ !
صِلي عَاشِقاً مُدنفاً .:. قد اعتِب مِمَّا اقتَرَفْ
ولا تذْكُري مَا مضَى .:. عَفَا الله عمَّا سَلف

ثم عزل الثانية ، فقال :

وَبَاعِثَاتِ إلىَّ في الغَلَسَ .:. أن ائتِنَا واحتَرسْ من العسسَ
حتى إذا نُوَّم العُداةُ ولَمْ .:. أخْشَ رَقِيباً وَلا سَنَا قبس
ركبتُ مَهْري وقد طربْتُ إلي .:. حُور حِسَان نواعِم لعس
فجئتُ والصُّبْح قدْ نُهَضتُ له .:. فبئسَ واللهِ ما جَرَى فرِسِي

فقال له : خذهن لا بارك الله لك فيهن " (١) .

وقد كان المأمون عالم هذه الدولة ، لم يقتصر في تبحره على علم واحد ، وإنما كان موسوعة علمية أدبية فقهية بلاغية ، لم ينقصه عن مرتبة العلماء شيء ، زين مجلسه بالعلماء والأدباء ، ومسامراته بالشعر ومجالسه كل مجي العلم ، ولم يكن مجلسه الأدبي إلا سوقاً كبيرة يروج فيها الشعر ، " قال اليزيدي : قال المأمون يوماً في مجلس وعنده جماعة من قريش : أيكم يحفظ أبيات عبد الله بن الزبعري التي يعتذر فيها إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقال مصعب بن عبد الله الزبيري : أنا يا أمير المؤمنين ، قال فأنشدنا ، فأنشد :

مَنَعَ الرُّقاد بَلابَلٌ وهُمُومُ .:. واللَّيْلُ مُعْتَلِجُ الرِّوَاق بَهِيْمُ
مِمَّا أتَانِي أنَّ أحْمَدَ لامَنِي .:. فِيْهِ فبِتُّ كَأنِّني مَحْمُومُ
يا خَيْرَ مَنْ حمَلتْ عَلَى أوْصَالِهَا .:. عَيْرَانَة سَرْحُ اليَدَيْن رسُومُ

إلى آخر القصيدة ، فأمر المأمون لمصعب بثلاثين ألف درهم وقال : ليكن القُرَشِيُّ مثلك" (٢) .

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٨ / ٥٢٠ .

(٢) ابن طيفور (أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر) ، كتاب بغداد ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، نشر عزت العطار الحسيني ، تحقيق محمد زاهد الكوثري ، ص ٥٣ .

" قال محمد بن الجَهْم : دعاني المأمون فقال : أنشدني بيت مـــدح نـــادر ، فأنشدته :

يجُودُ بالنَّفْس إذ ضَنَّ الجَوَادُ بهـــا ⁖ وَالجُوْدُ بالنَّفْس أقصَى غايَة الجُـــوْدِ

فقال : وليتك هَمَدَان ، فأنشدني بيت هجاء نادراً فأنشدته :

قُبِحَتْ مَنَا ظِـــرُهُ فحِـــيْنَ خَبَرْتُـــهُ ⁖ حَسُـــنَتْ مَنَـــاظِرُهُ لِقُـــبْح المَخْبَـــر

فقال : قد وليتك الدِّيْنَوَرَ ، فأنشدني بيت مرثية نادراً فأنشدته :

أرَادُوْا لِيُخْفُوْا قَبْـــرَهُ عَـــنْ عَـــدُوِّهِ ⁖ فطِيبُ تُرَابِ القبرْ دلّ علـــى القبـــرْ

فقال : قد وليتك نَهَاوَنْد ، فأنشدني بيت غزلٍ فأنشدته :

حِـــبٌ مُجِـــدَّ وَحَبَيْـــبٌ يَلْعَـــبُ ⁖ وَالقلْـــبُ مَـــا بيْنَهُمَـــا يَـــذهَبُ"[1]

وكان لبعض الشعراء مواعيد محددة يذهبون فيها إلى قصر الحاكم من أجل إنشاد الشعر ، سواء أنشدوا أم لم ينشدوا ، فحسين بن الضحاك يقول " كانت لي نوبة في دار الواثق أحضرها جلس أو لم يجلس "[2] .

– أما عن الموضوعات التي كانت موضح اهتمام الشعراء ، فقد كان المدح أولها بطبيعة الحال على في المجلس مادحاً وممدوحاً ، ولكن المدح لم يستول على هـــذه الجلسات بمفرده ، وإنما وُجدِ غيره من أغراض الشعر ، من رثاء ، أو غـــزل أو هجاء إلى غير ذلك من الفنون .

ولم يكن لشخصية الحاكم – خليفة كان أو غير خليفة – دوره الهام في توجيه هذه المجالس الوجهة الصحيحة فقط ، بل كـــان يغـــوص فـــي مواضـــيع الســـاعة ، واهتمامات المثقفين ، ويبقى الرشيد وولده المأمون منارتين مشـــعتين فـــي هـــذا المجال.

– ولم تقتصر هذه المجالس على الخلفاء فقط ، وإنما شاركهم فيها الوزراء وكبار القادة ، ولا يزال التاريخ يسرد لنا الحكايات الطويلة عن مجالس البرامكـــة ومـــا قدمته من خدمات لا تنكر للعلم والأدب ، وفي شهرة مجالسهم عوضٌ عـــن ذكـــر

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعه درا الفكر العربي ، ٦ / ٧٤ .

(٢) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة (١٣٨٩ – ١٩٦٩ م) طبعة كاملة معها فهارس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، ٧ / ٢٦٠١ .

شيء منها ، فقد كانوا حركة أدبية تستحق الدراسة والبحث إن لم تكن قد درست بالفعل .

- وكان لكثير من كبار القادة مجالس أدبية ، ويرعون الشعراء ، من ذلك ما يرويه أحمد بن يوسف عن أحد الأدباء حين ذهب إلى (أبي دُلف) ينشده الشعر ، فإذا بعض من حضر ينكر على أبي دلف اهتمامه به وحد به عليه فقال له أبو دلف: " إنه أديب ، وإنه شاعر " (١)

قدمت إذن هذه المجالس التي كان الحكام من بني العباس يرعونها أيادي سخية للأدب والشعر ، وساعدت في تطويره وتشجيعه ، ووجهته ، وتركت فيه أثراً بيناً، لن نكون مبالغين حين نعترف لهم بالفضل على الأدب وعلى الأدباء ، بل إن ذلك حقهم ، ولنا أن نتخيل مجتمعاً كهذا ، قد لا يمر يومٌ إلا وتعقد جلسة أدبية لخليفة أو لوزير ، فإن لم تكن لوزير فلقائد أو قريب من القصر العباسي ، وكأني بهذا المجتمع الحاكم انشغل بالأدب بشكل كبير حتى جعل له الكثير من الوقت ، والكثير من الاهتمام ، والكثير من الجهد.

وتستطيع أن ترجع شيئاً كثيراً من الدور لحكام بني العباس في هذا الكم الهائل من الشعر والأدب ، الذي أنشده الشعراء داخل قصور الحكام ، ومن الملاحظات التي يجب عدم إغفالها أن الجزء الأكبر من الشعراء ذوي المواهب المتميزة في هذا العصر كان معظم شعرهم يدور في فلك خليفة أو وزير أو أمير ، وقد اشتهرت مجموعة من الشعراء بالدعوة العباسية كأبي ذُلامة ، ومَرْوان بن أبي حفصَة ، وسلم الخَاسر ، ومجموعة أخرى بالوزراء والولاة والقواد كأبي الشيْص ، وعبد الله بن أيوب التَيْمِي ، وعَلِي بن جبلة العَكَوَّك ، والخريمي ، هذا بجانب أعلام الشعراء ودورانهم في فلك الحكام كبشار، وأبي نواس ، وأبي العتاهية ، ومسلم بن الوليد ، وأبي تمام ، وابتعد كثيرٌ من الشعراء عن الشهرة ، مثل نُصَيب الأصغر ، وأبي شُرَاعة ، وأبي الأسَد وغيرهم ، وهم من شعراء هذا العصر ، ولم يكن السبب المباشر لعدم شهرتهم إلا ابتعادهم عن الدوران في فلك الحكام .

---

(١) أبن طبفور (أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر) ، كتاب بغداد ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، نشر عزت العطار الحسين ، تحقيق / محمد زاهد الكوثري ، ص ١٣٢ .

ب- نقدهم للشعر والشعراء :

لم تكن هذه الثقافة العالية التي عرفت بها شخصيات الخلفاء والوزراء والقواد في دولة بني العباس سلبية تجاه مسيرة الأدب وألسنة الأدباء ، وإنما وجدناه تترك أثاراً واضحة ملموسة في الحركة الأدبية في هذا العصر .

فلم تكن القصائد التي يمدحون بها أو يسمعونها تمر عليهم مروراً عابراً كما تمر على عامة الناس ، ولكنها كانت تجد آذاناً نقدية تقدر البيان الرفيع المكتمل للنواحي الفنية ، بالرضى والقبول والعطاء بغير حساب ، وفي نفس الوقت كانت تقف أمام الأخطاء الشكلية والمعنوية موقف الناقد البصير ، الذي يقوِّم من الأدب ما يحتاج إلى تقويم ، وينقد منه ما يحتاج إلى نقد ، وإن كان الدرس الموضوعي يقتضينا أن نعترف أن الحكام كان لهم ذوقهم الخاص الذي أملي عليهم قبول معان معينة ، ورفض معان أخرى ، فقد كان الشعر الذي ينشد للخلفاء على ضربين ، فمنه ما يصل بمدحهم أو مدح غيرهم ، وفي هذا يهتم السامع بالمعاني وموازنتها بما قيل في غيره ، أما إِذا كانت الأغراض الأخرى من وصفٍ أو غزلٍ أو هجاء أو رثاءٍ أو حكمةٍ أو فضيلة ، فإن النظر النقدي الفني للنص باعتباره شعراً هو الغالب على ذوق الخلفاء وغيرهم ، فقد كانوا طلاب معان جيدة في مبان فنية ، وقد يكون في بعض الأحيان نقدهم غير متعلق بالجودة الفنية بقدر ما هو متعلق بالمعاني التي يعبر عنها الأدب ، فنحن أمام نقد فني يتدخل في صياغة الأدب صياغة فنية ترضى الناقد المتمرس ، الفاهم الفطن لما يجب أن يكون عليه الأدب العالي الجودة ، أو في بعض الأحيان نجده نقداً يتعلق بأذواق الحكام أنفسهم، وما يطلبونه لجلالة الخلافة من المعاني ، أو معاني قيلت في غيرهم يتمنونها لأنفسهم ، أو ينتقدون معاني كان لها مساس بالدين ، قالها الشعراء تزلفاً للحكام ، ظناً منهم أنهم يطلبون الرضا بالخوض في الحرام ، وفيما يغضب ربهم ، وفي بعض الأحيان كان لهم نقدٌ لغويٌّ يتعلق بالأخطاء النحوية واللغوية الواضحة ، والتي يمكن لأي مثقف نقدها ، وفي كل الأحوال قد كان لهذا النقد دوره في توجيه الأدب ، وتقويمه ، وجودة صياغته ، وكان له انعكاساته على الأدباء والمثقفين والفنانين بشكل أو بآخر .

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن الخلفاء كانوا يغارون أشد الغيرة من شعر جيد قيل في غيرهم ، يعاتبون الشعراء عليه ، بل ويوبخونهم ، وقد تصل المسألة إلى أكثر من ذلك خاصة إذا كان المدح قد أصاب عظمة الخليفة بطريقة غير مباشرة لم يقصدها الشاعر في كثير من الأحيان .

١- النقد الفني :

فإذا نظرنا إلى نقد الحكام الفني ، الذي يتعلق بجودة الصياغة ، الرونق الفني العالي؛ وجدنا المأمون – خاصة – يمتلك حاسة فنية عالية ، فهذا على بن جَبَلَهُ يقول " قلت (لحُمَيدْ بن عبد الحميد الطُوْسِي) : يا أبا غانم ، إني قد مدحت أمير المؤمنين بمدح لا يحسن مثله أحدٌ من أهل الأرض ، فاذكرني له : قال : فأنشدني ، فأنشدته قال : أشهد أنك صادق ، ما يحسن أحدٌ أن يقول هكذا ، وأخذ المديح فأدخله إلى المأمون ، فقال له : يا حُمَيْد ، الجواب في هذا واضح ، إن شاء عفونا عنه وجعلنا ذلك ثواباً لمديحه ، وإن شاء جمعنا بين شعره فيك وفي أبي دلف ، وبين شعره فينا ، فإن كان الذي قاله فيكما أجود ، ضربنا ظهره واطلنا حبسه ، وإن كان الذي فينا أجود ، أعطيناه لكل بيتٍ ألف درهم ، وإن شاء أقلناه ؛ فقلت له: يا سيدي ، ومن أنا ، ومن أبو دلف حتى يمدحنا بأجود من مديحك : فقال: ليس هذا الكلام من الجواب في شيء ، فأعرض ما قلت لك على الرجل ؛ فقال : أفعل ، قال عَلِى بن جَبَلَة : فقال لي حُمَيْد : ما ترى ؟ فقلت الإقالة أحب إليَّ ؛ فأخبر المأمون بذلك ؛ فقال : هو أعلم "(١) .

فالمأمون والشاعر في هذا الخبر اشتركا في مراعاة الجودة الفنية في الشعر الذي قيل في القائدين حُمَيْد بن عبد الحميد وأبي دُلف ، وعلماً معاً أنه أقوى وأمتن من الشعر الذي قيل في الخليفة ، وهذا المأمون أيضاً " دخل عليه أبو العتاهية فأنشده :

مَا أحْسَنَ الدُّنْيَا وَإقبَالَهَا ∴ إذا أطَاعَ اللهَ مَنْ نالهَا
مَنْ لَمْ يُوَاس النَّاس مِنْ فضْلِهَا ∴ عَرَّضَ للإدْبَار إقبَالَهَا

---

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ – ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهارس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، ٢٢/ ٧٦٥٣ .

فقال له المأمون : ما أجود البيت الأول ، فأما الثاني فما صنعت فيه شيئاً ، الــدنيا تدبر عمن واسي منها أو ضَن بها ، وإنما يوجب السماحة بها الأجر ، والضن بها الوزر ، فقال : صدقت يا أمير المؤمنين ، أهل الفضل أولــى بالفضــل ، وأهــل النقص أولى بالنقص ، فقال المأمون : ادفع له عشرة آلاف درهم لاعترافه بالحق، فلما كان بعد أيام عاد فأنشده :

كَـــمْ غَافِـــلٍ أودى بـــهِ المَـــوْتُ ∴ لَـــمْ يَأْخُـــذِ الأهْبَـــة لِلفَـــوْتِ
مَـــنْ لَـــمْ تَـــزُلْ نِعْمَتُـــهُ قبْلَـــهُ ∴ زَال عَـــن النِّعْمَـــةِ بِـــالمَوْتِ

فقال له : أحسنت " (١) . فالمأمون يستحسن صياغة أحد البيتين وينتقد الآخر نقــداً فيناً يتعلق بالمعنى وإحكامه ، ثم إذا تمكن الشاعر من أدواته بعد ذلك أثنى علــى شعره ووصله ، ومما يروى: " أن (الحُسَين بن مُطِيرْ) وفد علــى (مَعْــن بــن زائِدَة)، لما ولي اليمن وقد مدحه ، فلما دخل عليه أنشده :

أتَيْتُكَ إذْ لَمْ يَبْــقَ غَيْــرَكَ جَــابِرٌ ∴ ولاَ وَاهِبٌ يُعْطِي اللَّهَا والــرَّ غائِبَــا

فقال له معن : يا أخابني أسد ليس هذا بمدح ، إنما المدح قول نهار بن توسعه*(٢). أخي بني تميم بن ثعلبة ، مِسْمَع بن مالك :

قَلَّــدَ تْــهُ عُــرَى الأمُــوْر نَــزَارٌ ∴ قبْلَ أنْ يَهْلَكَ الســرَاةُ البُحُــورُ" (٣)

فقد يكون النقد متمثلاً في الإحساس بالصياغة الفنية العالية ، وجودة الفن ، فلم يكون اعتراف الخليفة أو الحاكم بجودة سبك الشعر ، إلا صورة مــن صــور النقد ، تتمثل في الاعتراف بفنيته وجودته .

---

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ – ١٩٦٩ م ، طبعــة كاملة معها فهارس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، ٤ / ١٢٦٧ .

(٢) * نهار بن توسعة بن أبي عتبان ، من بني بكر بن وائل . شاعر بكر في خراسان ، كان هجــاء هجــا قتيبة بن مسلم ، فطلبه ، فهرب واستجار بأم قتيبة فترضت له ابنها فرضى عنه وأكرمه ، له أبيات في رثــاء المهلب بن أبي صفرة المتوفي ٨٣ هــ ، قال الآمدى : له (ديوان) مفرد ، وهو كثير الجيد وكــان أبوــوه توسعه من شعراء بكر بن وائل أيضاً . ينظر : خير الدين الزركلي ، الإعلام ، ط ١٠ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٩٢ . ٤٩/٨.

(٣) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ – ١٣٦٩ م ، طبعــة كاملة معها فهارس فإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، ١٦ / ٥٧٨٠ .

" فأحمد بن يوسف الكاتب يقول : كنت أنا وعبد الله بن طاهر عند المأمون ، وهو مستلق على قفاه ، فقال لعبد الله بن طاهر : يا أبا العباس ، من أشعر الناس في خلافة بني هاشم ؟ فقال : أمير المؤمنين أعلى عيناً وأعرف بهذا ؛ فقال : على ذاك فقل ، وتكلم أنت أيضاً يا أحمد بن يوسف ؟ فقال عبد الله بن طاهر : أشعرهم الذي يقول :

وَيَاقبْرَ مَعْن كُنْتَ أوَّلَ حُفْرَةٍ ∴ مِنَ الأرْض خُطت للسَمَاحَةِ مَوْضِعَا

قال : قلت بل أشعرهم الذي يقول :

أشْبَهْتُ أعْدَائِيْ فصبْرتُ أحِبْهُمْ ∴ إذْ كَانَ حَظِّيْ مِنْكَ حَظِّيْ مِنهُمُ

فقال المأمون : يا أحمد ، أبيت إلا غزلا ، أين أنتم عن الذي يقول :

يَا شَقِيْقَ النَّفْس مِنْ حَكَم ∴ نِمْتَ عَنْ لَيْلى وَلَمْ أنَم

فقلنا : صدقت يا أمير المؤمنين " (١) .

فالمأمون لا يفضل إلا ما أحكمت صياغته وحسنت ديباجته وقوى نظامه .

ومن ذلك – أيضاً – أن الحسن بن رجاء لما امتدحه أبو تمام بقصيدته التي يقول فيها :

لا تُنكِريْ عَطلَ الكَريْم مِن الغِنَى ∴ فالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَان العَالِيْ

قام الحسن بن رجاء علي رجليه ، وقال : والله لا أتممتَها إلا وأنا قائم(٢) .

فكما كانوا ينقدون ركيك الشعر ويلاحظون الضعف الفني فيه ، فقد كانوا أيضاً وفي المقابل يعرفون جيده ومحكمه ، ويتمتعون به ، ويقدرونه حق قدره .

٢- نقد المعاني :

كما كانوا ينقدون جيد النظم من رديئه ، فقد كانوا ينقدون المعاني التي يرون فيها ضعفاً معنوياً لا يستوي وأذواقهم الفنية الخاصة " دخل بن هرمة على

---

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ – ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهارس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، ٣ / ٩٨٧٣ .

(٢) نفسه : ١٧ / ٦٢٤١ .

المنصور وقال : يا أمير المؤمنين ، إني قد مدحتك مديحاً لم يمدح أحد أحداً بمثله ؛ قال : وما عسى أن تقول فيَّ بعد قول كَعْبٍ الأشْقَريِّ *[١] في المُهَلَّب :

بَــراكَ اللهُ حِــيْنَ بَــرَاك بَحْــراً ⁖ وَفجَّــرَ مِنْــكَ أنْهَــاراً غِــزَاراً

فقال له : قد قلت أحسن من هذا ؛ قال : هات ، فأنشده قوله :

لهُ لحَظَــاتٌ عَــنْ حِفَــافيْ سَــرِيْره ⁖ إذَا كَرَّهَــا فِيهَــا عِقَــابٌ وَنَائِــلُ

قال : فأمر له بأربعة آلاف درهم . فقال له المهدي : يا أمير المؤمنين ، قد تكلف في سفره إليك نحوها ؛ فقال له المنصور : يا بني ، إني قد وهبت له ما هو أعظم من ذلك ، وهبت له نفسه ، أليس هو القائل لعبد الواحد بن سليمان :

إذا قِيــلَ مَــنْ خَيْــرُ مَــنْ يُرتَجَــيَ ⁖ لِمُعْتَــرٍّ فِهْــر وَمُحتَاجِهَــا

وَمَنْ يُعْجِــلُ الخَيْــلَ يَــوْمَ الــوَغَى ⁖ بِالجَامِهَــا قبْــلَ اسْــرَاجِها

أشَــارَتْ نِسَــاءُ بِنِــيْ غَالــبٍ ⁖ إلَيْــكَ بــهِ قبْــلَ أزْوَاجِهَــا"[٢]

ويظهر أن المنصور لم ير في أبيات بن هرمة ما يناسبه من المدح ، وفضل عليها قوله في عبد الواحد بن سليمان ، ويُفهم من ذلك أن له ذوقه الخاص الذي يجعله يقبل معاني ويرفض آخر ، وقد كانت هذه عند معظم خلفاء بني العباس إن لم يكونوا جميعاً مشتركين فيها .

فقد " ذكر عن عَمَارَةُ بن عَقِيل*[٣] ، أنه قال : قال لي (عَبْد الله بن أبي السّمْط) :

---

(١) * كعب بن معدان الأشقري ، أبو مالك . فارس ، شاعر ، خطيب من شعراء خراسان ، كان معدوداً في جلة أصحاب المهلب بن أبي صفرة ، المذكورين في حروب الأزارقة . وهو من (الأشاقر) من قبائل الأرزد، له خبر مع (الحجاج) أورده القالي في (الآمالي) وقد سأله الحجاج : أشاعر أنت أم خطيب؟ فقال كلاهما وله قصيدة طويلة يذكر بها يوم (رامهرمز) وغيره توفى ٨٠ هـ ، رواها الطبري . ينظر : خير الدين الزركلي ، الإعلام ، ط ١٠ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٩٢ . ٢٢٩/٥.

(٢) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ – ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهارس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، ٢١٩١/٥ .

(٣) * عمارة بن عقيل ، ١٨٢ – ٢٣٩ هـ / ٧٩٨ – ٨٥٣ م . بن بلال بن جرير بن عطية بن الخطفي الكلبي اليربوعي التميمي . شاعر مقدم ن فصيح من أهل اليمامة ، كان يسكن بادية البصرة ويزور الخلفاء

علمت أن المأمون لا يبصر الشعر ، قال : قلت : ومن ذا يكون أعلم منه ! فوالله إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا إلى آخره ، قال : أنشدته بيتاً أجدت فيه فلم أره تحرك له ، قال : قلت : وما الذي أنشدته ؟ قال أنشدته :

اضْحَى إمَامُ الهُدى المَأمُوْن مُشتْغِلا ⁂ بالدِّيْن وَالنَّاسُ بالدُّنيا مشَاغيْلُ

قال : قلت له : إنك والله ما صنعت شيئاً ، هل زدت على أن جعلته عجوزاً في محرابها ، في يدها سبحتها ! فمن القائم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها ، وهو المطوق بها ! هلا قلت فيه كما قال عمك جرير في عبد العزيز بن الوليد :

فلا هُوَ في الدُّنْيَا مَضِيْعٌ نصيبهُ ⁂ وَلاَ عَرَضُ الدُّنْيَا عَن الدِّين شَاغِلُهْ

فقال : الآن علمت أني قد أخطأت " [(١)] .

فذوق المأمون لفظ هذا المدح ، لأنه ذوق من لا يصفق لكل شاعر ، أو لأي المعاني ، ولكنه يمتلك ذوقاً يجب أن يتوافق معه القول ، وإلا لم يجد القبول ، ولم يلق الاستحسان ، وعلى كل شاعر أن يبحث عن ذوق ممدوحه قبل أن يدخل عليه بشعر لا يرضاه ، بل قد يعاقبه عليه أشد العقاب .

ولم يكن الخلفاء يقبلون أن يمدح الوزراء والقواد مدحاً جيداً يفوق ما يمدحونه به أو يعادله ، فقد " خرج المهدي يوماً ، فلقيه الحُسَيْنُ بْنُ مَطِيْر [*(٢)] ، فأنشده قوله :

أضْحَتْ يَمِيْنُكَ مِنْ جُودٍ مُصَوَّرَةَ ⁂ لا بَلْ يَمِيْنُك مِنْهَا صُوِّرَ الجُودُ

فقال : كذبت يا فاسق ، وهل تركت من شعرك موضعاً لأحد ، بعد قولك في معن :

من بني العباس فيجزلون صلته وبقى إلى أيام الواثق ، وعمى قبل موته ، وهو من أحفاد جرير الشاعر ،= =وكان النحويون في البصرة يأخذون اللغة عنه ، توفي ٢٣٩ هـ . ينظر : خير الدين الزركلي ، الإعلام ، ط ١٠ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٩٢ . ٣٧/٥.

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، ط دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ م ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٨ / ٦٦٣ .

(٢)* الحسين بن مطير الأسدي ، ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م . الحسين بن مطير بن مكمل الأسدي شاعر متقدم في القيد والرجز ، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية له أماديح في رجالهما وكان زيه وكلامه كزي أهل البادية وكلامهم ت ١٦٩ هـ . ينظر : خير الدين الزركلي ، الإعلام ، ط ١٠ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٩٢ . ٢٦٠/٢.

أَلِمَّـــا بِمَعْـــنِ ثُـــمَّ قُـــولا لِقَبْـــرِهِ .:. سَقَتْكَ الغَوَادِي مَرْبَعاً ثُـــمّ مَرْبَعَـــا

أخرجوه عني ، فأخرجوه " [١].

فالخليفة ينتقد فيه هذه الإشادة بمعن بن زائدة ، ولا يقبل أن يمدح قائد بأقوى مما يمدح به الخليفة ، وقد ذكر الأصمعي قال : " بعث إليَّ الرشيد في وقت لم يكن من عادته أن يستد عيني في وقت مثله ، فلما ذهبت قال لي :

ألا ترى الدعيَّ بن الدعيِّ ، اليهودي بن اليهودي ، عبد بني حنيفة ، مروان بن أبي حفصة يقول لمعن بن زائدة ، وإنما هو عبد من عبيدنا :

أَقَمْنَـــا بِالمَدِيْنَـــةِ إذْ يَئِسْـــنَا .:. مُقَامـــاً لا نُرِيْـــدُ بِـــهِ زَوَلا

وَقُلْنَـــا أَيْـــنَ نَـــذْهَبُ بَعْـــدَ مَعْـــنٍ .:. وَقَـــدْ ذَهَـــبَ النَّـــوَالُ فَـــلا نَـــوَالا

وَكَـــانَ النَّـــاسُ كُلُّهُـــمُ لِمعْـــنٍ .:. إلـــىَ أَنْ زارَ حُفْرَتَـــهُ عِيَـــالاَ

فقال : إن النوال قد ذهب مع بقائنا ، فكيف يصنع بنا ، ولم يرض حتى جعلني وخاصتي عيالاً لمعن ، والله لأفعلن ولأصنعن ، فقلت : يا أمير المؤمنين عبد من عبيدك ، وأنت أولى بأدبه والعفو عنه ، فقال : علي بمروان بن أبي حفصة ! فأدخل عليه ، فقال للسياط : فأخذ الخدم يضربونه " [٢] .

ولم تكن هذه الغيرة خاصة بالمهدي والرشيد ، وإنما عمت كل الخلفاء تقريباً ، يقفون وقفة شرسة في وجه كل شاعر يمدح قائداً مدحاً يفوق مدح الخليفة، أو يحتوي على تعميم يلمزه بصورة ما :

" ولما بلغ المأمون قولُ على بن جبلة لأبي دلف :

كُلُّ مَـــنْ فِـــي الأرْض مِـــنْ عَـــرَبٍ .:. بَـــيْنَ بَادِيْـــهِ إلـــى حضـــرَه

مُسْـــتَعِيرٌ مِنْـــكَ مَكْرُمَـــةً .:. يَكْتَسِـــيْها يَـــوْمَ مُفْتَخَـــره

غضب من ذلك ، وقال : اطلبوه حيث كان ، فلما صار إليه ، قال له : يابن اللحناء! أنت القائل في القاسم بن عيسى :

---

(١) أبو الفرج بن علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ – ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهارس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، ١٦ / ٥٧٨٥ .

(٢) ابن وادوران ، تاريخ العباسين ، ط ١ ، بيروت ، طبعة دار الغرب الإسلامي ، سنة ١٩٨٨ م ، ١٤٠٨ هـ ، تحقيق المنجي الكعبي ، ص ١٣٦ .

كُلُ مَــنْ فِــي الأرض مِــنْ عَــرَبٍ ∴ بَــــيْنَ بَادْيَــــهِ إِلـــى حَضَـــره
مُسْـــــتَعِيْرٌ مِنْــــكَ مَكْرُمَـــــة ∴ يَكْتَسِـــيْهَا يَـــوْمَ مُفْتَخَـــرهْ

جعلتنا ممن يستعير المكارم منه ! قال له : يأمير المؤمنين ، أنتم أهل بيت لا يقاس بكم أحد ، لأن الله فضلكم على خلقه ، فغضب وقال : سلوا لســانه مــن قفاه"(١).

وعلى هذه الصورة ، لم يكن هذا النقد متعلقاً بالجودة الفنية ، بقدر ما كانت صلته بالمعاني التي يتداولها الشعراء في أشعارهم ، فقد كانت تستقر معانيها أذواق الخلفاء أحياناً ، وتصطدم بها ، فيعاقب الشاعر على الفور ، وكان لهـذا دوره ولا شك في سهر الشعراء لمعرفة أذواق الحاكم وخاصة الخلفاء كما سنوضح ذلك فيما بعد .

٣- النقد الديني :

وفي بعض الأحيان كان رفض الخلفاء للشعر مصدره المساس بالدين ، فإذا شعر الخليفة أن الشاعر خرج عن السلوك الديني المناسب ، كان له بالمرصـــاد ، ناقداً بصيراً ، لا يرضي أن يسمع منه ، أو يصغى إليه ، بل يهينه أمام الحاضرين ، ويوبخه أشد توبيخ ، ويحرمه الصلة ويطرده من مجلسه .

" كان هارون الرشيد أمير المؤمنين يحتمل أن يمدح بما تمدح به الأنبياء فلا ينكر ذلك ولا يرده ، حتى دخل عليه نفر من الشعراء فيهم رجل من ولد (زُهيْــر بــن أبي سُلْمَى) ، فأفرط في مدحه حتى قال فيه :

فَكَأنَّـــهُ بَعْـــدَ الرَّسُـــوْلِ رَسُـــوْلُ

فغضب هارون ولم ينتفع به أحد يومئذٍ وحرم ذلك الشاعر فلم يعطه شيئاً ، وأنشــد مَنْصُوْرٌ النَمِريُّ قصيدة مدحه بها ، وهجا آل على ، وثلبهم ، فضجر هارون وقال له : يا ابن اللخناء ، أتظن أنك تتقرب إليَّ بهجاء قوم أبوهم أبي ونسبهم نســبي ، وأصلهم وفرعهم أصلي وفرعي ؟ ! فقال : وما شهدنا إلا بمــا علمنــا . فــازداد

---

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب سنة ١٣٨٩ – ١٩٦٩ ، طبعة كاملة معها فهارس بإشراف وتحقيق / تحقيق إبراهيم الإبياري ٢٢ / ٧٦٧٤ بتصرف يسير .

غضباً وأمر مسروراً الخادم ، فوجأ في عنقه ، وأخرج ، ثم وصل إليه يوماً آخر بعد ذلك فأنشده :

بَنِى حَسَنٍ وَرَهْطُ بَنِي حُسَيْنٍ ∴ عَلَيْكُمْ بالسّدَادِ مِنَ الأمُوْرْ
فقدْ ذُقْتُمْ قِرَاعَ بَنِيْ أبيْكُمْ ∴ غَدَاةَ الرَّوْعِ البِيْض الذُكُوْرْ
أحِيْنَ شَفوْكُمُ مِنْ كُلِّ وتْر ∴ وَضَمُّوكُمْ إلى كَنَفٍ وَثِيرْ
وَجَادُوكُمْ عَلَى ظمَأٍ شَدِيْدٍ ∴ سُقِيْتُمْ مِنْ نَوَالِهِمِ الغَزِيرْ

فقال له : صدقت ، وإلا فعليَّ وعليَّ " [١] .

فلم يرض الرشيد أن يمدحه الشاعر بتشبيهه برسول – صلى الله عليه وسلم – وغضب غضباً شديداً من ذلك ، ولم يكن دافع ذلك إلا الغيرة على الدين ، وعدم الموافقة على تجاوزات الشعراء في هذا الجانب ، بل رفض المساس بآل بيت رسول (صلى الله عليه وسلم) ، حرصاً منه على حرمة الدين ، وعدم السماح بالخوض فيه ، وأوضح من ذلك ما رواه الإمام الطبري عن المأمون " ذكر أبو حشيشة محمد بن علي بن أمية بن عمرو قال كنا قَدَّام أمير المؤمنين المأمون بدمشق ، فغنى عَلَّوَيْه :

بَرِئتُ مِنَ الإسْلَامِ إنْ كَانَ ذَا الَّذِيْ ∴ أتَاكِ بِه الوَاشُوْنَ عَنِّي كَمَا قَالُوْا

فقال : يا علويه ، لمن هذا الشعر ؟ فقال : للقاضي ، قال : أي قاض ويحك ؟ قال : قاضي دمشق ، فقال : يا أبا إسحق ، أعزله ، قال : قد عزلته ، قال : فيُحضَر الساعة ، قال فأحضِر شيخٌ مخضوبٌ قصيرٌ ، فقال له المأمون : من تكون ، قال : فلان الفلاني قال : تقول الشعر ؟ قال : قد كنت أقوله ، فقال : يا علويه ، أنشده الشعر فأنشده فقال : هذا الشعر لك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ونساؤه طوالق ، وكل ما يملك في سبيل الله ، إن كان قد قال الشعر منذ ثلاثين سنة ، إلا في زهدٍ أو معاتبة صديق ، فقال : يا أبا إسحق ، أعزله ، فما كنت أولى رقاب المسلمين من يبدأ في هزله بالبراءة من الإسلام ، ثم قال : يا علويه لا تقل برئت من الإسلام ولكن قل :

---

(١) نفسه : ١٣ / ٤٦٥٦ .

حُرِمْتُ مُنَايَ مِنْــكِ إِنْ كَــانَ الَّــذِي .·. أَتَاكِ بِهِ الوَاشُونْ عني كما قالُوا"[1]

فقد اصطدم على الفور كلام الشاعر بالبراءة من الإســلام مــن نفســية الخليقــة المتدينة، التي نعلم أنها الشخصية الأولى في هذا الكون التي يجب عليها أن تــذب عن الدين ، وتقف بالمرصاد لمن يحاول المساس به ، فأمر بعزل صاحب الشــعر من القضاء ، واستخدم حاسته الفنية في إصلاح الشعر وتقويمه ليتماشى مع روحه المتدينة ، الحريصة على قيم الإسلام وتعاليمه .

وطبيعي أن تترك هذه الآراء النقدية أثرها في نفوس الشــعراء ، فيبتعــدوا عــن المساس بالدين في شعرهم ، وبالفعل لم يخض كثير من الشعراء في الدين إرضاء للخلفاء لعلمهم أن ذلك لا يرضى خلقهم وذوقهم .

٤- النقدُ اللغويٌّ :

لم يكتف الخلفاء بنقد فني للشعر ولسبكه وديباجته ، ثــم المعــاني التــي لا تناسب هيبتهم ، ولا النقد الذي لاحظوه في قصائد قيلت في القادة والوزراء ولا ما له مساس بالدين ، بل كان لهم نقد لغوي أيضاً ، يلحظ فيه الحاكم مــا يقــع فيــه الشاعر من أخطاء نحوية أو لغوية ، وإن كان ذلك قليلاً أن يخطئ شــاعر خطــأ نحوياً ، إلا أنه حدث ولم يتركه الحكام ، بل نقدوه وقوموه .

" كان الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين في الزلالات (المراكــب) إذا ركبهــا ، وكان يتأذى بفساد لحنهم وكلامهم ، فقال : قولا لمن معنا مــن الشــعراء يعملــوا لهؤلاء شعراً يغنون فيه "[2] .

فالأخطاء النحوية من الملاحين تؤذي الرشيد ، فيطلب من يعمل لهم شعراً سليماً لا لحن فيه ، حتى يوافق ذوقه الفني اللغوي السليم الذي لا يقبل الأخطاء ، والرشــيد أيضاً ، " لما أنشده العُمَانِيُّ :

كَــــأَنَّ أُذْنَيْــــهِ إِذَا تَشَــــوَّفَا .·. قادِمَــــة أَوْ قَلَمُــــاً مُحَرَّفَــــا

---

(١) أبو حعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، ط دار المعــارف ، ســنة ١٩٦٦ م ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٦٥٦/٨.

(٢) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، ســنة ١٣٨٩ – ١٩٦٩ م طبعــة كاملة معها فهارس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، ٤ / ١٣١٨ .

ولحن ، فهم ذلك أكثر من حضر ، فقال الرشيد : اجعل مكـــان (كَـــأنَّ) (تَخَالُ) "[1] .

انعكاسات هذا النقد :

وفي الحقيقة لم تكن كل هذه الآراء النقدية التي وجهها الحكام للشعراء قليلة الأثـــر على الأدب ، ولكنها تركت بصمات واضحة عليه في عدة جوانب ، وكـــان لهـــا انعكاساتها التي خدمت الحركة الأدبية ، ووجهتها ، وأثرت فيها ، وأرى أن مـــن هذه الانعكاسات التي تركتها هذه الآثار النقدية .

١- الاهتمام بالجودة الفنية :

لما تيقن شعراء العصر العباسي (١٣٢ – ٢٣٢ هـــ) من ثقافة خلفـــائهم ووزرائهم العالية ، علموا أن بضاعتهم لن تجد شيئاً من القبول عند الحكام ، ما لم تكن خالية من الهنات ، محبوكة بأسلوب فني عالٍ ، مملوءة روعة وإتقاناً ، لهـــذا عمل هؤلاء الشعراء جهدهم في تجويد بضاعتهم ، وإعادة النظر فيها عدة مرات ، حتى يصلوا بها إلى مستوى يرضي أذواقهم الفنية الشاعرة رضى تاماً ، لضـــمان القبول عند ممدوحيهم ، فكانوا يتخيرون الأوقات التي تمكنهم مـــن الإبـــداع ، ولا يلوون عنق القريحة فتخرج فناً رديئاً قد يقابل من هذه الثقافات بالرفض واللوم .

" كان أبو نواس يقول : لا أكاد أقول شعراً جيداً ، حتى تكون نفسي طيبة ، وأكون في بستان مونق على حال أرتضيها ، من صلة أوصل بها أووعد بصـــلة ، وقـــد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعاراً لا أرضاها "[2] .

وإذا نظرنا إلى ذكر أبي نواس للصلة أو الوعد بها ، أدركنا على الفور مـــا كـــان لذلك من أثر في تجويد الفن ، والإبداع فيه ، ولن تكون هذه الصلة أو الوعد بهـــا إلا من حاكم من الحكام ، أو قائد من القواد ، أو أمير من الأمراء .

---

(١) أبو سحق الحصري القيرواني ، زهر الآداب وثمر الألباب ، المطبعة الرحمانية بمصر ، تحقيـــق زكـــي مبارك ، ٢ / ٢٣ .

(٢) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ – ١٩٦٩ م ، طبعـــة كاملة معها فهارس بإشراف تحقيق / إبراهيم الإبياري ، ٢٩ / ٩٨٦٥ .

وكان الشعراء يكتبون الشعر ثم يعيدون النظر فيه عدة مرات ، خوفاً من نقد الممدوحين ، أو رغبة في تقديرهم للجودة الفنية والصياغة الأسلوبية العالية .

" كان أبو نواس يعمل القصيدة ثم يتركها أياماً ، ثم يعرضها على نفسه ، فيسقط كثيراً منها ويترك صافيها ، ولا يسره كل ما يقذف به خاطره "(١) .

فكان على الشاعر أن يجتهد قدر ما يستطيع ، ويستخدم صافي قريحته ، وخلاصة موهبته في الوصول إلى أعلى مرتبة من الجودة ، وقد كان ذلك مهماً في تجويد فن العصر بصفة عامة ، وارتفاع مستوى الجودة الفنية فيه عن غيره من العصور وامتلائه الشديد بالجيد من القول ، وقد أوصلت هذه المنافسة الفنية الشديدة الشعراء إلى إعداد الشعر قبل مناسباته فبعض الشعراء يجهز أشعاراً في الرثاء لأناس لم يموتوا بعد ، حتى إذا ماتوا أسرعوا بفنهم الجيد ساعة الحادثة .

" قال أبو المستهل : دخلت يوماً على سَلْم الخَاسِرِ ، وإذا بين يديه قراطيس ، فيها أشعار يرثي ببضعها أم جعفر ، وببعضها جارية غير مسماة ، وببعضها أقواماً لم يموتوا ، وأم جعفر يومئذ باقية – لم تمت – فقلت له : ويحك ما هذا ؟ فقال : تحدث الحوادث فيطالبوننا بأن نقول فيها ويستعجلوننا ، ولا يجمل بنا أن نقول غير الجيد فنعد له هذا قبل كونه فمتى حدث حادث أظهرنا ما قلناه فيه قديماً على أنه قيل في الوقت " (٢) . وما أوصلهم إلى كل هذه العناية بالجيد إلا أنفس الحكام وأذواقهم الناقدة ، فإن الشاعر يخشى التقصير في فنه أمام الحاكم ، فمنهم من يجهز القصيدة في سنة كاملة ، ومنهم من يجهز للحوادث شعرها قبل أن تحدث ومنها من يذهب إلى قصر الحاكم ثم يتردد في الدخول فيرجع لأن البضاعة التي يطلبها الخليفة ليست عنده .

" اجتمع الشعراء على باب المعتصم ، فبعث إليهم محمد بن عبد الملك الزيات ، أن أمير المؤمنين يقول لكم : من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول النَّمَرِي في الرشيد :

---

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبيعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ – ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهارس بإشراف تحقيق / إبراهيم الإبياري ٢٩ / ٩٨٦٥ .

(٢) نفسه : ٢٢ / ٧٥٧٨ .

خلِيْفَــــه اللهِ إنَّ الجُـــوْدَ أوْدِيَـــــة .:. أحلَّــك اللهُ مِنهَــا حَيْــثُ تَجْتَمِــعُ
مَنْ لَمْ يَكُــنْ بِــأمِيْن اللهِ مُعْتَصِــمَاً .:. فَلَيْسَ بالصَّلَوَاتِ الخَمْــس يَنْتَفِــعُ
إنْ أخْلَفَ القَطْرُ لَمْ تُخْلِــفْ مَخَايلُــهُ .:. أوْ ضَــاقَ أمْــرٌ ذَكَرْنَــاهُ فَيَتَّسِــعُ

فليدخل وإلا فلينصرف " [١] .

ولم يقم من الشعراء إلا (مُحَمَّد بن وهيْب) أما الباقون فتراجعوا ، وما ذلــك إلا لخوفهم من التقصير في الإجابة ، فالشاعر عليه أن يقلّب قصيدته أمامـــه شـــهوراً حتى يرضى عنها هو أولاً ، فترضى ذوق ممدوحه .

" قال أبو العتاهية للرشيد : يا أمر المؤمنين ، هذا ابن مناذر شاعر البصرة يقــول قصيدته في سنة ، وأنا أقول في سنة مائتي قصيدة ، فقال الرشيد : أدخله إلـــى ، فأدخله إليه ، وقرر أن يضعه عنده ، فدخل وسلم ودعا ، فقال له : ما هذا الــذي يحكيه عنك أبو العتاهية ؟ فقال ابن مناذر : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ فــأخبره بالخبر ، فقال يا أمير المؤمنين : لو كنت أقول :

ألاَ يَـــــا عُتْبَــــــة السَّــــاعَهْ .:. أمُـــــوْتُ السَّــــاعَة السَّــــاعَهْ

لقلت منه كثيراً ، ولكني الذي أقول :

إنَّ عَبْــدَ المَجِيــدِ يَــوْمَ تَــولَّي .:. هَــدَّ رُكْنَــاً مــا كَــانَ بالمَهْــدُوْدِ
مَــــا درَى نَعْشُــــهُ وَلاَ حَــــامِلُوْهُ .:. مَا عَلَى النَّعْش مِنْ عفَافٍ وَجُــودِ

فقال الرشيد : هاتها فأنشدينها ، فأنشده فقال الرشيد : ما كان ينبغي أن تكون هــذه القصيدة إلا في خليفة أو ولي عهد "[٢] .

فقد أمَّن الرشيد – ضمناً – على كلام ابن مناذر ، فلما أعجبه شعره تمنى أن تكون القصيدة في رثاء رجل ذى شأن كخليفة أو ولي عهد يتناسب قــدره مــع قوتهــا وإحكامها .

(١) نفسه : ٢١ / ٧٣١٨ .
(٢) نفسه : ٢٠ / ٧٠١٠.

بهذا نتأكد أن نقد الحاكم الفني للشعر كان له دوره المباشر والواضح في جودة الشعر وإحكامه وقوته ، ولو لم تكن لهم هذه الأنفس الذواقة لربما كان للأدب في عصرهم مسار آخر ، كان من الممكن أن يصيبه غير قليل من الضعف .

٢- الرجوع إلى العلماء المُتَخَصِّصِيْن :

ومن أجل الوصول إلى المستوى الفني العالي ، لم يكن الشاعر يكتفي بذوقه هو وحده للحكم على ما ينتج من شعره ، بل كان يعرضه على أهل اللغة ، والمتخصصين فيها ، حتى يستطيع أن يصل إلى معرفة مواضع الضعف في فنه فيصلحها ، أو جوانب الكمال الفني فيعرضه على الممدوح .

وكان الشعراء يحترمون آراء العلماء المتخصصين في اللغة والأدب ، ويصغون إلى ملاحظاتهم الفنية باهتمام واحترام .

" قال خلاد الأرقط : جاءنا مروان بن أبي حفصة إلى حلقة يونس ، فأخذ بيد خلف الأحمر فأقامه ، وأخذ خلف بيدي فقمنا إلى دار أبي عُمَيْر ، فجلسنا في الدهليز ، فقال مروان لخلف : ناشدتك الله يا أبا محرز إلا نصحتني في شعري ، فإن الناس يخدعون في شعرهم وأنشده قوله :

طرقتك زائرة فحي خيالها ∴ بيضاء تخلط بالجمال دلالها

فقال له : أنت أشعر من الأعشى في قوله : (رحلت سمية غدوة أجمالها) ، فقال له مروان : أتبلغ بي الأعشى هكذا ، ولا كل ذا ، قال : ويحك ! الأعشى قال في قصيدته هذه : فأصاب حبة قلبها وطحالها ، والطحال ما دخل قط في شيء إلا أفسده ، وأما قصيدتك فسليمة كلها ، فقال له مروان : إني إذا أردت أن أقول القصيدة رفعتها في حول ، أقولها في أربعة أشهر وانتخلها في أربعة أشهر ، وأعرضها في أربعة أشهر " (١) .

والمتخصصون لم يتركوا جانباً من جوانب الإجادة الفنية إلا كان مهماً في جوانب ملاحظاتهم ، وكانوا يعرفون قدر آرائهم الفنية ، وأهمية توجيهاتهم البلاغية

---

(١) نفسه : ١٠ / ٣٥٤٦ .

والمعنوية ، وفي بعض الأحيان كانوا يتحدون الشعراء أن يصــلوا إلــى الجــودة بدونهم ، فقد " دار بين الخليل بن أحمد وبن مناذر كلام ، فقال له الخليــل : إنمــا أنتم الشعراء تابع لي ، وأنا سكان السفينة ، إن قرظتكم ورضيت قــولكم نفقــتم ، وإلا كسد تم ؛ فقال ابن مناذر : والله لأقولن في الخليفة قصيدة أمتدحــه بهــا ولا أحتاج فيها إليك عنده ، ولا إلى غيرك ، فقال في الرشيد قصيدته التي أولها :

مَــا هَــيَّجَ الشَّــوْقَ مِــنْ مُطوَّقَــةٍ ∴ أوْفَــتْ عَلَــى بَانَــةٍ تُغنِّينَــا

وكان فيها بيت يفتخر فيه وهو :

قوْمِي تَمِــيْمٌ عِنْــدَ السِــمَاك لهُــمْ ∴ مَجْــدٌ وَعِــزٌّ فَمَــا يُنَالُوْنَــا

فلما أنشد هذا البيت تعصب عليه قوم من الجلساء ، فقال له بعضهم : يا جاهــل ! أتفخر في قصيدة مدحت بها أمير المؤمنين ؛ وقال آخر : هذا حماقة بصرية "(١) .

وإذا كان ما أخذه عليه الحاضرون ليس له كبير صلة بالجودة الفنية ، فإنه من – أحد الوجوه – يدل دلالة قاطعة على الأهمية الكبيرة ، والفائدة التي لا يمكن إنكارها ، لعرض الشعر على العلماء المتخصصين في اللغة ، يصلحون عيباً فنياً، أو لغوياً ، أو بلاغياً .

ولو لم يكن للحكام ذائقة العلماء العارفة بمواضع جيد القول من ضعيفه ، لما كان لعلماء اللغة أنفسهم كبير أهمية في تحسين صورة الأدب الذي يخاطب به الحاكم ، والوصول به إلى مراتبه العالية في هذا العصر ، فما داع الرجوع إلــى علمــاء اللغة، وعرض الأشعار عليهم قبل إنشادها إلا بسبب رؤية الحكام النقدية ، وآرائهم الفنية ، وذوقهم المرهف ، وذاك يخدم في نهاية الأمر الأدب بعامتــه ، ويحســن صورته شعراً ونثراً ، فإن كان الشاعر يسهر على قصــيدته شــهوراً ، يحســن معانيها ، ويوافق بين ألفاظها ، ويقدم فيها ويؤخر ، حتى يرضى هو عن قصيدته، ثم بعد ذلك يعرضها على علماء اللغة ونقاد الأدب ، فيلفتوا نظره إلــى مواضــع الضعف في شعره فيصلحه ، أو أماكن الجودة الفنية فينشرح لها ، حتى إذا تمــت القصيدة دورتها هذه ، وأحسن الشاعر بجودتها ، ذهب بها إلى ممدوحــه ، الــذي

(١) نفسه : ٢٠ / ٦٩٧٧ .

يكون محاطاً – غالباً – بجماعة من علماء اللغة أيضاً ، فيلقــي قصــيدته وهــو مطمئن إلى روعتها في أغلب الأحيان ، فيطرب لها الحاكم الذواقة ويجزل للشاعر العطاء ليدفعه إلى مزيد من التأنق ، ومزيد من الجودة . وبطبيعة الحال لــم يكــن كل الحاكم كما قلنا – أصحاب حس نقدي مرهف ، وإنما كان الغالب عليهم الفهــم والعلم ، وقليل منهم الذي غاب عنه هذا الحس ، وإذا كان بعضهم قد افتقد شيئاً من العلم والتذوق ، فلا ينقض هذا القاعدة الأساسية من الأثر الكبير لهم في تجويد الفن وتحسين صورته في العصر كله .

٣- الشعر الشخصي والرسمي :

ومن الملاحظات التي تجدر الإشارة إليها ، وهو من الانعكاسات الواضحة للنقد الفني الواعي عند الحكام ، أن فرقاً بيناً قد ظهر بين الشعر الرســمي الــذي يتوجه به الشاعر إلى أحد أفراد البيت الحاكم – والشعر الشخصي ، الذي يقولــه الشاعر لغير الغاية ، فقد بدا الشعر الرسمي متفوقاً على غيره كمــاً وكيفــاً فــي العصر العباسي (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) ، ولم يكن ذلك موجوداً بهذه الصــورة فــي عصر بني أمية ، فقد كان التنافس بين الشعراء تنافساً بين الأحزاب ، بحيــث لــم يخل حزب من الأحزاب من فحل من الشعراء " ففي الحــزب الشــيعي نعــرف الكُمَيْت بن زَيْد ، وكُثيِّر عَزَّة ، والسَّيِّد الحِمْيَرِيّ ، وفي الحزب الأمــوي يتربــع الأخطل ، وجرير ، والفرزدق على قمة الفحولة ، لا في شعر العصــر الأمــوي وحده ، بل في الشعر العربي في العصور الإســلامية القديمــة بعامتهــا ، وفــي الخوارج تلمع أسماء قطريّ بنُ الفُجَاءَة ، والطِّرِمَّاح بن حَكَــيم ، وعِمْــران بــن حِطَّان، وفي الحزب الزبيري يعترف الشعر العربي بالعبقرية والنبوغ لابن قــيْس الرُقيَّات "(١) .

وإذا كان هؤلاء الشعراء قد شاركوا في مجال السياسة بشكل ما ، ومــدحوا من يدافعون عنهم ؛ فقد كان انتماؤهم حقيقياً ، وكان مدحهم نابعاً من صدق ولائهم للمذهب أو الحزب ، إذ كانوا ينتمون إلى الحزب الذي يدافعون عنــه فلــم يكــن

(١) صلاح الدين الهادي ، اتجاهات الشعر في العصر الأموي ، القاهرة ، دار الثقافة العربية ، ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م ، ص ٢٢٨ .

الشاعر منسلخاً – في عقيدته ومذهبه – عن ممدوحه ، بل لم يكن يمدح أشخاصاً بقدر دفاعه عن عقيدة الحزب الذي ينتمي إليه ، وبهذا يختلط عندهم الرسمي من الشعر بالشخصي . قد نستثنى من هذا التعميم شعراء الأمويين بعض الشيء ، أما في العصر العباسي (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) ، فقد حدث " انقسام النتاج الشعري في ذلك العصر إلى قسمين : قسم كان يتجه به الشاعر إلى خاصة المتأدبين ، وقسم يتجه فيه إلى عامة الشعب "[١] .

فأما القسم الذي أتعب فيه الشاعر قريحته ، وسهر أياماً وليالي يحسن صورته ، ويوفق بين ألفاظه ومعانيه ، ويعرضه على أهل الاختصاص حتى يصل إلى قمة الجودة ، فقد كنا الشعر الرسمي في أغلب الأحوال ، إذ كان الاهتمام به أكبر والتحفظ فيه أشد ، حتى وجدنا بعض الشعراء لم يتعد الشعر الرسمي إلا في القليل النادر ، كما يقول مصطفى الشكعة في شعر مروان بن أبي حفصة " مروان لم يقل شعراً إلا في المديح والرثاء والتهنئة ولم يتعد هذه الفنون إلا في القليل النادر ، وهو يجيد في هذه ولا يجيد في تلك "[٢].

وقد مر بنا أن مروان كان يستغرق عاماً كاملاً يجهز فيه قصيدته قبل أن يذهب بها إلى ممدوحه ، والمطالع لمصادر الأدب قد لا يعثر على شاعر عرض قصيدته من النوع الشخصي على العلماء بغرض تجويديها ، بل قد لا يصادف خبراً عن شاعر أنفق عاماً كاملاً يتأنق في قصيدة غزل أو حكمة ، أو غيرها من الأغراض في العصر العباسي (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) " وكان أبو نواس يحتفظ بكل ما يمكن من جزالة في الشعر الرسمي ، وفي بعض شعره الشخصي ، وكثيراً ما يعمد في النوج الأخير إلى السهولة المفرطة "[٣] .

---

(١) عزالدين إسماعيل ، في الشعر العباسي ، الرؤية والفن ، المكتبة الاكاديمية ، ص ٣١٣ .

(٢) الشعر والشعراء في العصر العباسي ، بيروت ن دار العلم للملايين ، ص ٣٥ .

(٣) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ ، ص ١٤٧ .

وهو الذي يقول : " إني لا أحسن الشعر حتى تكون نفسي طيبة ، وأكون في بستان مونق ، وعلى حال أرتضيها ، من صلة أو صل بها ، أو وعدٍ بصلة"[١].

ولقد كان منطق أبي نواس هذا منطق كثير من الشعراء في هذا العصر ، ولعل في هذا دلالة كافية ومقنعة على الدور المهم للحكام – وأموالهم – في تجويد الأدب وتحسين صورته ، وفي انقسام الشعر إلى رسمي – وشخصي ، ويقول محمد عبد العزيز الموافي " وهذه الظاهرة واضحة في شعر كثير من شعراء العباسيين – كأبي نُواس وأبي العتاهية ويعترف بشار بشيء قريب من هذه الازدواجية "[٢] . فبينما تجد قمة الجودة في شعر البلاط تجد ضعفاً بيناً في كثير من نماذج الشعر الشخصي ، وقد صرح غير شاعر بذلك وبسببه ، بل قد مر بنا قبل قليل قول ابن مُنَاذِر شاعر الرشيد في شعر أبي العتاهية – وهو من أعظم شعراء العصر : " يا أمير المؤمنين ، لو كنت أقول :

ألاَ يا عُتْبَةُ السَّاعَةْ ∴ أمْوتُ السَّاعَةَ السَّاعَةْ

لقلت منه كثيراً ، ولكني الذي أقول :

إنَّ عَبْدَ المَجِيْدِ يَوْمَ تَولَّي ∴ هَدَّ رُكْناً مَا كَانَ بالمَهْدُودْ

مَا دَرَى نَعْشُهُ وَلاَ حَامِلُوْهُ ∴ مَا عَلَى النَّعْشِ مِنْ عَفَافٍ وَجُودٍ [٣]

وهذا فرق واضح بين النموذجين ، فهذا شعر مديح تُؤُنِقَ فيه ، وهذا شعر يتغزل فيه أبو العتاهية في محبوبته عتبة ، فليس ضرورياً أن يتأنق فيه ، فهو شعر شعبي كما يسميه عز الدين إسماعيل ، وحينما عتب النقاد على بشار حين قال :" رَبَابَةُ رَبَّةُ البَيْتِ " فقال : كل شيء في موضعه [٤] .

---

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ – ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، ٢٩ / ٩٨٦٥ .

(٢) حركة التجديد في الشعر العباسي ، مكتبة الشباب ، سنة ١٩٩١ ، ص ٦١ .

(٣) أبو الفرج على بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، مطبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ – ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهارس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، ٢٠ / ٧٠١٠ .

(٤) المرزباني (محمد بن عمران بن موسى بن سعيد) ، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، سنة ١٩٦٥ ، تحقيق علي البجاوي ، ص ٣٨٧ – ٣٨٨ .

ومهما يكن من أمر فقد تركت نظرات الحكام النقدية ، وآراؤهم الفنية أثـراً في تجويد الشعر الرسمي ، والوصول به إلى مستوى فني عالٍ ، ولهذا دوره الهام في تحسين صورة الأدب بشكل عام .

ولم تترك هذه الثقافات العالية للحكام أثرها على الشعر من ناحيـة الكيـف فقط ، بل تركت آثاراً من ناحية الكم أيضاً ، فقد فاق الشعرُ الرسـمي الشخصـي كمًّا، وذلك أن غرضاً كالمديح وهو شعر رسمي ، قد فاق غيره مـن الأغـراض بشكل واضح ، فقد استولى هذا الغرض على نصيب كبير من نتاج عظماء الشعر في هذا العصر ، كبشار ، ومسلم بن الوليد ، وأبي تمام ، بل إن شعراء آخرين قد أوقفوا معظم شعرهم على الشعر الرسمي ، منهم من اختص بالدفاع عن الـدعوة العباسية كأبي دلامة ، ومروان بن أبي حفصة ، وسلم الخاسر ، ومنهم من أوقـف شعره على البرامكة ، كأبان بن عبد الحميد اللاحقي ، وأشجع السـلمى ، ومـنهم شعراء للوزراء والولاة والقواد ، كأبي الشيص ، وعبد الله بـن أيـوب التيمـي ، وعلي بن جبلة والخريمي ، بل قد لا يخلو ديوان شاعر من شعراء العصـر مـن قصيدة عظيمة من قصائد المديح ، وهناك كثير من الشعراء مدحوا ولـم تمكـنهم الظروف من الوصول إلى الحكام ، وكثير من الشعراء لم يرفع من شأنهم ويشهر أسماءهم إلا الشعر الرسمي ، خاصة المديح .

وإذا جاز لنا في مجال الأدب أن نقوم بعمل إحصاء رقمي لكلا النـوعين ، فستجد الشعر الرسمي يتفوق على الشخصي من ناحية الكم أيضاً ، ولابد أن دوراً ما للحكام قد ساهم بشكل أو بآخر في وضوح هذه الظـاهرة بـين شـعراء هـذا العصر.

وإنه بوسع الباحث أن يصل إلى نهاية مؤداها أن هذا العصر قد شهد نضجاً فنياً في القصيدة العربية إجمالاً ، وفي كل الأغراض ، فلا نستطيع أن نـدعى إن الجودة الفنية اقتصرت على الشعر الرسمي وحده ، بل لم يخل الشعر الشخصـي من نماذج فنية عالية الجودة ، ولكني أرى أن الشعر الرسمي كان أكثر جودة مـن الشعر الشخصي .

وهذا مبنى على ثقافة الحكام العالية ، ونظراتهم النقدية ، التي جعلت الشعراء يولون الشعر الرسمي كبير عناية ، من منطلق أنَّ لكل مقام مقالاً ، وهذا بالطبع أثر لأموالهم ، حب الشعراء للعطاء ، ذلك الذي ارتقى بالشعر الرسمي كماً " فما دام هناك قادرٌ على المنح ومحتاجٌ إلى العطاء فلابد أن يوجد المدح"(١).

جـ- الاهتمام بتأليف الكتب الأدبية ودعمها :

لم يقتصر دور الحكام العلمي في العصر العباسي على ما تحدثنا فيه من عقد ندوات أدبية أخرجت لنا نتاجاً هائلاً من الفن الشعري الراقي ، أو على آرائهم النقدية المهمة التي تركت أثاراً وانعكاسات مهمة في الأدب شعره ونثره ، ومن تجويد للقصيدة العربية وتجديدٍ لها ، ووصولٍ بها إلى قمة التأنق الفني ، أو غير ذلك من الانعكاسات التي تحدثنا عنها ، وإنما كان لهم – من وجهة نظري – دورٌ علمي قد يكون أكثر أهمية من كل هذا ، دورٌ كان بمثابة خطوة مهمة يستشعرها كل من كانت له أدنى صلة بالأدب ودرسه وتاريخه ، أو نقده وتقويمه ، أو جمعه وتدوينه ، وأعني به دورهم في ظهور بعض المصادر المهمة للأدب ، أو المجموعات الشعرية الشهيرة ، التي قد لا يستغنى عنها باحث في الأدب القديم أياً كان توجهه العلمي ، أو منهجه البحثي ، بل أكاد أقول إن باحثاً في الأدب عامة ، قد لا يستغنى عن أحد هذه الكتب بشكل أو بآخر، فإني قد لاحظت أن حكام هذا العصر كان لهم دورٌ مباشرٍ في ظهور بعض مصادر الأدب ، وكان لهم دورٌ آخر لم يكن مباشراً في إخراج مصادر أخرى مملوءة بالفائدة ، وأعني بالشكل المباشر أن يكون الحاكم قد طلب وبشكل صريح عمل كتاب في كذا، أو أحاط بالعالم وفرغه واهتم بمؤنته بشكل صريح ، وقام بتذليل كل العقبات التي قد يتعرض لها حتى من مؤلَّفه ، أو عدل له فكرة من مخزون ثقافته – أي الحاكم – أسهمت في إخراج المؤلف على الصورة التي وصلت إلينا ، فتكون بصمة الحاكم فيه واضحة، ويكون دوره ملموساً ومن هذا النوع (المُفَضَّلِيَّاتْ) للمُفَضَّل بن مُحَمَّد الضَبِّي (وكتاب الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني .

---

(١) محمد عبد العزيز المواقي ، حركة التجديد في الشعر العباسي ، مكتبة الشباب ، سنة ١٩٩١ ، ص ٦٣ .

أما الدور غير المباشر من أدوار الحكام فأعني به احتواء الحاكم لأحد العلماء بشكل عام ، وحبه له ، وملازمته إياه ، فإذا به يؤلف شيئاً ذا بال ويهديه إليه ، كما حدث مع الجاحظ في كتابيه (الحيوان) و (البيان والتبيين) أو يكون مصدر من المصادر مَبْنياً على فكرة أرساها أحد الحكام ، كما هو الحال في كتب الاختيارات بعد المفضل بن محمد الضبيّ ، وأتناول ذلك بشيء من التوضيح لأبين كيفية هذه الأدوار .

المختارات الشعرية :

المُفَضَّليَّاتُ هي الأشعار التي اختارها أبو العباس المفضل بن محمد الضبي الراوية الكوفي ، من أشعار المقلين من شعراء العرب ، للأمير محمد المهدي بن الخليفة أبي جعفر المنصور العباسي ، وهي أقدم مجموعة عرفها العلماء في اختيار الشعر العربي " ولا نعلم أحداً قبل المُفضَّل الضبي أقدم على أن يصنع للناس اختياراً من الشعر ، إذ كان جلُّ هم الرواة أن يقتنصوا هذه الثروة الفنية التي وصلت إليهم ، وأن يتلقفها أحدهم عن الآخر ، حريصاً عليها ، ضنيناً بها "(١) .

فيما يرى أن العرب لم يكن لهم قبل المفضل الضبي علمٌ بالمختارات الشعرية على الصورة التي فعلها المفضل في المفضليات ، وإن كان شيء قريب من هذا قد حدث في المعلقات المشهورة ، إلا أن هذا العمل لم يكن مختارات بالمعنى الدقيق للكلمة ، وإنما هو مجموعة من القصائد اختُلِف في عددها ، لاقت تقديراً واحتراماً من العرب عامة ، والعلماء بوجه خاص ، وذلك لعلو قيمتها في الناحية الفنية والبلاغية ، حتى قيل إنها كتبت بماء الذهب ، أو علقت على أستار الكعبة ، لذا طارت شهرتها عبر الزمان والمكان ، أما الاختيارات بالمعنى الدقيق فبدايتها المفضليات على أرجح الأقوال ، كما يرى ذلك كثيراً من مؤرخي الأدب ودارسيه.

وأما أهميتها وقيمتها الفنية والتاريخية فنكتفي بما قاله فيها أحد شراحها وهو السيد حسن السندوبي صاحب جريدة الثمرات ، الذي يقول عنها : " فما هي إلا مرآة يشهد فيها المتأدب بها صوراً شتى مما امتاز به العرب من الأخلاق والعادات ،

---

(١) أحمد شاكر ، عبد السلام هارون ، مقدمة محققي المفضليات ، القاهرة ، طبعة دار المعارف ، ص ١٠.

وما تصفوا به من محاسن الشيم ومفاخر المروءات ، وما كان لهم في أيامهم من الحروب والوقائع ، وما أتوه في حلبات النضال وحومات المعامع "[١].

أما عددها فمحل خلاف ، هل هي ثمانون قصيدة من اختيار الضبي والباقي لغيره، أم كلها من اختيار المفضل ، هذا خلاف قد لا يفيد كثيراً في هذا المقام ، وإن كان السندوبي يقول : " والتي بين أيدينا الآن بها ثمان وعشرون ومائة قصيدة"[٢].

ولعل الأجدر أهمية من ذلك هو سبب اختيار المفضل لهذه المجموعة النادرة من الأشعار ، وقد وجدت أن مؤرخي الأدب كادوا يتفقون أن هذه المجموعة من الأشعار إنما كانت مختارة لتعليم أمير المؤمنين المهدي العباسي ، حينما كان ولي عهد في أيام أبي جعفر المنصور ، فابن النديم يقول في الفهرست حول ترجمة الضبي : " يقال أنه خرج مع إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، فظفر به المنصور فعفى عنه وألزمه المهدي ، وللمهدي عمل الأشعار المختارة ، المسماة المفضليات "[٣] .

وأبو علي القالي يروي في الأمالي ، عن أبي الحسن علي بن سليمان الأخفش ، عن أبي جعفر محمد بن الليث الأصفهاني قال : " أملي علينا أبو عكرمة الضبي[٤] المفضليات من أولها إلى آخرها ، وذكر أن المفضل أخرج منها ثمانين قصيدة للمهدي "[٥] .

وقول محققي المفضليات أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون في مقدمة طبعة دار المعارف " قرأ عليه – أي المفضل – بعضها تلميذه أمير

---

(١) مقدمة شرح المفضليات ، المطبعة الرحمانية بمصر ، سنة ١٣٤٥ هـ – ١٩٢٦ م ، ص ٣ .

(٢) مقدمة شرح المفضليات ، المطبعة الرحمانية بمصر ، سنة ١٩٢٦ م ، ص ٣ .

(٣) ابن النديم (أبو الفرج محمد بن إسحاق بن أبي يعقوب) ، الفهرست ، نسخة طبعة مصر ، ص ١٠٦.

(٤) هو أبو عكرمة عامر بن عمران بن زياد الضبي ، روى المفضليات عن ابن الأعرابي ، ورواها عنه أبو محمد القاسم الأنبار الكبير ، وكان أعلم الناس بأشعار العرب وأوراهم لها ، مات سنة ٢٥٠ هـ – معجم الأدباء ، ٤ /٢٨٣ .

(٥) أبو علي القالي ، الأمالي ، طبعة دار الكتب المصرية ، تحقيق ، محمد عبد الجواد الأصمعي ، ٣ / ١٣٠ د.ت.

المؤمنين المهدي "[١] ، ويعرّف حسن السندوبي بالمفضليات في مقدمة تحقيقه لهـا فيقول : " هذا كتاب المفضليات ، وهي الأشعار التي اختارها أبو العباس المفضل بن محمد الضبي الراوية الكوفي الحجة الثقة ، من أشعار العرب، للأمير محمد المهدي بن الخليفة أبي جعفر المنصور العباسي ، ليتأدب بها، ويتخرج بأدبها "[٢].
وهكذا تتصل الأقوال لتدل على أنها جمعت ليتأدب بها المهدي في عهد أبيه المنصور ، وتحت سمعه وبصره ، فقد كانت برعاية من أبي جعفر ، وبتوجيه منه بشكل مباشر .

فإذا سلَّمنا أنها جمعت في دار الخلافة ، وبرعاية البيت العباسي ؛ أدركنا الدور المهم للبيت نفسه في إخراجها ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن المتتبع لشخصية أبي جعفر نفسه ولذوقه ، وحبه للشعر القديم ، ليكاد يجزم أن أبا جعفر كانت له يدٌ في هذه الاختيارات ، فمما يروي أبو الفرج في الأغاني أن أبا جعفر طلب حماداً الراوية طلباً شديداً فلما مثل بين يديه ، قال له : " أنشدني شعر هفان بن همام بن نضلة يرثي أباه ، فأنشده :

خَلِيْلَيَّ عُوْجَا إنَّهَا حَاجَةُ لنَا ∴ علىَ قبْرِ هَمَّام سَقَتْهُ الرَّوَاعِدُ
عَلَى قبْرِ مَنْ يُرْجَى نَدَاهُ وَيُبْتَغَي ∴ جَدَاهُ إذَا لَمْ يَحْمِدَ الأرْضَ رَائِدُ
كَرِيْمُ النثا حُلُوُ الشَّمَائِل بَيْنَهُ ∴ وَبَيْن المُزَجَّي نَفْنَفٌ مُتَبَاعِدُ[٣]

إلى آخر القصيدة ، فيبكي المنصور من شدة تأثره بالشعر ، ويبد وأنه كان أميل في ذوقه للشعر القديم ، بل كن يحفظ الكثير من جيده ، فها هو يصعد المنبر فأزم عليه طويلاً لا ينطق " قال رجل لشَبيْب بن شَيْبَة : ما لأمير المؤمنين لا يتكلم! فإن والله مما يهون عليه صعاب القول ، فما باله ! قال : فاقترع الخطبة ثم قال :

---

(١) مقدمة محققي المفضليات ، القاهرة ، طبعة دار المعارف ، ص ١١ .
(٢) مقدمة شرح المفضليات ، المطبعة الرحمانية بمصر ، سنة ١٣٤٥ هـ – ١٩٢٦م ، ص٢.
(٣) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهارس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، ٥ /٢١٦١ .

مَالِي أكفكفُ عَنْ سَــعْدٍ وَيَشْــتُمُنِي .·. وَلَوْ شَتَمْتُ بَنِيْ سَعْدٍ لَقَــدْ سَــكَنُواْ
جَهْلاً عَلَــيَّ وَجُبْنَــاً عَــنْ عَــدُوهِم .·. لَبئسَتِ الخُلَّتَان الجُهْلُ وَالجُــبْنُ[1]

والأبيات من قصيدة لقعنب بن أم صاحب الشاعر الجاهلي ، فقد كان المنصــور يعتني بحفظ الأشعار أيما عناية ، بل كان يرويها ، ويعُدُّ عــدم حفظهــا مصــيبة وكارثة ، ولقد سبق القول في الحديث عن ثقافة الحكام اللغويــة والأدبيــة أن أبــا جعفر طلب عند موت ابنه الأكبر ، مَنْ ينشده من أهله خاصة عينية أبــي ذؤيــب التي مطلعها :

أمِنَ المَنُوْن وَرَيْبِهَا تَتَوجَّعُ

فخرج الربيع إلى بني هاشم وهم بأجمعهم حضور ، فسألهم عنها فلم يكــن فيه أحد يحفظها فرجع فأخبره ، فقال : والله لمصيبتي بأهل بيتي ألا يكــون فــيهم أحد يحفظ هذه لقلة رغبتهم في الأدب أعظم وأشد من مصيبتي بابني[2] .

وكأن بأبي جعفر المنصور في توجيهه للمفضل تعليم ابنــه المهــدي هــذا الشعر ، يجنبه مصيبة هي أعظم عنده ألماً من الموت ، فإذا كان نظرة المنصــور للجهل على هذه الشاكلة ، وإحساسه بقيمه الأدب والشعر هذا الإحســاس ، فــإن الباحث ليرى في ذلك دليلاً ناصعاً على دوره في المفضليات ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما قاله الأنباري : أول شراح المفضليات وأشهرهم ، حيث يقول : " حدثت أن أبا جعفر المنصور تقدم إلى المفضل في اختيار قصائد للمهدي ، فاختــار لــه هــذه القصائد فلذلك نسبت إلى المفضل" [3] .

ثم ما رواه القالي في الأمالي عن أبي عكرمة قــال : " مــر أبــو جعفــر المنصور بالمهدي وهو ينشد المفضل قصيدة المسيب التي أولها " أرَحَلتَ " وذكر

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، ط ، دار المعارف ، ســنة ١٩٦٦ م ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٨ / ٩٢ .

(٢) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المأمون ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١١٩٧ م ، ١٤٧/١ .

(٣) المفضل الضبي ، المفضليات ، نسخة طبعة المطبعة الرحمانية بمصر ، سنة ١٣٤٥ هــــ - ١٩٢٦ م ، شرح حسن السندوبي ، ص ٢١ .

القصيدة ثم قال فلم يزل واقفاً من حيث لا يشعر به ، حتى استوفى سماعها ، ثم صار إلى مجلس له ، وأمر بإحضارهما ، فحدث المفضل بوقوفه واستماعه لقصيدة المسيب ، واستحسانه إياها ، وقال له : لو عمدت إلى أشعار المقلين ، واخترت لفتاك لكل شاعر أجود ما قال ؛ لكان ذلك صواباً ، ففعل المفضل"(١) .

ويقول الباحث ؛ بإضافة هذين الخبرين يظهر واضحاً أن القصر الحاكم كان له دورٌ رئيسيٌ ومباشرٍ في أول مجموعة مختارة من أشعار العرب ، فأبو جعفر قد وجه المفضل توجيهاً صريحاً إلى ما يختاره من شعر ليعلم به ولي العهد ، وهو الجيد من أشعار المقلين ، وقد كان ، واستقراء هذه الأخبار الكثيرة عن حب أبي جعفر المنصور للشعر ، وعن إحساسه بقيمة الأدب ، ثم ما ورد بصورة صريحة عن دوره في تعليم ابنه ، وعن اختيار المفضل خاصة ، يجعل الباحث يرى أن هذه الاختيارات كانت – أو معظمها – تحت إشراف أبي جعفر المنصور نفسه ، بل يرى أيضاً أن لأبي جعفر دوراً ، أو بالتحديد اختياراً لبعض هذه القصائد ، فكثيرٌ منها – أي المفضليات – يتسق مع ذوقه الشعري .

إذاً فإن للبيت الحاكم في العصر العباسي دوراً مهماً وملموساً في هذه الاختيارات بشكل مباشر ، ولِمَا بعدها كالأصمعيات ، والحماسيات ، وغيرها من كتب الاختيار بشكل غير مباشر ، اعتماداً على أن بداية الاختيارات بفضل توجيههم .

الأغاني :

من الكتب العالية القيمة ، العظمية الفائدة ، التي اتفق العلماء والمهتمون بالأدب في كل العصور على جلال قدرها ، وعظيم قيمتها ، كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، المؤلف والعالم الأموي النسب ، الشهير في مجال الأدب ، فهو كاتب من النوع الموسوعي الذي يخدم كتابه الباحثين في مجالات الحياة المختلفة ، لأنه يحتوي على كثير من الأخبار منذ عصر مؤلفه فهو يحتوي على مادة متنوعة ، منها الغناء ولحنه وأضربه ، ومنها الشعر وقائله وترجمته وأخباره

(١) أبو علي القالي ، الأمالي ، طبعة دار الكتب المصرية ، تحقيق حمد عبد الجواد الأصمعي ، ٣ / ١٣٠–١٣٢.

وما يتعلق به ، ومنها قد يكون بين المغنين من اشتراك بالغناء " ثم امتد به القول إلى السبب الذي من أجله قيل الشعر ، أو صنع اللحن ، وما يشاكل الموضوع أو يوضحه ، من أخبار سير ، وأشعار ورسائل ، وخطب ، وقصص ، وملح ونكت ونوادر . فاشتمل الكتاب على أكثر أيام العرب ووقائعهم وغزواتهم ، وأخبار قبائلهم وأنسابهم ومياههم ، كما وصف البادية وما عليها من حيوان وشجر ، والبدو وما يحكمهم من عادات وخلائق ، واندس إلى القصور الضخمة في المدن الكبيرة ، فوصف ما بداخلها من الأشياء النفسية ، ما فيها من رياش ، وأساس ، وما يلتزمه أهلها في طعامهم وشرابهم ، وأفراحهم وأحزانهم ، من مراسم وتقاليد وما عليه العامة من لغاتهم ومعتقداتهم وتدليسهم ، وسيطرتها على الخاصة "(١) . فالكتاب موسوعي في مادته بكل ما تعنيه الموسوعية من معنى ، في الفترة الزمنية التي تناولها ولها قبل عصره وفي أثنائه ؛ لذا فقد أشبعه علماء الأدب واللغة إطراءً وثناءً ، القدماء منهم والمحدثون ، فيقول عنه ياقوت الحموري في معجم الأدباء "لعمري إن هذا الكتاب لجليل القدر ، شائع الذكر ، جم الفوائد ، عظيم العلم ، جامع بين الجد البحت ، والهزل البحت ، وقد تأملت الكتاب وعنيت به ، وطالعته مراراً"(٢) .

إلى غير ذلك من أقوال المؤرخين القدامى في الثناء على الكتاب . ومن المحدثين يقول عنه الطاهر أحمد مكي : " وأجمع المؤرخون وأهل الأدب على أن الأغاني نسيج وحده ، وأن كل كتاب في الأدب جاء بعده كلٌّ عليه ، ولولاه لضاع الكثير من أخبار الجاهلية ، وصدر الإسلام ، وبني أمية"(٣) .

وإذا ذهبنا نعدد ما كتبه المحدثون والقدماء أيضاً في إطراء الكتاب ، وإبراز جوانب تميزه ، لا يسعنا المقام ، فإن همنا هو الكشف عن صلة حكام العصر العباسي (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) بالكتاب ، ودورهم بشكل أو بأخر في ظهوره ، أو في تأليفه ، أو في محتواه ، إن كان ثمة دورٌ .

(١) الطاهر أحمد مكي ، دراسة في مصادر الأدب ، القاهرة ، دار المعارف ، ص ١٧٣ .
(٢) ياقوت الحموري ، معجم الأدباء ، ط ٣ ، القاهرة ، نسخة طبعة دار الفكر العربي ، ١٣ / ٩٨ .
(٣) دراسة في مصادر الأدب ، القاهرة ، دار المعارف ، ص ١٧٢ .

فإن الإنسان قد يصاب بشيء من الدهشة حينما يقرأ أو يسمع عن شيء من الدور لحكام العصر العباسي – (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) خاصة – في تأليف أبي الفرج الأصفهاني لكتاب الأغاني ، حيث أن مؤلفه قد ولد ٢٨٤ هـ ، على حين انتهى العصر العباسي الأول (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) حسب تقسيم الكثير من المؤرخين لعصور العباسيين على هذا النسق – وهو ما كان مسلَّمة بالنسبة لنا في هذا البحث وسنة ٢٣٢ هـ ، وهو ما يجعل فترة زمنية طويلة تفصل بين العصر العباسي الأول (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) وبين تأليف الكتاب ، ثم إن البحث الذي نحن بصدده تنتمي مادته التي اعتمدت عليها سنة ٢٣٢ هـ فكيف اتصل أبو الفرج بحكام هذا العصر ، وكيف خرج كتابه بشيء من فضلهم ، وفترة تزيد على الخمسين عاماً تفصل بينه وبينهم ، اعتلى كرسي الخلافة خلالها عدد كبير من الخلفاء ، امتلأت عهودهم بالأحداث السياسية والعلمية ! لكن هذه الدهشة قد تزول إلى حد ما ، وهذه الأسئلة الكثيرة قد تجد لها إجابات ويطمئن المرء إلى وجود دور بالغ الأهمية لأحد حكام العصر العباسي (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) في تأليف كتاب الأغاني ، بل ربما كان لهم دور في مادته نفسها ، وهذا من خلال الكتاب ومؤلفه .

أما عن سبب تأليف الكتاب فقد كان للخليفة هارون الرشيد فيه دورٌ مهم ومباشر ، فقد حدَّث أبو الفرج نفسه قائلاً : " عن أبي أحمد يحيى بن علي بن يحيى المنجم قال : حدثني أبي قال : حدثني إسحق بن إبراهيم الموصلي أن أباه أخبره أن الرشيد – رحمه الله عليه – أمر المغنين ، وهم يومئذ متوافرون ، أن يختاروا له ثلاثة أصوات من جميع الغناء ، فأجمعوا على ثلاثة أصوات أنا أذكرها بعد هذا إن شاء الله .

قال إسحق : فجرى هذا الحديث يوماً عند أمير المؤمنين الواثق بالله ، فأمرني باختيار أصوات من الغناء القديم ، فاخترت له من غناء كل عصر ما اجتمع على براعته ، وإحكام صنعته " [1] .

---

(١) أبو الفرج على بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ – ١٩٦٩ م . طبعه كاملة معها فهارس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، ٧/١ .

ويقول أيضاً " وأخبرني أحمد بن جعفر جحظة قال : حدثني هارون بن الحسن بن سهل ، وأبو العنبس بن حمدون ، وابن دقاق ، وهو محمد بن أبي يحيى المعروف بابن دقاق بهذا الخبر فزعم : أن الرشيد أمر هؤلاء المغنيين أن يختاروا له مائة صوت ، فاختاروها ، ثم أمرها باختيار عشرة منها فاختاروها ، ثم أمرهم أن يختاروا منها ثلاثة ففعلوا "(١) .

ومن خلال البحث وجدنا أن الخليفة العباسي هارون الرشيد قد أمر إبراهيم المُوْصلي وإسماعيل بن جَامِع وفُلَيْح بنُ العَوْرَاء ، أن يختاروا له مائة صورت من الغناء كله ، هي أجملها شعراً ، وأحذقها غناءً وأعظمها فناً ، فاختاروها له ، ثم رفعت إلى الواثق بالله ، فأمر إسحق بن إبراهيم بأن يختار له منها ما رأى أنه أفضل مما كان قد اختير متقدماً ، ويضيف عليها ويحذف منها ، فاختار إسحق ما أمر به الواثق ، ولم يكن المقصود من هذه الاختيارات حذق الغناء فقط ، وإنما يأتي معه جودة الشعر وقوته .

ومن ذلك يمكن أن نقول : إن المائة صوت قد جمعت للخليفة الرشيد ، أشعار أو غناء ، ثم ترك الخليفة الواثق عليها بصمة أخرى ، حينما أمر إسحق الموصلي فيها بأمره .

وبناء على ذلك يمكن أن نقول إن هذه الأصوات كانت جاهزة لأبي الفرج ، وعلى أساس وجودها بني مادته ، ونسق كتابه ، وأضاف إليه كثيراً من الأخبار التي يعترف الدارسون له وحده بالفضل فيها .

ثم إذا عرضنا أن أبا الفرج قد بدأ بالثلاثة أصوات المتفق عليها من المغنيين للخليفة الرشيد ،أدركنا دور الحكام في الكتاب ، ورعايتهم لمن جمعوا أصواته ابتداء ، فمن داخل قصورهم بدأ في عهد الرشيد ، ثم ظل محفوظاً إلى عهد الواثق – ومن وجهة نظر الباحث – حتى عهد أبي الفرج ، يقول أبو الفرج: " ولما جعلنا ابتداءه الثلاثة الأصوات المختارة ، كان شعراؤها من المتأخرين ، وأولهم قطيفة ، وليس من الشعراء المعدودين ولا الفحول ، ثم عمر بن أبي

(١) نفسه : ١ / ٧ .

ربيعة، ثم نصيب ، فلما جرى أول الكتاب هذا المجرى ولم يمكن ترتيب الشعراء فيه ، الحق آخره بأوله ، وجعل على حسب ما حضر ذكره . وكذلك سائر المائة صوت المختارة ، فإنها جارية على غير ترتيب الشعراء والمغنين"[1].

فإن ترتيب الشعراء في كتاب الأغاني ، بل واختيار المائة الأولى منهم ، لم يكن للأصفهاني فيه يد – تقريباً – ولكنه منقول له نقلاً عن قصر الرشيد ، وبأمر منه بشكل مباشر للمغنين المحيطين به ، بل وبمتابعته حينما طلب بعد المائة أجود عشرة ثم أفضل ثلاثة ، وقد التزم أبو الفرج في كتابه هذا الترتيب ، لكنه وسع مادة الكتاب بعد هذه البداية ، واستطرد فيها استطرادات ذكية ، أفادت الدارسين بعده إفادات كبيرة من هذا نعلم أن للبيت الحاكم العباسي دوراً مهماً في بناء كتاب الأغاني ، واختيار مجموعة كبيرة من تراجمه ، هي المائة الأولى على أقل تقدير.

فإذا أنعمنا النظر في اسم الكتاب لمسنا أيضاً نوعاً من المشاركة في وضعه منذ عهد هارون الرشيد ، على أساس أنه اختار له المغنون أصواتاً من الغناء ، ثم إذا بأبي الفرج يسمى كتابه (الأغاني) .

ويرى بعض الدارسين – والحق معهم – أن مادة الكتاب المبثوثة في داخله أكثر بكثير من اسمه ، كما أن التراجم في كتاب الأغاني تقارب خمسمائة ترجمة للشعراء والشاعرات ، فإذا كان ما اختير للرشيد منها مائة ، ثم ما اختير زائداً عليها للواثق غير معروف ، فإن للحكام دوراً في تشكيل جانب كبير من مادة الكتاب نفسها ، علاوة على دورهم في البعث على تأليفه ، أو هيكلته – إذا صح التعبير – بشكل مجمل قبل تصنيفه بفترة طويلة – من الزمن .

وخلاصة هذا كله فإن أبا الفرج الأصفهاني بني كتابه على المائة صوت التي كان الرشيد قد طلب من المغنيين صراحة ، اختيارها ، ويرى الباحث أن الفكرة في الأساس كانت فكرة الرشيد أخذت تسير عبر السنوات حتى وصلت إلى أبي الفرج الأصفهاني ، فبنى عليها مادة كتاب ضخم هو هذا الكتاب ، فليس غريباً على الإطلاق ان نعترف بدور أساسي للحكام في العصر العباسي في كتاب

---

(١) أبو الفرج على بن حسن الأصفهاني ، الأغاني طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ – ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهارس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، الأغاني ، مقدمة المؤلف ، ص ٣ / ج ١ .

الأغاني ، في تسميته ، وفي ترتب التراجم الأولى منه ، وفي اختيار عددٍ كبير من تراجم الشعراء داخله ، بل ربما في فكرته ذاتها .

الحيوان والبيان والتبيين للجاحظ :

الجاحظ هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ، ولد عـــام ١٥٩ هـــ وتوفي عام ٢٥٥ هــ ، وقد كان موسوعة علمية وثقافية ، شهد له بذلك كبيرٌ من أبناء عصره ، فقد كان " أستاذ الثقافة الإسلامية في النصف الأول من القـــرن الثالث ، وكان مجده الأدبي الذائع يعصف بمجد كل أديب ويدوي في كـــل أفـــق ، ويرن صداه سمع كل كاتب وشاعر وخطيب .

وعاش الناس في عصره وبعد عصره عيالاً عليه ، في البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة "[١] .

فقد أخذ اللغة والأدب عن أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري .

وأخذ النحو عن الأخفش .

وأخذ الكلام عن النظَّام .

" وكان يذهب إلى مربد البصرة ليأخذ عن العرب شفاهاً " [٢].

" وأتت له الثقافة اليونانية عن طريق علماء الكلام ومشافهته لحنين بـــن إســـحق وسلمويه وأمثالهما ، وحذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع ، وأَخْذِه عن أبـــي عبيدة ، وتوسع في الثقافات كلها بما كان يقرأ من الكتب كلها "[٣] .

فلم يكن يقع في يده كتابٌ إلا استوفي قراءته كائناً ما كان ، وكان يكتري دكـــاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر ، وعلم الجاحظ وثقافته من الأمور التي لا تخفى علـــى أحد ، وقد وصلنا جانبٌ كبير من علمه من خلال كتبه التي بـــين أيـــدينا ، وإنهـــا

---

(١) محمد عبد المنعم خفاجي ، الحياة الأدبية في العصر العباسي ، ط ١ ، القاهرة ، سنة ١٩٥٤ م ، نشـــر رابطة الحديث ، ص ٣٠٥ .

(٢) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة ١٩٩٨ م، طبعة سنة ٢٠٠٢ م ، ١ /٤٠٣ .

(٣) نفسه : ١ / ٤٠٣ .

لتسهل بشكل واضح بموسوعية علمه ، وشمولية ثقافته ، التي مكنته من الحديث في كل شيء تقريباً ، " فثقافة الجاحظ ثقافة واسعة منوعة ، تحيط بسائر ألوان الثقافات المختلفة التي ما زجت الثقافة الإسلامية في عصرها ، فهو عالم من علماء الدين ، ومتكلم من الطراز الأول للمتكلمين ، وعالم يحيط باللغة وبيانها وآدابها إحاطة لا تقف عند غاية ؛ وقد خاض الجاحظ في جداول الثقافات الأخرى "(١) .

ولا نريد إسهاباً في الحديث عن علم الجاحظ ، " وحسبك أن المأمون كان يقرأ تأليف الجاحظ ويثني عليها ويستجيدها " (٢).

أما كتاباه – الحيوان والبيان والتبيين – فهما من أمهات كتب الأدب ، ولن نتحدث عن محتوى الكتابين ، لأنهما من الكتب الشهيرة ، ومحتواهما ذائع مشهور بين العلماء والمفكرين ، مما يجعل الحديث عن ذلك في هذا المقام يعد من وجهة نظر الباحث من فضول القول ، ويخرج بنا عن منهجية بحثنا هذا ؛ لأن بغيتي أن أثبت شيئاً من الدور إن لم يكن الفضل في إخراج هذين الكتابين إلى الناس إن ثمة دورٌ أو فضلٌ .

وأول ما يريد الباحث إقراره هنا والتأكيد عليه ، أن الكتابين قد ألفا في نهاية العصر العباسي (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) ، أما عن كتاب الحيوان فإن الجاحظ أهداه إلى صديقه الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، وفي ذلك يقول الجاحظ نفسه : "أهديت كتاب الحيوان لمحمد عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار "(٣).

فإذا عرفنا أن ابن الزيات قد وزر للمعتصم ثم الواثق ، ثم فترة قصيرة للمتوكل أدركنا أنه كتب الكتاب بينما كان بن الزيات متمكناً من الوزارة ، خاصة وأن ابن الزيات قد نكب سنة ٢٣٢ هـ ، وكان قد أهدى الكتاب إليه ، فإن هذا

---

(١) محمد عبد المنعم خفاجي ، الحياة الأدبية في العصر العباسي ، ط ١ ، القاهرة ، نشر رابطة الأدب الحديث ، ص ٣٠٧ .

(٢) أبو عثمان عمرو الجاحظ ، البيان والتبيين ، بيروت ، طبعه درا الكتب العلمية ، ط سنة ١٩٢٧ ، نشر السندوبي ، ٢١١/٣ .

(٣) ياقوت الحموري، معجم الأدباء ، القاهرة ، دار المأمون ، ١٦ / ١٠٦ .

الإهداء كان بمثابة الاعتراف بفضل ما للمُهدَي إليه إلى حد ما ، وكان من الضروري التدقيق في شخصية ابن الزيات نفسها لنرى اهتمامه بالعلم من عدمه ، فإذا بالعلماء يثنون عليه ثناءً حسناً ، في رعايته للعلماء ، يقول عنه جورجي زيدان مبيناً دوره في حركه النقل والترجمة " وممن بذلوا المال في نقل العلوم غير الخلفاء ، محمد بن عبد الملك الزيات ، كان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ ألفى دينار في الشهر ، ونقلت باسمه كتب عديدة "[١] .

فقد كان اهتمامه بالعلم والعلماء كبيراً ، وبالجاحظ على وجه الخصوص فقد صحب الجاحظ هذا الوزير ، ولازمه طوال وزاراته الثلاثة ، لاهتمامه البالغ به ، ورعايته له ، بل لاهتمامه بالعلم بصفة عامة ، فإذا عرفنا أن هذا الوزير المحب للعلم ، المؤثر لمرافقة العلماء ، قد أعطى الجاحظ من الأموال ما يكفيه لسد حاجته المادية بشكل مباشر ، أدركنا دروه على الجاحظ خاصة ، جاء في طبقات المعتزلة: أن الجاحظ " اتصل بابن الزيات فأقطعه أربعمائة جريب في الأعالي ، وهي التي تعرف بالجاحظية " [٢].

فإذا تأكدنا من هذا الاهتمام البالغ بالجاحظ من قبل الوزير ، ثم تأكدنا أن الجاحظ لازمه كما يقول أحمد فريد الرفاعي عن هذه الملازمة " ثم انقطع – أي الجاحظ – إلى إلى محمد بن عبد الملك الزيات طوال وزاراته الثلاث"[٣] ، أقول إذا تأكدنا من هذه الرعاية وهذه الملازمة ، ثم بعد ذلك هذا الإهداء أمكننا التوصل إلى شيء قريب من اليقين بفضل ما للوزير على الجاحظ عامة ، وعلى كتابة الحيوان خاصة .

أما كتابه البيان والتبيين ، فقد أهداه الجاحظ إلى ألدِّ أعداء محمد بن عبد الملك الزيات ، وأعني به القاضي أحمد بن أبي دُؤَاد ، وهذا أمر يبعث على الدهشة التي لا تزول إلا إذا عرفنا أن الجاحظ " سيق إلى (أحمد بنُ أبي دُؤَاد)

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ، القاهرة ، دار الهلال ، طبعة راجعها وعلق عليها / حسن مؤنس ، ٣/ ١٧٠.

(٢) ابن المرتضي ، طبقات المعتزلة ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، سنة ١٩٦١ م ، ص ٦٩ .

(٣) عصر المأمون ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ م ، ١ /٣٣٢.

مغلولاً ، لأنه كان من أصحاب محمد بن عبد الملك ، ثم فك قيوده ، وطلب حديثه وبيانه ، وثوقا منه بظرفه وأدبه لا بإخلاصه وولائه " (١).

ويرى الباحث أن إهداء الجاحظ كتاب البيان والتبيين إلى القاضي ، إنما هو نوع من التودد إليه خوفاً من بطشه ليس إلا ، لأني لم أجد بينه وبين القاضي صداقة ذات بال كما كان الحال مع الوزير ، خاصة أن للجاحظ رسالة يستعطف فيها قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد خوفاً من تنكيله به ، لكن القاضي على أية حالة يرضي عنه ، ويسمح له بمجالسته ، ومسامرته ، ثم إذا بالرجل يضاعف جهده ويخرج هذا الكتاب العالي القيمة ، ويستعطفه به بشكل عملي هو إهداؤه إليه، فيعطيه القاضي خمسة آلاف دينار ، كما جاء في معجم ياقوت الحموري .

إذاً فإن لرجال الحكم دوراً ما في إخراج هذين الكتابين المهمين اللذين أثنى عليهما مؤرخو الآداب في كل العصور ، وإن كان الجاحظ هو صاحب الفضل الأكبر لا شك في ذلك ، بشخصية المحبة للعلم والثقافة ، المثابرة في التحصيل والتأليف ، العظيمة ، التي تركت أثراً كبيراً في مسيرة الأدب إبداعاً وتأريخاً ، وإن كان هذا لا يمنع أن يكون للحكم العباسي ممثلاً في أحد وزرائه وهو محمد بن عبد الملك الزيات ، وقاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد دور ما ، بشكل أو بآخر في إنتاج الجاحظ كتابيه ، اللذين أفاد منهما الأدب إفادات عظيمة .

---

(١) محمد عبد المنعم خفاجي ، الحياة الأدبية في العصر العباسي ، ط ١ ، القاهرة ، نشر رابطة الأدب الحديث ، ص ٣٠٦ .

المبحث الثالث - الدور السياسي

مفهوم السياسة من وجهة النظر الإسلامية يعني : تدبير شئون الأمة حسب التعاليم الإسلامية ، التي تتناول الجوانب الدينية والدنيوية معاً ، " ذلك أن الإسلام كما فهمه المسلمون الأولون – دين وسياسة ، عقيدة ونظام ، فالدين والسياسة متلازمان في الشريعة الإسلامية "(١) .

وقد قام الحكام العباسيون بهذا الدور إلى حد كبير ، فلم يفصلوا الدين عن الدولة ، بل ظلوا ذا بين عن الدين ، كما حافظوا على كرسي الخلافة في عهود قوتهم ، فالمهدي يتتبع الزنادقة ويستأصل شأفتهم ، والرشيد يحج عاماً ويغزو عاماً، والمعتصم يجيش الجيوش لنجدة امرأة مسلمة في أيدي العدو ، وغير هذه المواقف التي يتضح من خلالها حفاظ الحكام على تعاليم الدين ، ومحاربة أعدائها، والقيام بتعاليمه ، والانتهاء عند نواهيه إلى حد كبير ، وإن كان لهم تجاوزاتهم الدينية ، ومخالفاتهم البسيطة ، فما هي إلا شهوات ، لا تمس عقيدة الإيمان الحقيقة في شيء حسب تصوري ، وكما حافظوا على تعاليم الدين ، فإنهم أهرقوا أنهاراً من الدماء من أجل كرسي الخلافة ، ولا يمكن للتاريخ أن ينسى آلاف الأرواح التي أزهقها السفاح ، ثم المنصور ، ثم الأمين والمأمون ، من أجل هذا المنصب المهم منصف الخليفة .

أما ما يود الباحث الحديث عنه في هذا الموضوع من البحث ، فهو ما قامت به السياسة من دور في خدمة الأدب ، وما قام به حكام العباسيين أنفسهم من تحريك لقرائح الشعراء والأدباء للمشاركة في القضايا السياسية بفنهم وأدبهم ، ومن إثارة موضوعات يتغنى بها الشعر في قصائدهم ومقطوعاتهم ، بشكل مباشر مقصود ، يتمثل في قصائد المدح التي خبرها الشعراء بتشجيع من الحكام أنفسهم ، مغنين فيها بانتصارات هؤلاء الحكام في حروبهم السياسية داخلياً وخارجياً ، من

---

(١) صلاح الدين الهادي ، اتجاهات الشعر في العصر الأموي ، القاهرة ، دار الثقافة العربية ، سنة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م ، ص ٨٠ .

أمثال قصائد مروان ابن أبي حفصة في المهدي والرشيد ، وفي معن بن زائدة الشيباني وجعفر بن يحيى البرمكي وغيرهم ، وأمثال علي بن جبلة العَكَوَّك في قصائده في أبي دُلفِ العِجْلِي ، وفي حُمَيْدِ الطُوْسِيِّ ، وأبو تمام وشعره العظيم الذي ساير الأحداث السياسية والانتصارات العباسية ، وأشهر قصائده حين فتح الله للمسلمين عمورية علي يد أبي إسحق المعتصم ، وغير هؤلاء من الشعراء ممن يطول المقام بحصرهم جميعاً ، أو الذود عن أحقية العباسيين بالخلافة ، وما يتطلبه ذلك من حجج منطقية ، وبراهين عقلية ، كما يقول مروان بن أبي حفصة في قصيدة يمدح بها المهدي : (١)

يَابْنَ الَّذِيْ وَرِثَ النَّبِيَّ مُحَمَّداً ∴ دُوْنَ الأقارب مِنْ ذَوِيْ الأرْحَامِ

الوَحْيُ بَيْنَ بنِيْ البَنَاتِ وَبَيْنَكُمْ ∴ قطَعَ الخِصَامَ فَلَاتَ حِيْنَ خِصَامِ

مَا للنِّسَاءِ مَعَ الرِّجَالِ فريْضَة ∴ نَزَلَتْ بِذَلِكَ سُورَةُ الأنْعَامِ

أنَّ يَكُوْنُ ولَيْسَ ذَاكَ بكَائِن ∴ لِبَنِيْ البَنَاتِ وِراثَةُ الأعْمَامِ

وقد أجاد مروان بن أبي حفصة في هذا الموضوع ، حينما استخدم البراهين والأدلة من القرآن الكريم للتدليل على أحقية العباسيين في الخلافة .

وقد كان الصراع على الخلافة ميداناً فسيحاً تسابق فيه الشعراء ، يمدحون هذا ، ويذمون ذاك ، ويبرهنون على أحقية هذا ويبعدون الأحقية عن ذاك ، مما جعل ذلك باباً طويلاً من الأبواب التي أخرجت لنا كماً وافراً من الشعر الذي يدور في فلك السياسة بشكل أو بآخر .

فهذا سلم الخاسر يمدح الرشيد حين عقد البيعة للأمين بولاية العهد :

قَدْ وَفَّقَ اللهُ الخَلِيْفَةَ إذْ بَنَى ∴ بَيْتَ الخَلِيْفَةِ للهِجَان الأزْهَر

فَهُوَ الخَلِيْفَةَ عَنْ أبِيْهِ وَجَدِّهِ ∴ شَهِدَا عَلِيْه بِمَنْظَرِ وَبِمخْبَرْ

قدْ بَايَعَ الثَقْلَان فِيْ مَهْدِ الهُدَى ∴ لِمُحَمَّدِ بْن زُبَيْدَةِ ابْنَةِ جَعْفَر (٢)

---

(١) مروان بن أبي حفصة ، ديوان ، ط ٣ ، دار المعارف ، جمع وتحقيق وتقديم حسين عطوان ، ص ١٠٤.

(٢) أبو جعفر محمد جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ م تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٨ / ٢٤٠ .

ويقول منصور النمري أيضاً :

أمْسَتْ بمَرْوٍ عَلَى التَّوْفِيْق قدْ صَفقتْ .·. عَلَى يَدِ الفَضْلِ أيْدِ يْ العُجْمِ والعَرَبِ

ببيْعَــةٍ لِــوَلِيِّ العَهْــدِ أحْكَمَهَــا .·. بِالنُّصح مِنْهُ وَبالإشْــفَاق وَالحَــدَبِ

قد وَكَّدَ الفَضْلُ عَقْداً لا انْتِقَاضَ لَــهُ .·. لِمُصْطَفَى مِنْ بَنِىْ العَبَّــاس مُنْتَخَــبِ [1]

ثم يكتب الرشيد عهداً بعد ذلك لأبنائه الثلاثة ، الأمين ، ثم المأمون ، ثم القاسم ، فينبري الشعراء على الفور يحمدون هذا المبايعة ، فيقول سَلْمٌ الخاسِرُ :

بَــايَعَ هَــارُوْنٌ إمَــامُ الهُــدَى .·. لِذِى الحِجَــى وَالخُلُــق الفَاضِــلِ

المُخْلِــفِ المُتْلِــفِ أمْوَالَــهُ .·. وَالضَّــامِنِ الأَثْقَــالَ لِلْحَامِــلِ

والعَــالمِ النَّافِــذِ فِــيْ عِلْمِــهِ .·. وَالحَــاكِمِ الفاضِــلِ وَالعَــادِلِ

فَــتَمَّ بالمَــأمُوْن نُــوْر الهُــدَى .·. وَانْكَشَفَ الجَهْــلُ عَــن الجَاهِــلِ [2]

وقال عَبْدُ المَلِكِ بنُ صالح :

حُبُّ الخَلِيْفَــةِ حُــبٌّ لا يُــدِيْنُ بِــهِ .·. مَنْ كَانَ للهِ عــاصِ يَعْمَــلُ الفِتَنَــا

الله قَلَّــدَ هَاروْنَــاً سِــيَا سَــتَنَا .·. لمَّا اصْطَفَاهُ فأحْيَا الدِّيْنَ والسُّــنَنَا

وَقلَّــدَ الأرْضَ هَــارُوْنٌ لِرَأفَتِــهِ .·. بِنَا أمِينْــاً ومَأمُوْنَــاً وَمُؤْتَمَنَــا [3]

ولما بايع الأمين لابنه موسى قال شاعر من أهل بغداد :

أضَــاعَ الخِلافَــة غِــشُّ الــوَزِيرْ .·. وَفِسْــقُ الإمَــامِ وَجَهْــلُ المُشِــيْرُ

فَفَضْــلٌ وَزِيْــرٌ وبَكْــرٌ مُشَــيْرٌ .·. يُرِيْدَان مَــا فيــهِ حَتْــفُ الأمِيْــرْ

لُــــوَاطُ الخَلِيْفَــــةِ أعْجُوْبَــــة .·. وأعْجَــبُ مِنْــهُ خَــلاَقُ الــوَزِيْرْ

فهَــذاَ يَــدُوْسُ وَهَــذا يُــدَاسُ .·. كذَاك لعَمْرِيْ اخْــتِلاَفُ الأمُــورْ [4]

---

(١) نفسه : ٨ / ٢٤٠ .

(٢) نفسه : ٨ / ٢٧٦ .

(٣) نفسه : ٨ / ٢٧٦ .

(٤) نفسه : ٨ / ٣٩٦ .

بل إن شاعراً آخر يهجو الأمين نفسه هجاءً مُرًّا ، ويرى عدم أحقيته في الخلافة نفسها فيقول :

لِـمَ نَبْكِيْـكَ لِمَـاذَا ؟ للطَّـرَبْ .·. يَا أَبَـا مُوْسَـى وَتَـرويْح اللَّعِـبْ
وَلِتَـرْكِ الخَمْـس فـي أوْقَاتِهَـا .·. حَرصاً مِنْـكَ عَلَـى مَـاءِ العِنَـبْ
لَـمْ تَكُـنْ تَصْـلُحُ لِلْمُلْـكِ وَلَـمْ .·. تُعْطِـكَ الطَّاعَـة بالمُلْـكِ العَـرَبْ
أوْجَـبَ اللهُ عَلَيْنَـا قتْلَـهُ .·. فـإذَا مَـا أوْجَـبَ الأمْـرَ وَجَـبْ
كَـانَ وَاللهِ عَلَيْنَـا فِتْنَـةً .·. غضِـبَ اللهُ عَلَيْـهِ وكَتَـبْ[١]

وعلى هذا الحال ، لا يزال الصراع على كرسي الخلافة مصدر قول للشعراء ، ما بين مؤيد لخليفة ما ومعارض له ، ولا ننسى أن هذا الصراع على الكرسي بين الخلفاء وولاة العهود ، قد تسبب في نكبة بعض الشعراء ، فها هو أو نخيلة الشاعر يغري المنصور بخلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ، وبعقده لابنه المهدي فيكون ثمن هذا الأغراء حياته[٢] .

إذاً فإن هذه الأحوال السياسية ، قد تركت لنا كماً غير قليل من الشعر، نتحدث عنها بتدقيق أكثر عن الحديث عن دور الحكام في أغراض الشعر العباسي.

ولم يكن دور الحكام السياسي مقتصراً على الصراع على كرسي الخلافة فقط ، وإنما اتسع هذا الدور ليشمل غير ذلك من الصراعات داخل البيت العباسي نفسه ، كالصراعات المذهبية ، والدينية ، فهذا شيعي ، وهذا سني ، وذاك ماجن مستهتر ، وهذا تقيٌّ ورع ، وغيره مغنى ... إلى غير ذلك ، وقدٍ خاض الشعراء في كل هذه الاضطرابات السياسية ، وأبدعوا فيها القول ، لكن باباً سياسياً أوسع من ذلك كان مفتوحاً أمام الشعراء ، قالوا فيه فأبدعوا ، وجاءت قرائحهم على أعلى ما تكون الإجادة ، وهو فن تأريخ الانتصارات السياسية الكبيرة – إذا صح القول – فلقد

---

(١) نفسه : ٨ / ٥٠٠ .

(٢) أبو الفرج على بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ – ١٩٦٩ ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، ٢٣ / ٨١٠٧ .

مدحوا القواد والخلفاء والوزراء بقصائد مملوءة صدقاً شعورياً ، لم يلو الشاعر بها عنق قريحته ، لأن الانتصارات السياسية يكون الشاعر فيها جزءاً من المنتصرين كممدوحه تماماً ، فيمدحه مدحاً صادقاً ، فلم تفت الشعراء معركة حربية انتصر فيها العباسيون إلا وجدنا الشعراء يرصدون لنا تفاصيلها فهذا علي بن جبلة يصف جيشاً للمسلمين على قيادته حُميدٌ الطوسي ، يقول :

غــدَا بــأمِيْر المُــؤْمِنِيْنَ ويُمْنِــهِ .·. أبُوْ غَانِمٍ غَدْوَ النَّـدى وَالسَّـحَائِبِ

وَضَاقتْ فِجَاحُ الأرْض عَنْ كلِّ مَوْكِـبٍ .·. أحَــاط بــهِ مُسْــتعْلياً للمْوَاكِــب

كأنَّ سُــمُوَّ النَّقْــع وَالبِــيْضَ تَحْتَــهُ .·. سَمَاوَاتُ لَيْلٍ أسْفَرَتْ عَنْ كَوَاكِبِ(١)

ومروان بن أبي حفصة يمدح الفضل بن يحيى البرمكي حين قضى على عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، فيقول :

ظَفَــرْتَ فَــلاَ شُــلَّتْ يَــدٌ بَرْمَكِيَّــة .·. رَتَقْتَ بها الفَتْقَ الذِيْ بيْنَ هَاشِــمِ

عَلَى حِيْن أعْيَــا الــرَّاتِقِيْنَ التِئامُــهُ .·. فكَفُّــوا وَقَــالُوا لَــيْسَ بــالمُتلائِمِ

فأصْبَحْتَ قدْ فــازَتْ يَــدَاك بخُطَّــةٍ .·. مِنَ المَجْدِ بَاق ذِكْرُهَا فِيْ المَوَاسِمِ

ومَازَالَ قدْحُ المُلْــكِ يَخْــرُجُ فــائزاً .·. لَكُمْ كُلَّمَا ضُمَّتْ قدَاحُ المُسَــاهِمِ(٢)

ولما ظفر الأفشين قائد المعتصم ببابك الخُرْمي ، أدخل المعتصم عليه الشعراء يمدحونه ، وأمر لهم بصلات ، فقال فيه أبو تمام :

بَــذَّ الجَــلادُ البــذَّ فهْــوَ دَفِــيْنُ .·. مَا إنْ بــهِ إلاَّ الوُحُــوْشَ قطِــيْنُ

لَمْ يَقْر هَذَا السَّيفُ هَذَا الصَّــبْر فــي .·. هَيْجَــاءَ إلاَّ عَــزَّ هَــذَا الــدِّيْنُ

قدْ كَــانَ عُــذْرَة سُــؤْدَدٍ فافْتَضَّــهَا .·. بالسَّيْفِ فحْلُ المَشْرق الأفْشِــيْنُ(٣)

ثم تشتهر زندقة الأفشين ، فيفتك به المعتصم ، وفيها يقول أبو تمام :

الحَــقُّ أبْلَحــجُ والسُــيُوْفُ عَــوَار .·. فحَذَار مِنْ أسَــدِ العَــرِيْن حَــذَار

---

(١) علي بن جبلة ، ديوانه ، ط ٣ ، دار المعارف ، جمع وتحقيق وتقديم ، حسين عطوان ، ص ٣ .

(٢) مروان بن أبي حفصة ، ديوان ، ط ٣ ، دار المعارف ، جمع وتحقيق وتقديم حسين عطوان ، ص١٠٣.

(٣) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل ،والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، ط دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ م ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٩ / ٥٥ .

والتي يقول فيها :

جَالــتْ بخَيْــذَر جَوْلَــة المِقْــدَار .·. فأحَلَّــهُ الطُغْيَــانُ دَار بَــوَار

كَــمْ نِعْمَــةٍ لله كانَــتْ عِنْــدَهُ .·. فكَأنَّهَــا فِــي غُرْبَــةٍ وَإسَــار

كُسِيَتْ سَــبَائِبُ لُؤْمِــهِ فتَضَــاءَلَتْ .·. كَتَضَاؤُلِ الحَسْــنَاء فِــي الأطْمَــار

مَازَالَ سِــرُّ الكُفْــر بَــيْنَ ضُــلُوْعِهِ .·. حَتَّى اصْطُلَى سِرَّ الزنَادِ الوَاري(١)

وعلى هذه الصورة ، تابع الشعراء الانتصارات السياسية ، وأرّخوا لهــا تأريخــاً أدبياً ، يحيط بكل انتصار سياسي ، سواء أكان عسكرياً أم مذهبياً .

ولم يقتصر الأمر على هذا المدح السياســي الــذي تتبــع فيــه الشــعراء انتصارات الحكام ، فكان ميداناً فسيحاً من ميادين القول ، ولكن المشاركة تحــت نحواً آخر ، تجاه رثاء القادة العظام الذين سقطوا شهداء في المعارك التي خاضتها الدولة ضد أعدائها ، فما من قائد مرموق يسقط أو خليفــة يمــوت ؛ إلا وينبــري الشعراء في رثائه بعواطف ملتهبة حيناً ، وباردة حيناً آخر ، فهذا علي بن جبلــة يرثي حميداً الطوسي فيقول :

أللَّدهْر تَبْكِيْ أمْ عَلَــى الــدَّهْر تَجْــزَعُ .·. وَمَــا صَــاحُب الأيَّــامِ إلاَّ مُفَجَّــعُ

ولَوْ سَهُلَتْ عَنْكَ الأسَى كَانَ فِي الأسَى .·. عَــزَاءُ مُعــزٍ لِلَّبِيْــبِ وَمقْتَــعُ

تَعَــزَّ بِمَــا عَزَّيْــتَ غَيْــرَك إنَّهَــا .·. سِهَامُ المَنَايَــا رَائِحَــاتٌ وَوُقَــعُ(٢)

ولقد مدح الشعراء حُمَيْداً فأكثروا ، ثم سقط شهيداً بصورة مفاجئة ، جعلت الشعراء يبكونه بكاءً مُرًّا ، لم يحظ كثيرون بمثل رثائه .

وهذا مروان بن أبي حفصة يرثي معن بن زائدة الشيباني فيقول :

مَضَــى لِسَــبِيْلِهِ مَعْــنٌ وَأبْقَــى .·. مَكَــارم لَــنْ تَبِيْــدَ وَلَــنْ تُنَــالاَ

كَأنَّ الشَّــمْسَ يَــوْمَ أصِــيْبَ مَعْــنٌ .·. مِــنَ الإظْــلاَمِ مُلْبَسَــة جَــلالا

هُــوَ الجَبَــلُ الَّــذِيْ كَانَــتْ نَــزَارٌ .·. تَهُــدُّ مِــنَ العَــدُوِّ بِــهِ الجِبَــالاَ

وَكَــانَ النَّــاسُ كُلُهُــمُ لِمَعْــنٍ .·. إلــى أنْ دَارَ حُفْرَتَــهُ عِيَــالاَ(١)

---

(١) أبو تمام ، ديوان ، ط ٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، تحقيق / محمد عبده عزام ، جـ١/٣٠١ .

(٢) علي بن جبلة ، ديوان ، ط ٣ ، دار المعارف ، جمع وتحقيق وتقديم حسين عطوان ، ص ٨١ .

وهكذا انبري الشعراء يبكون الأبطال والقواد السياسيين ، وإن كان مطمح الشاعر من رثائه نوالا أو غيره ، فإن ذلك أمر آخر ، فهو رثاء سياسي على أية حـال ، شارك فيه الحاكم – وإن كان ميتاً – الشاعر في الدور الذي من أجله ولد الفـن ، بشجاعته ، أو بكرمه الزائد قبل موته أو بشهرة شخصيته .

ومن الحكام العباسيين الذين رثاهم الشعراء رثاء حاراً قد لا ينساه الزمن ، وزراء الرشيد البرامكة ، فقد كانوا أيادي سخية ، أفاد منها الناس بكافة مستوياتهم ، حتى إذا نكبوا تركوا في الناس حسرة كبيرة ، وألماً واسعاً ، فجَّرَ ينابيع الشـعر عنـد الشعراء ، فغدوا يصرخون عليهم أشد الصراخ من شعراء ليسـوا مـن الشـهرة بمكان ، فهذا شاعر ذكره الطبري في تاريخه لم يذكر اسمه يقول :

هَوَتْ أَنَجُمُ الجَدْوَىْ وَشُلَّتْ يَدُ النَّـدَى .:. وَغَاضَتْ بُحُورُ الجُودِ بَعْدَ البَرَامِـكِ

هَوَتْ أَنْجُـمٌ كَانَـتْ لأَبْنَـاءِ بَرْمَـكٍ .:. بِهَا يَعْرِفُ الحَادِيْ طَرِيْقَ المَسَالِكِ[2]

وقد عقد الطبري باباً في تاريخه لما قيل في البرامكة بعد زوال ملكهم من الشعر . ولم يقتصر هذا الباب من الرثاء على رثاء الأفراد ، خلفاء أو وزراء أو قواد ، بل وجدنا باباً جديداً من الرثاء يُسْتَحْدَثُ في الشعر العربي ، وهو بكاء المدن الزاهرة، يقول الطاهر أحمد مكي : " بكاء المدن الزاهرة شعراً حين تـأتي عليهـا الفـتن المدمرة ، والممالك حين تذهب بها الثورات العاتية ، له أصولٌ مشرقية ، أول مـا نلقتي بها في تلك الدموع الغزيرة التي ذرفها الشعراء على بغداد أثناء الفتنة بـين الأمين والمأمون عام ١٩٧ هـ ، حين حاصرها طاهر بن الحسين قائـد جـيش المأمون ، ولاقت خلاله بلاء شديداً ، يعجز عنه الوصف[3]. وقد صور الشـعراء هذه النكبة بدقة ، وجسدوها صوراً حية ، فوقعه يوم الأحد ، يقول الشاعر عنها :

وَقْعَـــةُ يَـــوْمَ الأحَـــدِ .:. صَـــارَتْ حَـــدِيْثَ الأبَـــدِ

كَـــمْ جَسَـــدٍ أبْصَـــرْتُهُ .:. مُلْقــىً وَكَـــمْ مِـــنْ جَسَـــدِ

وَنَـــاظِرِ كَانَـــتْ لَـــهُ .:. مَنِيَّـــةُ بالرَّصَـــدِ

---

(١) مروان بن أبي حفصة ، ديوان ، ط ٣ ، دار المعارف ، جمع وتحقيق وتقديم حسن عطوان ، ص٧٩.

(٢) ٣٠١/٨ .

(٣) دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، ط ٣ ، القاهرة ، دار المعارف ، ص ٢٠١ .

أتَـــــــاهُ سَـــــــــهْمٌ غَـــــــائِرٌ ∴ فَشَـــــــقَّ جَـــــــوْفَ الكَبـــــــدِ
وَصَـــــــائِح يَـــــــا وَالِـــــــدِيْ ∴ وَصَـــــــائِح يَـــــــا وَلَـــــــدِيْ[١]

ويقول آخر في وقعة يوم السبت :

وقعَةُ السَّـبْتِ يَـوْمَ دَرْبِ الحِجَـارَهْ ∴ قطَعَـتْ قَطْعَـةَ مِـنَ النَظَّـارَهْ
ذَاكَ مِـنْ بَعْـدِ مَـا تَفَـانَوْا وَلَكِـنْ ∴ أهْلَكَـتْهُمْ غَوْغَاؤُنَـا بالحِجَـارَهْ[٢]

وبعد كثير من الوقعات يتم تدمير المدينة الزاهرة تدميراً شديداً ، ويبكيها الشعراء في أشعارهم ، وفيها يقول العِتْرِيّ :

مَنْ ذَا أصَـابَكِ يَـا بَغْـدَادُ بـالعَيْن ∴ ألَمْ تَكُـونِي زَمَانـاً قُـرَّة العَـيْنِ!
ألَمْ يَكُنْ فِيْـكِ قَـوْمٌ كَـانَ مسْـكَنُهُمْ ∴ وَكَانَ قُرْبُهُمُ زَيْنـاً مِـنَ الـزَّيْنِ!
صَاحَ الغُرَابُ بِهِمْ الْبَـيْنِ فـافْتَرَقُوْا ∴ مَاذَا لَقِيْتَ بَهمْ مِنْ لَوْعـةِ البَـيْنِ !
أسْـتَودِعُ الله قوْمـاً مَـا ذَكَـرْتُهُمُ ∴ إلاَّ تَحَدَّرَ مَاءُ العَـيْنِ مِـنْ عَيْنِـيْ
كَـانُوْا فَفَـرَّقَهُمْ دَهْـرٌ وَصَـدَّعهُمْ ∴ وَالدَّهْرُ يَصْدَعُ مَا بيْنَ الفَـرِيْقَيْنِ[٣]

وبيكيها الخُرَيْميُّ *[٤] في قصيدة طويلة يقول فيها :

فإنَّهَـا أصْـبَحَتْ خَلايـا مِـنَ الْـم ∴ إنْسَـان قَـدْ أدْمِيَـتْ مَحَاجِرُهَـا
قَفراً خَـلاَءً تَعْـوِيْ الكِـلاَبُ بهَـا ∴ يُنْكِـرُ مَنْهَـا الرُسُـوْمَ زَائِرُهَـا
وأصْـبَحَ البُـؤْسُ مَـا يُفَارقهَـا ∴ إلْفاً لَهـاَ والسُـرُوْرُ هَاجِرُهَـا[٥]

---

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ٨ / ٤٦١ .
(٢) نفسه : ٨/٤٦٣ .
(٣) نفسه : ٨ / ٤٤٧ .

(٤) * هو إسحاق بن حسان بن قوهي الصفدي أبو يعقوب الخريمي ويعقوب الصفدي أصلاً التركي جنساً الخريمي ولاء والصفدكورة قصبتها سمرقند وقيل هما صفدان صفد سمرقند وصفد بخاري . شاعر مطبوع وصفه أبو حاتم السجستاني بأشعر المولدين وخراساني الأصل من أبناء الصفد ولد في الجزية الفراتية وسكن بغداد واتصل بخريم الناعم فنسب إليه أو كان اتصاله بابنه عثمان بن خريم ، ت ٢١٢ هـ .ينظر : خير الدين الزركلي ، الإعلام ، ط ١٠ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٩٢ . ٢٢٤/١.
(٥) الطبري تاريخ الرسل والملوك ، ٨/٤٤٩ .

وهكذا غدت السياسة ميداناً فسيحاً من ميادين القول ، قال فيها الشعراء فأجادوا وأثروا ، وقد كان للبيت الحاكم – بصفته مركزاً سياسياً – دورٌ في تحريك هذه المواهب الشعرية للجري والخوض في الشئون السياسية ، وبشكل مباشر ، ممثل في المدح وبعض الرثاء ، وغير مباشر في بعض الرثاء ، وفي تصوير المعارك الحربية .

إذاً يمكننا أن نعترف بدور سياسي للحكام العباسيين ، أثري الحركة الأدبية لما دار في كنفه من أدب رفيع وشعر كثير ، امتلأت به أمهات الكتب ، وبطون الدواوين الشعرية .

الفصل الثالث

التجديد في الشعر العباسي

المبحث الأول

الاهتمام بالمـــــدح

التطور سنة من سنن الحياة المسلَّم بها ، فالنظريات العلميــة الكبــرى لــم تكتشف طفرة واحدة ، فما دام عقل الإنسان قادراً علــى التفكيــر ، فلــن ينتهــي التطور، ولن يتوقف التجديد ، وليس هذا في نظريات العلم التجريبي فقط ؛ بل في مجال الفكر والفن أيضاً ، فإن التطور في مجالها لن يتوقف ، والتجديد لن يصــل إلى نهاية ، ما دام الإنسان يبدع ويتفنن في مجالات الفكر والفن المختلفة . والأدب من هذه الأشياء التي تتسق وهذه النظريات بلا شــك ، فتطــوره مســتمر عبــر العصور ، والتجديد فيه لا يتوقف ، وفي الفترات التي كانت تحدث له انتكاسة عبر تاريخه الطويل ، فإنه ما يفتأ يستفيق ، ويكمل مسيرة تطوره ، وقد حــدثت هــذه الانتكاسة للأدب العربي في بعض العصور ، ثم إذا به ينطلق في مسيرة التطــور والتجديد عبر الأيام والسنوات .

ومن الطبيعي أن يتأثر الأدب – إيجاباً أو سلباً – بالدول والحكومات التــي يعيش في ظلها ، فما كان جائزاً في عصر ما ؛ يصبح غير جائز ولا مقبول فــي عصر آخر " فالفضائل التي كان يمدح بها الجاهلي ، دخلها شيء من التعديل مــن وجهة النظر الإسلامية ، فوصف الممدوح بالفتوة ، وشرب الــراح والمقــامرة ، والإقبال على الشهوات ، أصبح من المساوئ والرذائل التــي ينبغــي للمســلم أن يتجنبها ويتحاشاها لينجو بدينه "(١) .

فلما استظل الناس بظل الإسلام – وأصبحت لهم حكومة – إن صح التعبير – أو أصبح لهم نظامٌ ، تحول ما كان مدحاً إلى ذم ، وهكذا .. ، يتأثر الأدب فــي موضوعاته بالحكومات التي خضع لها قائلوه ، ويسرى هذا الأمر في تطور الأدب أيضاً ، فقد يزدهر وينشط في ظل دولة ما ، أو ينكمش وينحسر في ظــل دولــة أخرى ، بل إنني أرى أن حاكماً واحداً قد تتضح آثاره في الأدب إذا قورن بحــاكم آخر في نفس الدولة ، وقد يزدهر غرض من أغراض الشعر في ظل حاكم مــا ،

---

(١) محمد مصطفى هدارة ، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ط ١ ، بيروت ، مطبعة دار العلوم العربية ، سنة ١٤٠٨ م – ١٩٨٨ م ، ص ٣٩٥ .

على حين ينحسر في ظل حاكم آخر ، وقد كان هذا واضحاً في الدولة العباسية في عصرها (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) .

وقد رأينا أن العصر العباسي قد شهد نهضة ثقافية كبيرة ، يتأثر من انفتاحه على ثقافات مختلفة ، كالثقافة الهندية ، والفارسية ، واليونانية ، بجانب نهضة الثقافة العربية والإسلامية نفسها ، ثم انصهار ذلك كله في بوتقة واحدة ، جعلت النهضة الثقافية بارزة في هذا العصر عن غيره من العصور قبله ، وتركت آثارها في كثير من مناحي الحياة المختلفة بما في ذلك الأدب بشكل خاص .

أما حكام هذا العصر (١٣٢ – ٣٢٣ هـ) ، فقد تحدثنا عن محددات ثقافتهم تفصيلاً ، وأوضحنا شمولية هذه الثقافة عند غالبيتهم ، بسبب اغترافهم الكم الوافر للثقافات المختلفة ، وتشجيعهم للعلماء والأدباء ، ووقوفهم كسند للمفكرين والشعراء ، وتوجيه العلماء والمؤلفين لينضجوا العلوم ، وقد ثبت أن للحكام دوراً كبيراً في حركة العلم والأدب ، وما تزال آثارهم تنفع الناس كما نفعتهم في القديم، ويكفي أن يعترف كثير من العلماء والمفكرين بالخلفاء العلماء في العصر العباسي (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) .

وقد اتفق كثيرٌ من المؤريخين على أن الشعر في العصر العباسي قد تطور تطوراً كبيراً ، يقول محمد عبد العزيز الموافي عند حديثه عن النهضة الثقافية في العصر العباسي " وقد تأثر الشعر بهذه النهضة ، فتطور تطوراً ملحوظاً ، شمل الكثير من جوانبه "[١].

ويصفه هدارة بالتطور الهائل[٢] ، بل إن طه حسين يرى أن " الشعر في أيام بني العباس قد سلك طريقاً تكاد تخالف كل المخالفة طريقة أيام بني أمية، فنشأت معان جديدة وذهب الشعراء مذاهب مختلفة في وصف هذه المعاني والتعبير عنها ، ونشأ عن هذه المذاهب المختلفة دروب من التصرف في فنون القول ، والاختيار بين ألوان الكلام "[٣] .

(١) حركة التجديد في الشعر العباسي ، مكتبة الشباب ، سنة١٩٩١ م ، ص ٥٨ .

(٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص ٣٩٤ .

(٣) حديث الأربعاء ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، ٢ / ٢٠ .

فقد كان تطور الشعر في العصر العباسي (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) من الأمور البارزة ، وشمل هذا التطور الشكل والمضمون . ولقد طالعت دواوين شعراء هذا العصر ، وأخبارهم المنتشرة في أمهات كتب الأدب والتاريخ ، وصلتهم بحكام عصرهم ؛ لمعرفة ما إذا كان للحكام دورٍ أو أثر في أغراض الشعر العباسي أو في توجيهها وجهة ما ، وأرى أن للحكام أثر بارز ودور مهم .

في تجديد أغراض الشعر في العصر العباسي (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) فلم تكن معظم الأغراض بمنأى عن بلاط الخليفة أو القائد أو الوزير ، وقد بدأ أثرٌ للحكام في هذه الأغراض بدرجة كبيرة .

وإذا ذهبنا نستقصي أهم أغراض الشعر العباسي فإننا سنجد للحكام أثراً في توجيهها وجهة ما ، من ذلك أثرهم في المدح ، وفي الغزل ، والزهد ، والهجاء ، وهي أغراض ، قديمة عرفت قبل العباسيين ، أو الشعر التعليمي ، وشعر الفكاهة والتندر ، والخمريات ، وهي أغراض جديدة ولنذهب مع كل غرض من هذه الأغراض ، نحاول نلمس أثر الحكام في توجيهه وجهة ما أو صبعة بصبغة ما .

الاهتمام بالمدح :

ظل المديح على رأس أغراض الشعر التي أبدع فيها الشعراء في العصر العباسي (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) ، وقد تحدثنا آنفاً أنه على رأس أغراض الشعر الرسمي ، الذي استأثر بالفن كمًّا وكيفاً ، وليس هذا بغريب على هذا الغرض بصفة خاصة ، فهو أكثر الأغراض جلباً للأموال ، وأكثرها قرباً من أصحاب السلطان ، وما دام هناك قادر على المنح ومحتاج إلى العطاء فلابد أن يزدهر المدح ، كما يقول الموافي[(١)] ، ولقد أبدع شعراء هذا العصر مطولات في مديح الخلفاء والوزراء ، والقواد ، وولاة العهود ، وأبناء الحكام ، والكتاب ، وغيرهم من الشخصيات التي أحاطت بحكام بني العباس ، بل مدحوا في بعض الأحيان

(١) حركة التجديد في الشعر العباسي ، ص ٦٣ .

بعض الأغنياء ، أو الأصحاب إلى غير ذلك ، وقد مدحوا أيضاً المواضع، والمدن، والبلدان .
وقد كان لحكام العصر أثر في شعر المديح على وجه الخصوص ، ويمكن تحديد دور الحكام فيه في النقاط الآتية :

الاهتمام بالمدح السياسي :

يصعب فصل الأدب – بمفهومه العام – عن السياسة ، إذ لم يخلُ عصرٌ من العصور ، ولم تخل فترة من الفترات من تزاوج بين الأدب والسياسة ، فيشارك الساسة والحكام في الأدب أحياناً ، ويشارك الأدباء في السياسة في كثير من الأحيان ، وينتج عن هذا التزاوج وهذا التلازم كمٌ وافرٌ من الفن الأدبي ، الذي يمكن جعله شبه تأريخ للأحداث السياسية في كثير من العصور ، أما في هذا العصر فقد اهتم حكامه بالأدب عامة – كما قلنا آنفاً – واستخدموه سلاحاً داعماً لهم في حكمهم بصفة خاصة ، وقد كان المدح من أهم الأغراض التي شجعها الحكام ، وجعلوها تتلون بلون يطربون له ، ويثيبون عليه ، ويطلبون منه المزيد ، وقد اتضحت بصمة الخلفاء في شعر المديح ، ممثلة في جعل الخليفة رمزاً دينياً ، يضفون عليه غير قليلٍ من القداسة ، يجب على الكل احترامه على أقل تقدير ؛ بل تقديسه في بعض الأحيان ، أما طاعته فهي من طاعة الله ، مهما اقترف من الذنوب ، أو جنى من الآثام ، من وجهة نظر كثير من الشعراء .

والدواوين الشعرية وأمهات كتب الأدب مملوءة بالشواهد على ذلك ، فها هو محمد بن عبد الملك الزيات يقول للشعراء وقد اجتمعوا على باب المعتصم : " من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول النمري للرشيد :

خَلِيْفَةَ اللهِ إنَّ الجُودَ أوْدِيَةٌ .·. أحَلَّكَ اللهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمِيْنِ اللهِ مُعْتَصِماً .·. فَلَيْسَ بالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَنْتَفِعُ[(١)]

(١) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ٢١ / ٧٣١٨ .

فمن لم يكن بالحاكم أو الخليفة معتصماً ، فصلاته باطلة من وجهة نظر الشـــاعر ، وكلنا يعلم خطورة فساد الصلاة وما تؤدي إليه .

وها هو الحسين بن مطير ينشد المهدي قوله :

لَوْ يَعْبُدُ النَّاسُ يَامَهْـدِيُّ أَفْضَـلَهُمْ ∴ مَا كَانَ فِي النَّاس إلاَّ أَنْـتَ مَعْبُـودُ
أَضْحَتْ يَمِيْنُكَ مِنْ جُوْدٍ مُصَـوَّرَةً ∴ لاَبَلْ يَمِيْنُكَ مِنْهَـا صُـوِّرَ الجُـوْدُ[١]

فالحسين بن مطير يصل بالمهدي إلى مكانة دينية لا ينبغي أن تنسب إلـى بشر ، مهما كانت مكانته الدينية في نفوس الناس ، إلا أن الخلفاء كانوا يرغبـون في إضفاء صفة القداسة هذه على منصب الخليفة ، فبالغ الشعراء في ذلك مبالغات كثيرة ، رفضها بعض الخلفاء أحياناً ، وأثاب بعضهم عليها في كثير من الأحيان ، فأبو الفرج الأصفهاني يروي لنا أن الرشيد " كان يحتمل أن يمدح بما تمـدح بـه الأنبياء فلا ينكر ذلك ولا يرده "[٢] . وقد " برز الإلحاح على المعاني الإسـلامية في مدح الخلفاء والوزراء على نحو لم يعهد من قبل ، حيث كـان المفـروض – وفقاً لنظرية العباسيين في الحكم – أن الخليفة الذي يرعى شئون الحياة ، هو فـي الوقت نفسه إمام المسلمين وحامي حمي الإسلام " [٣].

وقد بالغ الشعراء مبالغات فاقت المعقول أحياناً ، حتى وصل القـول بـأبي نواس أن قال في مدح الأمين :

تَنَازَعَ الأحْمَدَان الشِّـبْهَ فاشْـتَبَهَا ∴ خَلْقَا وخُلَقَـا كَمَـا قُـدَّ الشِّـراكَان
اثْنَان لا فَصْلَ بـالْمَعْقُول بَيْنَهُمَـا ∴ مَعْنًا هُمَـا وَاحِـدةٌ وَالْعِـدَّةُ اثْنَـان

وهو يقصد بالأحمدين هنا المحمـدين : النبـي محمـد – ﷺ – ومحمـداً الأمين[٤] .

فهو يقرن خيرية الأمين – بالرغم مما عرف عنه من مخالفـات – بقـدر النبي محمد – ﷺ – ، وخُلُقَه بُخلُقِه ، على ما بينها من بـون شاسـع ، ولكـن

---

(١) نفسه ، ١٦ / ٥٧٨٤ .
(٢) نفسه ، ١٣ / ٤٦٥٦ .
(٣) عز الدين إسماعيل ، في الشعر العباسي ، الرؤية والفن ، المكتبة الأكاديمية ، ص ٣٣٩ .
(٤) نفسه ، ص ٣٤٢ .

الشاعر يعلم أن الأمين يتمتع بإضفاء هذه القداسة الدينية عليه ، فلا يتردد في ذلك بل يجاوز الحد المعقول .

وها هو المأمون – بالرغم من علمه وعفوه وعقليته – فإنه يرغب أيضاً في جعله خليفة المسلمين وأكثرها أحقية بهذا المنصب ، يقول محمد بن عبّاد ، وهو أحد معاصريه : " قال لي المأمون وقد قدمت عليه من البصرة : كيف ظريف شعرائكم وأشعر مصركم ؟ قلت : ما أعرفه ؛ قال : ذاك الحُسَيْنُ بنُ الضَحَّاك أشعر شعرائكم أظرف ظرفائكم . أليس هو الذي يقول :

رَأى اللهُ عَبْدَ اللهِ خيْرَ عِبَادِهِ .:. فملَّكَهُ وَاللهُ أعْلَمُ بالْعَبْدِ

قال : ثم قال لي المأمون : ما قال فيَّ أحدٌ من شعراء زماننا بيتاً أبلغ من بيته هذا" (١).

وبسبب هذه الطاعة وهذا الاستجابة من الشعراء لمطالب الحاكم ، حتى لو كانت خارجة عن حدود المعقول ، كان الحكام يدافعون عن الشعراء الذين يمدحونهم بهذا الشكل " دخل سليمان بن المنصور على محمد الأمين ، فرفع إليه أنَّ أبا نواس هجاه ، وأنَّه زنديقٌ حلالُ الدم ، وأنشده من أشعاره المنكرة أبياتاً ، فقال له : يا عم ، أقتله بعد قوله :

أهْدَى الثَّناءَ إلىَ الأمِيْنِ مُحَمَّدٍ .:. مَا بَعْدَهُ بِتِجَارَةٍ مُتَربِّصُ
صَدَقَ الثَّنَاءُ عَلَى الأمِيْنِ مُحَمِّدٍ .:. وَمِنَ الثَّنَاءِ تَكَذُّبٌ وتَخَرُّصُ
قدْ يَنْقُصُ القَمَرُ المُنِيْرُ إذَا استَوَىَ .:. هَذاَ ونُورُ مُحَمَّدٍ لاَ يَنْقُصُ
وإذَا بَنُوْا المَنْصُوْر عُدَّ حَصاؤُهُمْ .:. فَمُحَمَّدٌ يَاقُوتُهَا المُتَخَلَّصُ(٢)

فغضب سليمان ، وقال : لو شكوت من عبد الله ما شكوت من هذا الكافر لوجب أن تعاقبه ، فكيف منه : فقال : يا عم كيف أعمل بقوله :

قدْ أصْبَحَ المُلْكُ بالمُنَى ظَفَرَا .:. كَأنَّما كَانَ عَاشُقٌ قدَرَا
حَسْبُكَ وَجْهُ الأمِيْنِ مِنْ قمَر .:. إذا طَوَى اللَّيْلُ دوْنَكَ القَمَرا

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ٧ / ٢٥٩١ .

(٢) أبو نواس ، ديوان ، ط ١ ، بيروت ، طبعة دار الكتب العلمية ، تحقيق علي فاعور ، سنة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م ، ص ٣٣٣ .

خَلِيْفَـــــــةٌ يَعْتَنِـــــــي بأمَّتِـــــــهِ ∴ وَإِنْ أَتَتْـــــــهُ ذُنُوْبُهَـــــا غَفَــــــرَا
حَتَّـــى لَـــو اسْـــطَاعَ مِـــنْ تَحَنُّنِـــهِ ∴ دَافَـــعَ عَنْهَـــا القَضَـــاءُ وَالقَـــدَرَا(١)

وهكذا ، مازال الشاعر العباسي يخلع على ممدوحه من الخلفاء صفة الرمز الديني ، المكلف من الله برعاية الأمة ، ووجوب طاعته والسير في ركابه لكونه خير الناس ، وأفضلهم عند الله ، لذا اختاره لخلافتهم ، وما زال الشعراء يسلكون هذا السبيل ، حتى أصبح سمة تميز المدح في العصر العباسي ، وما كانت هذه السمة لتبرز بهذا الشكل إلا بسبب طرب الحكام لها ، وتشجيعهم للشعراء ليتفننوا فيهما ، حتى اصطبغ شعر المديح بها ، وأصبحت من ظواهره الواضحة .

ومن السمات التي ظهرت وأذكاها الخلفاء ، حتى أصبحت من أهم ملامح المديح العباسي استخدام الحجج المنطقية المستقاة من علم الميراث في محاولة إثبات أحقية العباسيين في الخلافة ، ويستلزم هذا الإثبات المنطقي نفي الإمامة عن غير العباسيين خاصة العلويين ، بحجة أن العباسيين أقرب إلى النبي – ﷺ – من أبناء علي ، لأن قرابة العباسيين قرابة عصب ، أما قرابة العلويين فمن جهة فاطمة ، لذا يرون أنهم أحق بالخلافة منهم ، يقول مروان بن أبي حفصة ، مادحاً المهدي :

يَا بْنَ الَّـــذِيْ وَرِثَ النَّبِـــيَّ مُحَمَّـــداً ∴ دُوْنَ الأقَـــارِبِ مِـــنْ ذَوِيْ الأرْحَـــام
الْوَحْيُ بَيْنَ بَنِـــيْ البَنَـــاتِ وَبَيْـــنَكُمْ ∴ قطَعَ الخصَامَ فَـــلاَتَ حِـــيْنَ خِصَـــام
مَا للنِسَّاءِ مَـــعَ الرِّجَـــالِ فريْضَـــة ∴ نَزَلَـــتْ بِـــذَلِكَ سُـــوْرَةُ الأنْعَـــامِ
أنَّـــى يَكُـــونَ وَلَـــيْسَ ذَاكَ بَكَـــائِنِ ∴ لِبنَـــي البَنَـــاتِ وِرَاثَـــةُ الأعْمَـــامِ(٢)

(١) ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دار الفكر العربي ، ٦ / ٢٦ ، ديوان أبي نواس ص ٢٥٤ .

(٢) مروان بن أبي حفصة ، ديوان ، ط ٣ ، جمع وتحقيق وتقديم ، حسين عطوان ، ص ٦٦ .

ثم هذا أبان بن عبد الحميد يعاتب البرامكة في إعطاء الرشيد الأموال للشعراء ، وفقره هو بالرغم من خدمته لهم ، موضعه منهم ، فإذا بالفضل بن يحيى يوضح له المنهج الذي به ينال العطاء دون مواربة ، " إن سلكت مذهب مروان ؛ أوصلت شعرك ، وبلغت إرادتك . قال : والله ما أستحل ذاك ! فقال له الفضل : كلنا يفعل ما لا يحل ، ولك بنا وبسائر الناس أسوة ، فقال أبان :

نَشَدْتُ بَحقِّ اللهِ مَنْ كَانَ مُسْلِماً .:. أعُمُّ بِمَا قدْ قُلْتُهُ العُجْمَ وَالْعَرَبْ
أعَمٌّ نَبِيِّ الله أقربُ زُلْفَةً .:. إلَيْهِ أم ابْنُ العَمِّ فِيْ رُتْبَةِ النَّسَبْ ؟
وَأَيُّهُمَا أوْلَى بِهِ وَبِعَهْدِهِ .:. وَمَنْ ذَالَهُ حَقُّ التراثِ بِمَا وَجَبْ؟
فإنْ كَانَ عَبَّاسٌ أحَقَّ بِتلْكُم .:. وكَانَ عَلِيٌّ بَعْدَ ذاك عَلَى سَبَب
فأبْنَاءُ عَبَّاس هُمُ يَرِثُوْنَهُ .:. كَماَ العَمُّ لابْنِ العَمِّ فِيْ الإرثِ قدْ حَجَبْ
وَفِيْ حَسَنٍ إذ قُلْتُمُ فِيْه حُجَّة .:. فَقَدْ بَاعَهَا لاَيُنْكِرُ النَّاسُ أوْ وَهَبْ
فإنْ كَانَ ذَا حَقاً فَعَمْداً أضَاعَهُ .:. وَإنْ كَانَ ذَا دَعْوَى فَكُفُّوْا عَنْ الشَّغَبْ

فلما أنشدها الرشيد أمر لأبان بعشرين ألف درهم ، واتصل به بعد ذلك "(١).

وقد اشتهر مروان بن أبي حفصة خاصة بإتباع هذه المسلك في مدح خلفاء العباسيين ، فهو الذي مدح المهدي بقوله :

هَلْ تطْمِسُوْنَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومَهَا .:. بأكُفِّكُمْ أمْ تَسْتُرُونَ هِلالَهَا
أمْ تَجْحَدُوْنَ مَقَالَة مِنْ رَبِّكُمْ .:. جبْرِيْلُ بَلَّغَهَا النَّبِيَّ فَقَالَهَا
نَزَلَتْ مِنَ الأنْفَالِ آخِرُ آيَةٍ .:. بِتُرَاثِهِمْ فأردْ تُمُوْا إبْطَالَهَا(٢)

فزحف المهدي من صدر مصلاه إعجاباً بالقصيدة ، وإعطاء عن كل بيت من أبياتها ألف درهم ، لذا نحا كثير من الشعراء نحوه في نفي الإمامة والخلافة عن أبناء على فطرب لهم الخلفاء ، وأجزلوا لهم العطاء ، فلقد روى أبو الفرج في

---

(١) أبوبكر محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي ، الأوراق ، ط ٢ ، بيروت ، طبعة دار المسيرة ، عني بنشره ج . هيورت ، دن ، سنة ١٤٠١ هـ – ١٩٨٢ م . ص ١٤ .

(٢) مروان بن أبي حفصة ، ديوان ، ط ٣ ، جمع وتحقيق وتقديم ، حسين عطوان ، ص ٩٩ .

الأغاني أن " النمري قد مدح بقصيدة وهو مقيم بالجزيرة ، فأوصلها العتابي إليه واسترفده له ، وسأله استصحابه فأذن له في القدوم ، فحظي عنده ، وعرف مذهب الرشيد في الشعر ، وإرادته أن يصل مدحه إياه بنفي الإمامة عن ولد على بن أبي طالب – رضى الله عنه – والطعن عليه ، وعلم مغزاه في ذلك ، مما كان يبلغه من تقديم مروان بن أبي حفصة ، وتفضيله إياه على الشعراء في الجوائز ، فسلك مذهب مروان في ذلك ، ونحا نحوه "(١) .

لذا أصبحت هذه سمة بارزة من سمات المدحة العباسية ، كان الباعث عليها ، والمتسبب في شيوعها الخلفاء العباسيون ، الذين تسببوا في صبغها باللون السياسي عامة ، وهذا المدح خاصة .

التخصص في المدح :

من الظواهر الواضحة في شعر المديح في هذه الفترة أنه تفرغ إلى أنواع شتى ، فما يمدح به الخليفة يختلف عما يمدح به وزراؤه ، يختلف عما يمدح به القاضي ، أو القائد ، أو الكاتب إلى غير ذلك ، وقد فصل ابن رشيق القول في ذلك ، فالكاتب والوزير يمدحان بحسن الروية ، وسرعة الخاطر بالصواب ، وشدة الحزم ، وقلة الغفلة ، وبذل النصح للخليفة ، والنيابة عنه في المعضلات ، كما يمدحان بالبلاغة والخط والتفنن في العلم ، وأفضل ما يمدح به القائد الجود والشجاعة وما تفرع منهما(٢) .

هَزَزْتَ أَمِيْرَ المُؤْمِنْينَ مُحَمَّداً ∴ فَكَانَ رُدَ يْنِيًّا وَأَبْيَضَ مُنْصُلا
فَمَا إنْ تُبَالِي أنْ تُجَهِّزَ رأيَهُ ∴ إلَى نَاكِثٍ ألاَّ تُجَهِّزَ جَحْفَلاَ
تَرَى شَخْصَهُ وَسْط الخِلاَفَةِ هَضْبَةَ ∴ وَخُطْبَتَهُ دُوْنَ الخِلاَفَةِ فَيْصَلا
لِتَقْضِيْ بِهَ حَقَّ الرَّعِيَّةِ آخِراً ∴ وَتَقْضِي بِهِ حَقَّ الخِلاَفَةِ أوَّلاً(٣)

---

(١) ١٣/ ٤٦٥٣ .

(٢) ابن رشيق (أبو الحسن بن علي) ، العمدة في صناعة الشعر ونقده ، ط ٤ ، بيروت ، دار الجيل ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، سنة ١٩٧٤ م ، ٢ / ١٢٨ وما بعدها .

(٣) أبو تمام ، ديوان ، ط ٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، تحقيق : محمد عبده عزام ، ٣ /١٠١ .

ويمدح على بن جبلة العَكَوَّك القائد الشهير أبا دلف العجلي فيقول :

رُبَّ ضَافِيْ الأمْنِ مِنْ وَزَرِ ∴ قَدْ أبَتَّ الخَوْف فِيْ وَزَرَهْ

وابْنُ خَوْفٍ في حَشَا خَمْرِ ∴ نُشْتَهُ بالأمْنِ مِنْ خمْرْ

وَزُحوف فِيْ صَوَاهِلِهِ ∴ كَصِيَاحِ الحَشْر فِي أمرَهْ

قُدْتَهُ والمَوْتُ مُكْتَمِنٌ ∴ فِي مَزَاكِيْهِ وَمُشْتَجَرهْ

زُرْتَهُ وَالخَيْلُ عابَسَة ∴ تَحْمِلُ البُؤْسَيْ إلىَ عُقَرهْ[(١)]

ومن عجيب الأمر أنني وجدت خبراً في الأغاني يبدو المديح من خلاله موغلاً في التخصص ، إذ لكل قائدٍ سماتُ تميزه عن غيره من القواد ، يعرفها الناس ، ويعرفها الشعراء والحكام ، فلقد روى أبو الفرج " أن سلماً الخاسر دخل على الرشيد وعنده العباس بن محمد ، وجعفر بن يحيى ، فأنشده قوله :

حَضَرَ الرَّحِيْلُ وَشُدَّتِ الأحْدَاجُ

فلما انتهى إلى قوله :

إنَّ المَنَاياَ في السُيُوْفِ كَوَا مِنٌ ∴ حَتَّى يُهَيِّجُهَا فَتىً هَيَّاجُ

فقال الرشيد : كان ذلك عن بن زائدة ، فقال : صدق أمير المؤمنين ، ثم أنشد حتى انتهى إلى قوله :

وَمُدَجَج يَغْشَى المَضِيْقَ بِسَيْفِهِ ∴ حَتَّى يَكُوْنَ بِسَيْفِهِ الإفْرَاجُ

فقال الرشيد : ذلك يزيد بن مزيد ؛ فقال : صدق أمير المؤمنين"[(٢)] .

وهكذا كان على الشعراء أن يلائموا بين المدح والممدوح فإذا مدحوا الخلفاء نوّهوا بتقواهم وعدلهم في الرعية ، وإذا مدحوا القواد أطالوا في وصف شجاعتهم ، وإذا مدحوا الوزراء تحدثوا عن حسن سياستهم ، وكذلك صنعوا بالفقهاء والقضاة وغيرهم من الممدوحين .

---

(١) على بن جبلة ، ديوان ، ط ٣ ، دار المعارف ، جمع وتحقيق وتقديم ، حسين عطوان ، ص ٦٩ .

(٢) الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق : إبراهيم الإبياري ، سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، ٧٥٩٢/٢٢ .

ضرورات المدح :

المبالغة في الشعر من سماته ، ومظهر مهم من مظاهره ، لأن لها علاقة بالخيال الذي هو عصب الشعر وأهم ما يميزه ، والمبالغة ضرورة من ضرورات المديح على وجه الخصوص ، ولم تكن حديثة عهد على الشعر العباسي ، لكن الجديد فيها من وجهة نظري محاولة إضفاء القداسة على الحاكم ، بما يجعل الشعراء يخوضون في الوحل خوضاً ، لمحاولة جعل الخليفة يستحق ما يشبه العبادة كما يقول الحسين بن مطير أو يجعله كالنبي محمد – ﷺ – في خَلْقِه وخُلُقِهِ كما يقول أبو نواس ، وقد كشفنا في أثناء حديثنا حول محاولة تقديس منصب الخليفة عن شيء من هذه المبالغات ، ولكن الذي يجب الانتباه إليه ، أن الحكام ساعدوا في مرور الشعر بهذه المبالغات التي خرقت حدود الدين ، أما المبالغات عامة ، فمن أهم خصائص الشعر على مر العصور ، في العصر العباسي وقبله وبعده ، وفي شعر المديح وفي غيره من الأغراض .

ولم تكن هذه المبالغات إلا لأن الشعراء لا يمدحون الخليفة من حيث شخصه وتصرفاته ولكنهم يمدحونه كرمز كما يقول شوقي ضيف[١] .

وكان بعضهم لا يحب ابتعاد الشاعر في مدحه له عن غرض المديح ، وكأنه يبتغي من الشاعر أن يجعل القصيدة كلها مدحاً خالصاً ، فلا يرضى أن يستولى على قصيدة المدح بالقليل من الأبيات ، ثم يشبب في كثير منها ، ويختلط عنده ما هو شخصي من الشعر بالشعر الرسمي ، وقد لاحظ ذلك عُمَرو بن العلاء فإن أبا العتاهية قال يمدحه :

إنِّيْ أمِنْتُ مِنَ الزَّمَانِ وَصَرْفِهِ ∴ لمَّا عَلِقْتُ مِنَ الأميرِ حِبَالاَ
لَوْ يَسْتَطِيْعُ النَّاسُ مِنْ إجْلاَلِهِ ∴ تَخِذُوْا لَهُ حُرَّ الخُدُوْدِ نِعَالاَ
إنَّ المَطَايَاَ تَشْتَكِيْكَ لأنَّهَا ∴ قطَعَتْ إلَيْكَ سَبَاسِبَاً وَرِمَالا
فإذَا وَرَدْنَ بِنَا وَرَدْنَ خَفَائِفاً ∴ وَإذا صَدَرْنَ بِنَا صَدَرْنَ ثِقَالا[٢]

---

(١) العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ، ١٩٦٦ م ، ص١٦١.

(٢) أبو العتاهية ، ديوان ، بيروت ، دار صادر ، تحقيق وشرح كرم البستاني ، ص ٣٧٧ .

فأعطاه سبعين ألفاً ، وخلع عليه حتى لا يقدر أن يقوم فغار الشعراء من ذلك فجمعهم ثم قال : يا معشر الشعراء عجباً لكم ! ما أشد حسدكم بعضكم بعضاً ، إن أحدكم يأتينا ليمدحنا بقصيدة يشبب فيها بصديقته بخمسين بيتاً ، فما يبلغنا حتى تذهب لذاذة مدحه ، ورونق شعره ، وقد أتانا أبو العتاهية تشبب بأبيات يسيرة ، ثم قال ، وأنشد الأبيات المذكورة فما لكم منه تغارون[1] .

وكأنَّ بعمرو بن العلاء لا يبغي من الشعر إلا مدحاً خالياً من المقدمات الشخصية الطويلة أو من الإضافات غير المتصلة بالمدح .

---

(١) ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ، وفيات الأعيان وأبناء الزمان ، ط ١ ، مكتبة النهضة المصرية ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، سنة ١٩٤٨ م ، ١ / ١٩٩ .

المبحث الثاني

الاهتمـــــام بالغــــــــزل

هو من الفنون القديمة التي لم تكن بعيدة عن التطور والتجديد في العصــر الأموي ، ثم العصر العباسي ، ومن المعروف والمشهور على مــر العصــور أن الغزل فن شخصي ، يتعلق بكل شاعر غزل على حدة ، يكون تعبيراً عمــا بــين الشاعر وبين محبوبته ، أو مثاله الذي يتغزل فيه ، بمعنى أن الغزل استمر بعيــداً عن الأوامر والنواهي المتعلقة بالحاكم أو الأمير حتى العصور الذي ندرسه ، فأول ما نفاجأ به أن الغزل أصبح مطلباً يلح الحكام في طلبه مــن الشــعراء ، بجانــب الشعر الرسمي الذي سبق الحديث بشأنه " كان أبو العتاهية يتغزل فــي شــبابه ، فرضى عنه هارون ندماؤه ، ولم يكن يفارقه في سفر ولا حضر إلا فــي طريــق الحج "[١] .

وإن لنا لا ننكر أن حب الغزل مطلب غريزي على مر العصــور ، قبــل حكــم العباسيين وبعده ، ولكننا نجده في حكومة العباسيين ما لا نجده في بعض حكام بني أمية ، من قول للحكام أنفسهم في شعر غزلٍ ، أو الإلحاح في طلبــه مــرة تلــو أخرى، بل تشجيع عليه في بعض الأحيان ، هذا عن الفن الغزلي عامة .

وإذا استثنينا أبا جعفر المنصور من خلفاء العباسيين ، وجدنا أغلبهم قال غزلاً ، أو دعا إليه ، أو أثاب عليه .

" دخل بشار علي المهدي ، وقد عرضت عليــه جاريــة مغنيــة ، فســمع غناءها؛ فأطربه وقال لبشار : قل في صفتها شعراً ؛ فقال :

وَرَائِحَـــةٍ لِلعَـــيْنَ فِيْهَـــا مَخِيْلَـــة ∴ إذَا بَرَقتْ لَمْ تسْــق بَطْــنَ صَــعِيْدِ
مِن المُستَهلاَّتِ السُروْرَ عَلىَ الفَتَـــى ∴ خَفَــا بَرقُهَــا فِــيْ عَبْقَــرٍ وَعُقُــوْدِ
كَأنَّ لِسَــاناً سَــاحِراً فِــيْ كَلاَمِهَــا ∴ أعِــيْنَ بِصَــوْتٍ لِلقُلــوْبِ حيُــوْدِ

---

(١) كارل بروكمان ، تاريخ الأدب العربي ، القاهرة ، دار المعارف ، نقله إلى العربية : عبد الحكيم النجار ، سنة ١٩٦١ ، ٢ /٣٤ .

تُمِيْـــتُ بِـــهِ أَلْبَابَنَـــا وَقُلُوبَنَـــا ∴ مِـــرَاراً وَتُحيـــيْهِنَّ بَعْـدَ هُمُـــوْدِ[١]

ثم هو نفسه يدخل يوماً بعض دوره ، فإذا جارية نصرانيه ، وإذا جيبهــا واســعُ ، وقد انكشف عما بين ثدييها ، وإذا صليب من ذهب معلق فــي ذلــك الموضــع ، فاستحسنه ، فمد يده إليه فجذبه ، فأخذه فولولت على الصليب فقال المهــدي فــي ذلك:

يَـــوْمَ نَازَعْتُهَـــا الصَّـــلِيْبَ فَقَالَـــتَ ∴ وَيْحَ نَفْسِـــيْ أَمَـــا تُحِـــلُّ الصَّـــلِيْبَا

قال : أرسل إلى بعض الشعراء فأجازه ، وأمر به فغنى فيه[٢] .

وبسبب حب المهدي الزائد للغزل ، فقد كان يغض الطرف أحياناً عن بعض الغزل الذي يبدو غير لائق ، فهذا أشجع السلمي قال : " أذن لنا المهدي وللشــعراء فــي الدخول عليه ، فدخلنا ، فأمرنا بالجلوس ، فاتفق أن جلس إلى جنبي بشار ، فسمع حساً ، فقال : يا أشجع ، من هذا فقلت : أبو العتاهية ، فقال لي : أتراه ينشد فــي هذا المحفل ؟ فقلت : أحسبه سيفعل ، فأمره المهدي أن ينشده فأنشده :

ألا ما لسيدتي مالها* ، قال : فنخسنى بمرفقه ، ثم قال لي : ويحك ! رأيت أجســر من هذا ينشد مثل هذا الشعر في مثل هذا الموضوع " [٣] .

وقد كان استنكار بشار هذه الجسارة من أبي العتاهية استنكاراً في محلــه ، ولكن حب المهدي للغزل كان شديداً فتغاضي عن المعاني غير اللائقة أمام الخليفة في هذه الموضوع ، بسبب جودة الفن ، وحب الغزل .

---

(١) أبو الفرج على بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق : إبراهيم الإبياري ، سنة ١٣٨٩ – ١٩٦٩ م ، ٣ / ١٠٢٨ . القصيدة فــي ديــوان أبــي العتاهية، ص ٣٧٥ .

القصيدة في ديوان أبي في العتاهية ، ص ٣٧٥ .

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحــة ، طبعــة دار المعــارف ، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، سنة ١٩٦٦ ، ٨ / ١٨٥ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دار الفكر العربي ، ٦ / ٢٢١ .

* والتي يقول فيها أتتهُ الخِلافة منقادة ∴ إليه تُجَرِّرُ أذيَالهَا

ولَم تكُ تصلُحُ إلاَّ لهُ ∴ ولم يَكُ يَصلَحُ إلا لها

ولَو رَامَهاَ أحدٌ غَيرُه ∴ لزلزلت الأرض زلزالها

وقد روت لنا مصادر الأدب كثيراً من الأخبار عن الغـزل كـان مثارهـا المهدي ، فها هو محمد بن صفوان الجمحي ، قال : " حملت دينا بعسكر المهدي ، فركب المهدي يوماً بين أبي عبيد الله وعمر بن بزيغ ، وأنا وراءه في موكبه على برذون قطوف ، فقال : ما أنسب بيت قالته العرب ؟ قال أبو عبيدة : قول امـرئ القيس إذ يقول :

وَمَا ذَرَفَـتْ عَيْنَـاكِ إلاَّ لِتَضْـربي ∴ بسَهْمَيْكِ في أعْشَـارِ قلْـبٍ مُقَتَّـلِ

قال : هذا أعرابيٌ قُح ، فقال عمر بن بزيغ : قول كثير بن أبي جمعة :

أريْـدُ لأِنْسَـى ذِكْرَهَـا فَكَأنَّمـا ∴ تَمَثَّـلُ لِـيْ لَيْلَـى بِكُـلِّ سَـبيْلِ

قال : وما هذا بشيء ، وما له يريد أن ينسى ذكرها حتى تمثل له ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، عندي حاجتك ، جعلني الله فداك – فقال : الحق ، قلت : لا لحاق لي ، ليس ذاك من دابتي ، قال احملوه على دابة ، فقلت هذا أول الفتح ، فحملت عليهـا فلحقته ، فقال : ما عندك ؟ قلت : قول الأحوص :

إذَا قُلْـتُ أنِّـيْ مُشْـتَفٍ بِلقَائِهَـا ∴ فحَمُّ التَّلاقِـيْ بَيْنَنَـا زَادَنَـا سُـقْمَا

قال : أحسن والله ، اقضوا عنه دينه ، فقضى عني ديني " (١) .

ثم هو يبعث إلى بشار ويطلب منه بشكل مباشر " قل في الحب شعراً ولا تُطـل ، واجعل الحب قاضياً بين المحبين ولا تسمِّ أحداً ، فقال بشار :

اجْعَلِ الحُـبَّ بَـيْنَ حِبِّـيْ وَبَيْنِـيْ ∴ قاضِياً إنِّنِـي بـهِ اليَـوْمَ راضِـي

فَاجْتَمَعْنَا فَقُلْـتُ يَـا حِـبَّ نَفْسِـي ∴ إنَّ عَيْنِـي قِلِيْلَـةُ الإغْمَـاضِ

فبعث إليه المهدي : حكمت علينا ووافقنا ذلك ، فأمر له بألف دينار"(٢).

ولم يكن المهدي منفرداً بحب الغزل عن باقي الحكام العباسيين ، بـل إن الرشـيد أحب وقال غزلاً بجانب حب سماعه من الشعراء ، فمن شعر الرشيد فـي ثـلاث جوار كان يهواهن ، وهن سِحْرٌ ، وضِيَاءٌ ، وخُنَثْ :

إنَّ سِـحْراً وَضِـيَاءً وَخُنَـثْ ∴ هُـنَّ سِـحْرٌ وَضِـيَاءٌ وَخُنَـثْ

---

(١) نفسه : ٥ / ٢٦٦ .

(٢) أبو الفرج على بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق إبراهيم الإبياري ، سنة ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ م ، ١٠٦٨/٣.

أخَـــذَتْ سِـــحْرٌ وَلاَ ذَنْـــبَ لَهَـــا ∴ ثُلُثَــيْ قَلْبِــي وَتِـــرْ بَاهَـــا الثُّلـــثْ

ويقول أيضاً :

مَلَــكَ الـــثَّلاثُ الآنِسَـــاتُ عَنَـــانِيْ ∴ وَحَلَلْــنَ مِـــنْ قَلْبِــي بكُــلِّ مَكَـــان

مَـــالِيْ تُطَـــاوِعُنِيْ البَرِيَّـــةُ كُلُّهَـــا ∴ وَأُطِـــيْعُهُنَّ وَهُـــنَّ فـــي عِصْـــيَانِيْ

مـــا ذاكَ إلاَّ أنَّ سُـــلطَانَ الهَـــوَى ∴ وَبهِ قوِيْنَ أعَزُّ وَهُنَّ في سُـلْطَانِيْ(١)

ولقد كانت مجالس الخلفاء ، مملوءة بشعر الغزل كفن أول للغناء ، يستمع إليه الخلفاء ويلذون له ، ويتأثرون به ، ولقد كان للغناء أثره الذي لا ينكر في شيوع الغزل عامة ، " حكى أن هارون الرشيد كان يهوي جاريته ماردة هوى شديداً فتغاضبا مرة ، ودام بينهما الغضب ، فأمر جعفر البرمكي العباس بن الأحنف أن يعمل في ذلك شيئاً ، فعمل :

رَاجِـــعْ أحِبَّتَـــكَ الَّـــذِيْنَ هَجَـــرْتَهُمْ ∴ إنَّ المُتَـــــيَّمَ قَلَّمَـــــا يُتَجَنَّـــــبُ

إنَّ التَجَنُّـــبَ إنْ تَطَـــاوَل مِنْكُمَـــا ∴ دَبَّ السُّـــلُوُلَهُ فعَـــزَّ المَطْلَـــبُ*(٢)

وأمر إبراهيم الموصلي فغنى به الرشيد ، فلما سمعه بادر إلى ماردة فترضاها فسألت عن السبب في ذلك ، فقيل لها ، فأمرت لكل واحد من العباس وإبراهيم بعشرة آلاف درهم ، وسألت الرشيد أن يكافئهما " (٣) .

أما الأمين فغزلياته من الشهرة بحيث لا تحتاج إلى ذكر شواهد ، والمأمون أحب الغزل أيضاً ، وقد روى له أبو الفرج أنه " كان يستمع للشاعر ما دام في تشبيب أو وصف ضرب من الضروب ، حتى إذا بلغ إلى مديحه لم يسمع منه إلا بيتين أو ثلاثة ، ثم يقول للمنشد ، حسبك ! ترفعاً " (٤).

---

(١) نفسه : ١٧ / ٦١٨٢ .

(٢) * العباس بن الأحنف ، ديوان ، بيروت ، دار صادر ، تحقيق : كرم البستاني ، ص ٤٤ .

(٣) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ط١ ، مكتبة النهضة المصرية ، تحقيق ، محمد محيى الدين عبد الحميد ، سنة ١٩٤٨ م ٢٤/١ .

* العباس بن الأحنف ، ديوان ، بيروت ، دار صادر ، تحقيق : كرم البستاني ، ص ٤٤ .

(٤) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق إبراهيم الإبياري ، سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، ٢٣ / ٧٩٤٧ .

وكأنَّ المأمون لم يكن يقبل إلا العفيف من الغزل ، فلقد روى عنه صاحب العقد الفريد أنه لما أمره أبوه بالصلاة على الكسائي وإبراهيم الموصلي والعباس بين الأحنف لما ماتوا في يوم واحد ، قدم ابن الأحنف عليهم جميعاً ، وقال : قدِّموا الذي يقول :

يَا بَعِيْدَ الدَّار عَنْ وَطَنِهْ ∴ هَائِمَاً يَبْكِي عَلَىَ شَجَنِهْ
كُلَّمَا جَدَّ البُكَاءُ بِهِ ∴ زَادَتِ الأسْقامُ فِيْ بَدَنِهْ[(١)]

وهكذا أصبح الغزل من أنواع الشعر التي طلبها الحكام في مجالسهم ، واهتموا بشعرائها ، التذوا بسماع شعرهم ، وطلبوا منه كما طلبوا من شعر المديح .

الغزالفاحش :

تركت النقلة الاجتماعية الكبيرة في العصر العباسي ، من شيوع ترف زائد عن الحد ، أثراً كبيراً في فحش الغزل في العهد العباسي ، " حيث خطا الشعراء بالغزل خطوات فسيحة في مجال اللهو والفجور ، منساقين وراء الإباحية الزائدة ، والمجون العابث ، بعد انتشار مجالس اللهو والشراب التي امتلأت بالقيان والمغنيات ، اللائي خلعن ثياب العفة ، وغلب عليهن الفجور ، وأحاطت بكل شاعر طائفة منهن " [(٢)].

وقد اشتهر كثيرٌ من شعراء العصر العباسي (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) بالمجون ، من أمثال مطيع بن إياس ، ووالبة بن الحُبّاب ، وحَمَّاد عَجْرَد ، ويحْيَي بن زِيَاد ، بجانب عملاقي الشعر العباسي بشار بن برد ، وأبي نواس ، أما جانب الجدة في هذا الغزل فإنه قد بلغ " درجة التهتك والعهر مع الانتشار الواسع بسبب التأثيرات الاجتماعية القوية ، وشيوع المجون والخلاعة بين الطبقات المختلفة "[(٣)] .

---

(١) ابن عبد ربه (أبو عمر جمال الدين يوسف بن عمر) العقد الفريد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، طبعه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري ، سنة ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م ، ٥ / ٣٧٨ . وديوان العباس الأحنف ، ص ٣١١ .

(٢) محمد عبد العزيز الموافي ، حركة التجديد في الشعر العباسي ، مكتبة الشباب ، سنة ١٩٩١ ، ص ٩٩.

(٣) محمد مصطفى هدارة ، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ط ١ ، بيروت ، مطبعة دار العلوم العربية ، سنة ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م ، ص ٥٤٢ .

وكان أبو نواس وبشّار من أكثر الشعراء الذين دار حولهم الجدل ، وفـي غـزلهم الفاحش على وجه الخصوص " وكان سحر الغزل والتشبيب في شعر بشار قـويَّ التأثير في قلب الحرة والحصان " *(١) ، وقد كان لهمـا اتصـال مباشـر بـبلاط العباسيين ، أما بشار فقد عرف بغزله الفاحش الذي أفسد شباب البصرة وفتياتها ، وقد روت لنا كتب السابقين أن المهدي نهاه عن التشبيب لغيرة كانت فيه .

ويقول هدارة " ولعل زعيم التغزل الحسي الفاحش في القرن الثاني هـو بشـار ، ونستطيع أن نتمثل خطورة تغزله في منع المهدي له ، وتحريمه عليه " (٢).

وفي سبيلي للبحث عن صلة لهذا النهي من الخليفة بالواقع ، عثرت بـنص لأبـي الفرج الأصفهاني – يدفع إلى التريث – بعض الشيء يقول أبو الفرج :

" دخل المهدي إلى بعض حجر الحرم ، فنظر إلى جارية مـنهن تغتسـل ، فلما رأته حسرت ، ووضعت يدها على فرجها فأنشد يقول :

" نَظَرَتْ عَيْنِي لِحَيْنِي " ثم أرتج عليه فقال : من بالبـاب مـن الشـعراء ؟ قالوا: بشار ، فإذن له فدخل ، فقال له أجز " نظرت عيني لحيني " فقال بشار :

نَظَـرَتْ عَيْنِـيْ لِحَيْنِـي ∴ نَظَـراً وَافَـقَ شَـيْنِيْ
سَـتَرَتْ لَمَّـا رَأَتْنِـيْ ∴ دُوْنَـهُ بِـالرَّاحَتَيْنِ
فَضَـلَتْ مِنْـهُ فُضُـولٌ ∴ تَحْـتَ طَـيِّ العُكْنَتَـيْنِ

فقال المهدي : قبَّحَك الله ، ويحك ! أكنت ثالثنا ! ثم ماذا ؟ فقال :

فَتَمَنَّيْـتُ وَقَلْبِـي ∴ لِلْهَـوىَ فِـيْ زَفْـرَتَيْنِ
أَنَّنِـي كُنْـتُ عَلَيْـهِ ∴ سَـاعَة أوْ سَـاعَتَيْنِ

فضحك المهدي ، وأمر له بجائزة ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، أقنعت من هـذه

---

(١) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، القاهرة ، دار المعارف نقله إلى العربية ، عبد الحليم النجـار ، سنة ١٩٦١ ، ١٥/٢.

(٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ط ١ ، بيروت ، مطبعة دار العلوم العربيـة ، سـنة ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ ، ص ٥٤٣ .

الصفة بساعة أو ساعتين ؟ فقال : أخرج عني قبحك الله ، فخرج بالجائزة "[١] .

ولعل هذا الخبر يبعث على العجب من نهي المهدي لبشار عن الغزل المكشوف ، وذلك أنه حثه على الغزل الماجن في هذا الخبر ، ولم يزجره حينما سمعه يقول هذا الغزل الماجن ، ولما بحثت عن الأبيات التي من أجلها كان نهيُ المهدي ، فإذا هي قول بشار :

قاس الهُمُومَ تَنَلْ بِهَا نُجُحَا ∴ وَاللَّيْلَ إنَّ وَرَاءَهُ صُبْحَا
لا يُؤْيُسَنَّكَ مِنْ مُخَدَّرَةٍ ∴ قَوْلٌ تُغَلِّظُهُ وَإِنْ جَرَحَا
عُسْرُ النِّسَاءِ إلى مُيَاسَرَةٍ ∴ وَالصَّعْبُ يُمْكِنُ بَعْدَ مَا جَمحَا[٢]

وقد كانت هذه الأبيات نقطة التحول في فحش بشار ، والأثر المهم في شعره الغزل الخاص بأثر الحكام ، " فلما قدم عليه – أي علي المهدي – بشارٌ استنشده الشعر ، فأنشده إياه ، فغضب وقال : ما حرض على الفجور ، وحرك إلى الفسوق بأكثر من هذا القول ! أتسهل السبيل إلى الفجور ، وتقذف المحصنات المخبآت ! والله لأن قلت بيتاً واحداً في نسيب لآتين على روحك "[٣] .

ويمكن تفسير هذا التعارض الواضح بين قبول المهدي للغزل المكشوف في خبر الأغاني ، وبين الأبيات الأخرى ، بأن المهدي قبل ذلك لنفسه ، فلما فشا هذا الأمر الفاحش من بشار ، غدا مصدر إزعاج لحاكم مجتمع إسلامي لا يليق فيه هذا الغزل الفاحش ، فعمل الضغط الاجتماعي فيه أثره ، ولا أظن لغيرة المهدي الشديدة علاقة بهذا النهي ، وإلا لما أعطاه جائزة على وصفه المكشوف لإحدى حرمه إذا صح خبر الأغاني .

وأمام هذا النهي تحول فنٌّ بشار إلى غزل لائق إلى حد ما ، وإن كان يظهر في شعره الضيق الشديد بهذا المنع في كثير من أشعاره ، يقول :

---

(١) الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق : إبراهيم الإبياري ، سنة ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ م ، ٣٠ / ١٠٧٧ .

(٢) بشار بن برد ، ديوان ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، شرح السيد ، محمد الطاهر بن عاشور ، علق عليه ، محمد رفعت فتح الله ، محمد شوقي أمين سنة ١٩٥٤ م ، ٢ / ٩٧ .

(٣) نفسه : ٢ / ٩٧ .

وَلقَــدْ أخَــذْتُ مِــنْ الصَّــفا ∴ مَــا فِــي الضِّــمِيْرِ وَقَــدْ لَوَيْتُــهْ

وَيَشُــوْ قُنِــي ذِكْــرُ الحَبِيْــبِ ∴ إذَا غَــدَوْتُ وَأيْــنَ بَيْتُــهْ

قَــامَ الخَلِيْفَــةُ دُوْنَــهُ ∴ فَصَــبَرْتُ عَنْــهُ وَمَــا قَلَيْتُــهْ

ونَهَــانِ المَلِــكُ الهَمَــامُ ∴ عَــنِ النّســيب وَمَــا عَصَــيتَهْ

لاَبَــلْ وَفَيْــتُ وَلَــمْ أضِــعْ ∴ عَهــداً وَلاَ وَأيــاً وأيْتُــهْ[1]

ويقول :

وَلَــوْلاَ أمِيْــرُ المُــؤْمِنِيْنَ مُحَمَّــدٌ ∴ رَجَعْتُ بأخْرَى مِنْ دَمِ النَّاس مِلْوَاح

فَالَيْــتُ لاَ آلُــوْ الخَلِيْفَــة طاعَــة ∴ وَلاَ أبْتَغِي إذْناً علَىَ ذاتِ أوْ شَاح[2]

ويقول :

وَزَجَّــاءَ بَرْجَــاءَ فِــيْ جَــوهَرِ ∴ تَــرُوْقُ بَهــا عَــيْنُ مَــنْ يَلْمَــحُ

خَــرُوْجٌ علَــىَ جَمْــعِ أتْرَابِهَــا ∴ كَمَــا يَخْــرُجُ الأبْلَــقُ الأقْــرَحُ

نَهَــانِيء الخَلِيْفَــةُ عَــنْ ذِكْرِهَــا ∴ وكُنْــتُ بمَــا سَــرَّهُ أكْــدَحُ

فأعْرَضْتُ عَــنْ حَــاجَتِي عِنْــدَهَا ∴ وَلَلْمَــوْتُ مِــنْ تَرْكِهَــا أرْوَحُ[3]

وهكذا ، كان للمهدي أثره في تحول غزل بشار ، وباعتراف بشار نفســه ، مــن غزل فاحش ماجن غير مقبول في مجتمع مسلم ، إلى غزل مقبول إلى حد كبير ، ويرى بعض الباحثين أن غزل بشار الماجن لم يتأثر بنهي الخليفة المهدي ، ولــم يلحظ في أي تغير ، يقول يوسف خليف : " ولكن بشاراً لم يستطع أن يكف عــن هذا الغزل ، فمضى يحتال عليه ، فيتحدث عن نهي الخليفة لــه ، ويضــمن هــذا الحديث ما يريده من غزل "[4] . ويرى الباحث مع تقديره الكبير لهذا الرأي – أن بشاراً قد خفت مجونة غزله – أيًّا كانت درجة هذا الانصياع لرأي الخليفة – بعــد نهي المهدي له ، فإنه لم ينته عن الغزل على عمومه أما الغزل الفاحش فقد ضعف

---

(١) نفسه : ٢ / ٦٢ .

(٢) نفسه : ٢ / ١١٩.

(٣) نفسه : ٢/ ١١٠ .

(٤) تاريخ الشعر في العصر العباسي ، القاهرة ، دار الثقافة ، سنة ١٩٨١ م ، ص ٥٠ .

عنده ، والأدلة على ذلك في شعر بشار نفسه ، فبعد أن قال (عسر النســاء إلــى مياسرة) نراه يقول الأبيات الغزلية العادية السابقة ، ويقول أيضاً :

تركــتُ لِمهْــديِّ الأنَــام وصَــالَهَا ∴ ورَاعَيْتُ عَهْداً بَيْنَنَا لَــيْسَ بــالختْر

أما أبو نواس فقد غلبت شهرةُ خمرياته شهرة غزله ، ولعل الذي يستحق الذكر في شعره الغزل هنا تغز له بالغلمان والغلاميات .

المبالغة في الغزل :

ومن الظواهر البالغة الجدة في الشعر العربي عامة ظاهرة الغزل بالمذكر ، ولا تذكر هذه حتى يذكر معها ما حل بالمجتمع من فجور ظاهر ، وانتشار للتمتــع بالمُرْدِ من الغلمان ، بل وارتكاب الفاحشة معهم ، وهذه من المصائب الكبيرة التي عمت المجتمع المسلم في هذه العصر .

ويكفي على شيوع هذه الظاهرة دليلاً أن يتهم بها يحيى بن أكــثم قاضــي القضاة ، ولم يكن اتهامه بها من أحد الحاقدين عليه ، بل كان من الخليفة المأمون نفسه ، يقول أبو العيناء " نظر المأمون إلى يحيى بن أكثم يلحظ خادماً له ، فقــال للخادم : تعرَّضْ له إذا قمتُ ، فإني سأقوم للوضوء ، وأمره ألا يبرح ، وعد إلــيَّ بما يقول ، وقام المأمون ، وأمر يحيى بالجلوس ، فلما قام غمزه الخادم بعينه فقال يحيى : ﴿ **لوْلاَ أَنْتُمْ لكُنَّا مُؤْمِنِين** ﴾ [1] ، فمضى الخادم إلى المأمون ، فقال له عد إليه فقل له : ﴿ **أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْــرِمِيْن** ﴾ [2] فخرج الخادم إليه ، فقال له ما أمره به المأمون ، فأطرق يحيى ، وكــاد يمــوت جزعاً ، وخرج المأمون يقول :

مَتَى تَصْلُحُ الدُنْيَا وَيصْــلُحُ أهْلُهَــا ∴ وَقَاضِيْ قُضَــاةِ المُسْــلِمِيْنَ يَلُــوْطُ

قم وانصرف واتق الله ، وأصلح نيتك "[3] .

---

(١) سورة سبأ الآية : ٣١ .

(٢) سورة سبأ ، الآية ٣٢ .

(٣) أبو الفرج على بين الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملــة محــررة ، معهــا فهارس بإشراف وتحقيق إبراهيم الإبياري ، سنة ١٣٨٩ هــ – ١٩٦٩ . ٢٣ / ١٩٤١ .

وقد كانت هذه الإباحية الزائدة هي السبب في شيوع ظاهرة التغزل بالغلمان ، حتى وصلت إلى الأسرة التي تحكم المسلمين " فقد كان طبيعياً أن يشيع الغزل الماجن في هذا العصر ، وبلغ من حدته أن شاع الغزل الشاذ بالغلمان "(١) .

ومن أهم شعراء الغزل بالغلمان أبو نواس، والحسين، بن الضحاك ، أما أبو نواس فهو الشاعر الأسير عند الأمين ، يقول في إحدى قصائده الماجنة عن أحد الغلمان:

كَأَنَّ ثِيَابِهِ أطْلَلْنَ مِنْ أزْرَارِهِ قمَرَا ∴ يَزِيْدُكَ وَجْهُهُ حُسْناً إذَا مَا زِدْتَهُ نَظَرَا

بِعَيْنٍ خَالَطُ التَّفْتِيْرَ مِنْ أجْفَانِهَا الحَوَرَا ∴ وَخَدٍ سَابِرِيٍّ لَوْ تَصَوَّبَ مَاؤُهُ قطُرَا

ويقول أيضاً :

يَسْعَى بِهِ خَنِثٌ فِي خُلْقِهِ دَمثٌ ∴ يَسْتَأثِرُ العَيْنَ فِي مُسْتَدْرَجَ الرَّائِيْ

مُقرَّطٌ وافِرُ الأرْدَافِ ذُوْ عَنَج ∴ كَأَنَّ فِي رَاحَتَيْهِ وَسْمُ حِنَّاءِ

قدْ كسَّرَ الشَّعْرَ وَاوَاتٍ وَنَضَّدَهُ ∴ فَوْقَ الجَبِيْنِ وَردَّ الصدغَ بالفَاءِ

" وتبلغ هذه الموجة غايتها في عهد الأمين ، إذ حول قصر الخلافة إلى ما يشبه مقصفاً للخمور والمجون ، واتخذ أبا نواس نديمه "(٢) .

وإذا سلمنا بأن هذه الظاهرة لم تكن وليدة عهد الأمين ، إلا أننا نرى أنه ساعد في استمراريتها في عهده ، بل احتوى شاعرها الأول أبا نواس ، أما المرات التي كان يحبس فيها أبا نواس فإني أراها من أنواع استهتاره ورعونته ، فلم يكن صادقاً في زجر أبي نواس ، كما كان المهدي حيال بشار ، فإن أبا الفرج يروي أن كوثراً خادم الأمين خرج ليرى الحرب في أيام الفتنة بين الأمين والمأمون ، فأصابته رجمة في وجهه " فجلس يبكي ، فوجد محمد لما جيء به وجعل يمسح الدم عن وجهه وقال :

ضَرَبُوا قرَّةَ عَيْنِي ∴ وَمِنْ اجْلِي ضَرَبُوهُ

---

(١) شوقي ضيف العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ ، ص ١٧٧ .

(٢) نفسه ، ص ١٧٩ .

أخَــــــــذَ اللهُ لِقَلْبِــــــــــي ∴ مِــــــنْ أنَــــــاسِ رَجَمُــــــوْهُ

وقال : وأراد زيادة في الأبيات ، فلم تواته ، فقال للفضل بن الربيع : مَنْ ها هنا من الشعراء ؟ فقال : الساعة رأيت عبد الله بن أيوب ، فقال : عليَّ به ، فلمَّا أدْخِلَ أنشدِه محمد هذين البيتين وقال أجزهما ، فقال :

مَـــا لِمَـــنْ أهْـــوَى شَـــبِيْهُ ∴ فَبِــــهِ الــــدُّنْيَا تتِيْــــهُ

وَصْـــــلُهُ حُلْـــــوٌ ولَكِـــــنْ ∴ هَجْـــــرُهُ مُـــــرٌّ كَرِيْــــهُ[(١)]

وهكذا ، وجدنا الأمين في هذا الموقف العصيب ، والجنود يضربون بغداد بالمنجنيق ، والأهوال تحيط به من كل جانب ، لا يرعوي عن استهتاره ، بل يتغزل في غلامه كوثر ، فما بالنا بما كان قبل ذلك من أوقات الرخاء قبل حصار بغداد .

أما الغلاميات فقد كان للأمين خاصة ، فإن زبيدة أمه لما رأت شذوذه ، وميله للغلمان ، كانت تُلْبِسُ الجواري أزياء الغلمان ، حتى تعدل قدر استطاعتها من انحرافه ، فإذا بالشعراء يتغزلون فيما سُمِّيَ بالغلاميات ، وهن الفتيات اللائي يلبسن ملابس الغلمان ، فنستطيع أن نعتبر هذه الظاهرة الشعرية عباسية المنشأ ، مرتبطة بشذوذ الأمين .

وبعد يجوز لنا أن نعترف بدور القصر العباسي في حركة الغزل ، اهتم الحكام به فأصبح فناً رسمياً ، يطلبه الحكام ويثيبون عليه ، ثم رأينا أثرهم في تهذيب شعر الغزل الفاحش عند بشار من المهدي ، وأخيراً التغزل بالغلمان والغلاميات ودور الأمين فيها ونحن نرصد الظاهرة فقط ، ولا نذهب إلى شيء من تحليلها أو تفسيرها بأحد المناهج البحثية الحديثة .

---

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق : إبراهيم الإبياري ، سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، ٢٢ / ٧٦٨٣ .

المبحث الثالث

الاهتمـــــام بالهجاء

من الأغراض الشعرية القديمة التي وجدت في الشعر العربي منذ العصـــر الجاهلي ، " وجوده أمرٌ طبيعي ، مع وجود المديح ، فحينما وجد أناسٌ يســتحقون المديح ، وجد غيرهم يستحقون الهجاء "(١) . وقد مر هذا الفن بمراحل من التطور أثناء العهد الأموي ، ثم نما في عصر بني العباس ، وقد أفاض كثير من البــاحثين في الحديث عن أغراض الشعر في العصر العباسي ، وأدلى كل باحث بدلوه فــي الحديث عن تطور الأغراض ومن بينها الهجاء ، ولا نريد تكرار ما توصل إليــه غيرنا من نتائج ، ولا نريد الخوض في مناقشاتهم في تحليل التجديد الذي وصــل إليه الهجاء في هذا العصر ، فما إلى هذا قصدنا في بحثنا ، ولكن نبتغي تلمس أثر للحكام في هذا الفن ومن ثم التجديد فيه .

من المعروف أن هذا العصر اتسم بالفحش في كل شيء ، فــي ســلوكياته الاجتماعية ، وما نتج عن هذه السلوكيات من فن أدبي ، وتمثل هذا الفحش الفنــي بصفة خاصة في فني الغزل والهجاء ، وقد تحدثنا عن فحش القول في الغزل مــن قبل ، وأما الهجاء فلم يخل من فحش في العهود السابقة ، خاصـــة فــي نقــائض الشعراء الأمويين ، ولكن الجديد في ذلك العصر هو ذلك الإفراط في هذا اللــون من الهجاء لدى الشعراء ، وكثرة جريان الألفاظ البذيئة علــى ألســنتهم ببســاطة عجيبة حتى في مجالس الخلفاء والأمراء والوزراء دون أن يجدوا في ذلــك مــا يخدش الحياء (٢) .

وإذا نظرنا إلى الهجاء ، وجدنا الشاعر لا يهجو إلا من يغضب منــه ، ولا يكون هذا الغضب إلا بسبب الاختلاف في الرأي ، أو في العقيدة أو فــي مــنهج الحياة ، وفي كثير من الأحيان يكون متعلقاً بالمال ، أي بالعطاء ، ويكــون ذلــك الخلاف غالباً بين أحد أفراد البيت الحاكم ، أو بين أحد الأغنيــاء وبــين الشــاعر

---

(١) محمد مصطفى هدارة ، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ط ١ ، بيروت ، مطبعة دار العلوم العربية ، سنة ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ ، ص ٤٤٥ .

(٢) عز الدين إسماعيل ، في الشعر العباسي ، الرؤية والفن ، المكتبة الأكاديمية ، ص ٣٦٢ .

" وكان سبب هجاء أبي الأسد أحمد بن أبي دؤاد أنه مدحه فلم يثبه ، ووعده بالثواب ومطله "[١] . وكذلك ربيعة الرقي لما امتدح العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس :

لَوْ قِيْلَ للْعَبَّاسِ يَابْنَ مُحَمَّدٍ ∴ قُلْ لاَ وَأَنْتَ مُخَلَّدٌ مَا قَالَهَا
مَا إنْ أعُدُّ مِنْ المَكَارِمِ خِصْلَةً ∴ إلاَّ وَجَدْتُكَ عَمَّهَا أوْخَالَهَا
وإذَا المُلُوكُ تَسَايَرُوْا فِيْ بَلْدَةٍ ∴ كَانُوْا كَوَاكِبَهَا وكُنْتَ هِلاَلَهَا

فأثابه عليها بدينارين فكتب إليه يقول :

مَدَحْتُكَ مِدْحَةَ السَّيْفِ المُحَلَّى ∴ لِتَجْرِي فِيْ الكِرَامِ كَمَا جَرَيْتُ
فَهَبْهَا مدْحَةً ذَهَبَتْ ضَيَاعاً ∴ كَذَبْتُ عَلَيْكَ فِيْهَا وافْتَرَيْتُ
فأنتَ المَرْءُ لَيْسَ لَهُ وَفَاءٌ ∴ كَأنِّي إذْ مَدَحْتُكَ قَدْ رَثَيْتُ[٢]

فقد اغتاظ الشاعر من عدم تقدير الفن ، فقلت مدحه هجاءً ، لذلك تضايق الرشيد لما علم بالعطية ، ووبخ العباس وجفاه ، وأمر لربيعة بمبلغ كبير وخلعه .

وقد كان لهذه الأموال دور كبير في كم وافر من الهجاء كنا سنسمع به لو لم تسكت الشعراء ، فما دام الشاعر يأخذ الأموال التي يرغب فيها ، فل حاجة إذن إلى هجاء الحاكم ، فإذا قل التقدير راش الشاعر الحاكم بسهامه المصمية .

– فقد كانت الضرورة المادية أحد أهم الضرورات التي دفعت بشاراً إلى الهجاء. " ثم إن هو احترف المديح ، فلن يجني – ورائه – كبير الفائدة ، لذلك استخف الشاعر بالناس – كل الناس – حكاماً ومرءوسين ، ولم يعرهم أدنى اهتمام "[٣] .

– لذلك وجدنا أبا دلامة لما دخل على المهدي " وعنده إسماعيل بن محمد ، وعيسى بن موسى ، والعباس بن محمد ، ومحمد بن إبراهيم الإمام ، وجماعة من بني هاشم فقال له : أنا أعطي الله عهداً لئن لم تهج واحداً ممن في البيت لأقطعن

---

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق : إبراهيم الإبياري ، سنة ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ م ، ١٤ / ٥٠٠٨ .

(٢) نفسه : ١٧ / ٦٠٦٧ .

(٣) توفيق الفيل ، القيم الفنية المستخدمة في الشعر العباسي ، الكويت ، مطبوعات جامعة الكويت ، مكتبة ذات السلاسل ، د.ت ، ص ١٦٣ .

لسانك أو لأضربن عنقك ، فنظر إليه القوم ، فكلما نظر إلى واحد منهم غمزه بأن عليه رضاه ، فإذا به بعد هذه الترضية لا يجد أفضل من أن يهجو نفسه :

ألاَ أبْلِغْ إلَيْكَ أبَا دُلاَمَةْ ∴ فَلَيْسَ مِنْ الكِرامِ وَلاَ كرامهْ

إذاَ لبسَ العَمَامَةَ كَانَ قِرْداً ∴ وَخِنْزِيْراً إذَا نَزَعَ العَمَامَةْ

جَمَعْتَ دمَامَةً وَجَمَعْتَ لُؤْماً ∴ كَذَاكَ اللُؤْمُ تَتْبَعُهُ الدِّمَامَةُ

فإنْ تَكُ قَدْ أصَبْتَ نَعِيْم دُنْيَا ∴ فلاَ تَفْرَحُ فقَدْ دنَتِ القِيَامَهْ[(١)]

وقد فقد الشاعر شعوره حينما هجا نفسه ، ثم حين أحس بالخير الكثير الذي سيحصل عليه من الجالسين ، " فإن تلك قد أصبت نعيم دنيا " .

فقد كانت أموال الحاكم سداً وإن لم يكن منيعاً أمام كم من الهجاء لم يحدث ، ولا أستطيع أن أحدد إن كان هذا خسارة للفن أم مكسباً له .

وأما الإفحاش الحاد في الهجاء فأرى أن تسامح بعض الخلفاء الزائد كان له دور في استمرار هذه الموجة القبيحة ، وإن كان بشار قد دفع حياته لهذه البذاءة في الهجاء ، فإن هذا لا يمنع أن المهدي تساهل معه قبل هذا إلى حد ما ، ولم يثر المهدي إلا البذاءة الزائدة كثيراً عن المعقول في حق الخليفة وأهله ، يقول بشار في هجاء المهدي :

خَلِيْفَةَ يَزْنِي بِعَمَّاتِهَ ∴ يَلْعَبُ بالدَّبُّوقِ والصَّوْلجَانْ

أبْدَلَنَا اللهُ بِهِ غَيْرَهُ ∴ وَدَسَّ مُوْسَى فِيْ حِرِ الخَيْزُرَانْ[(٢)]

وإن كان الذي قتل بشاراً في خبر الطبري ليس المهدي ، بل هو يعقوب بن داود ، بل إن ابن المعتز يروي أن المهدي لما قتل بشاراً ندم على ذلك[(٣)] .

---

(١) أبو الفرج علي الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة مها فهارس بإشراف وتحقيق إبراهيم الإبياري سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ . ٣٧٢٢/١٠ . وأبي دلامة ، ديوان ، ط١ ، بيروت ، دار الجيل ، شرح وتحقيق ، إميل بديع يعقوب ، سنة ١٩٩٤ م ، ١٤١٤ هـ ، ص ١٠٩ .

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، طبعة دار المعارف ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، لسنة ١٩٦٦ ، ١٨١/٨ . وأبو الفرج على الحسين الأصفهاني ، الأغاني : طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة مها فهارس بإشراف إبراهيم الإبياري ، سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م. ١٠٩٠/٣ .

(٣) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، مصر ، دار المعارف ، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ، ص ٢٢ .

فهذا يجعلنا نرى أن المهدي أمتلك شيئاً من التسامح مع بـذاءة بشـار الزائـدة ، خاصة إذا كانت البذاءة بعيدة عن حرم الخليفة .

وإذا استثنينا المنصور خليفة المسلمين ، فإن الخلفاء والوزراء قد امتلكوا شيئاً غير قليل من التسامح ، جعل الهجاء الفاحش يزدهر ، فإذا كان المأمون قد سامح دعبلاً الخزاعي بشكل مباشر ، فقد يجعل ذلك الشعراء يتجرأون على أي أحد ، أو على أقبح المعاني " قيل للمأمون : إن دعبل بن عليّ قد هجاك ؛ فقال : وأي عجب في ذلك ، هو يهجو أبا عباد ولا يهجوني أنا ، ومن أقدم على جنون أبي عبـاد أقـدم على حلمي "[1].

وقد هجا الشعراء اعتماداً على هذا العفو – كثيراً من حكام بني العبـاس ، وكـان الأمين بسبب فساده وغيه هدفاً لهجاء الشعراء ، وقد أورد الطبري بعض الهجـاء فيه دون ذكر اسم صاحبه ، من ذلك قول الشاعر :

أضَـاعَ الخِلافَـةَ غِـشُّ الـوزيرْ ∴ وَفِسْـقُ الإمَـامِ وَجَهْـلِ المُشِـيْرْ
ففَضْـلٌ وَزَيْـرٌ وبَكْـرٌ مُشِـيْرٌ ∴ يُرِيْـدَانِ مَـا فِيْـهِ حَتْـفُ الأمِيْـرْ
لُـوَاطُ الخَلِيْفَـةِ أعْجُوْبَـة ∴ وَأعْجَـبُ مِنْـهُ خَـلاَقُ الـوَزِيْر
فهَـذَا يَـدُوْسُ وَهَـذَا يُـدَاسُ ∴ كَذَاكَ لَعَمْـرِيْ اخـتِلافُ الأمُـوْرْ[2]

ويكفي الأمين دوراً أنه رفيق أبي نواس ، شعره الداعر في كل الأغراض معروف وهو الذي يقول في هجاء دام فاحش :

يَـا نَـافِعَ بْـنَ الفَـاجِرَةَ ∴ يَـا سَـيِّدَ المُـؤاجِرَةْ
يَـا حِلْـفَ كُـلِ دَاعِـرِ ∴ وَرَوْجَ كُـلِ عَـاهِرَةْ
مَـا أمَـة تمْلِكُهـاَ ∴ أوْ حُـرَّةٌ بطـاهِرَةْ
تِجَـارَةٌ أحْـدثتَها ∴ فِـي الكَشْـح غَيْـرُ بَـائِرَةْ

---

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق : إبراهيم الإبياري ، سنة ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ م ، ٢٢/٧٨٠٠ .

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحـة ، طبعـة دار المعـارف ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، سنة ١٩٦٦ ، ٨ / ٣٩٦١ .

لَـــــــوْ دَخَلَــــــــتْ عَفِيْفَـــــــــة ∴ بَيْتَـــــكَ صَـــــارَتْ فـــــاجِرَةْ(١)

وإذا جاز لنا أن نعترف بأن السبب الأكبر والمباشر لهذه الموجة الماجنة ليس الحكام وحدهم ، بل هناك أيضاً الترف الزائد ، والنقلة الحضارية الكبيرة ، المنقولة من الحضارة الفارسية ، والأثر الفارسي واضح في هذه الموجة الماجنة لا شك في ذلك إلا أننا لا نستطيع أن نعفي الحكام من المسؤولية عن شيء من الدعارة وهذا الفحش في القول ، وهذه الإباحية الزائدة ، وقد يكون انشغال الحكام بأمور السياسة قد جعلهم يتهاونون مع الشعراء في بعض الأحيان ، فدعبل يقول أنه يحمل خشبته على رأسه منذ خمسين عاماً ، لا يجد من يصلبه عليها ، وهو من أكبر الهجائين في هذا العصر .

فإذا كان الحاكم ينشغل أو يتسامح في هجاء قيل فيه ، فإن ذلك يفتح الباب على مصراعيه أمام الشاعر يهجو بشعره الناس العاديين ولا حرج عليه في ذلك .

ويرى الباحث أن الحاكم لو أصدر أحكامه بمنع الفحش في القول عامة – والهجاء منها بالطبع – ، وكان من القوة بمكان ، لكسر حدة هذه الموجة العابثة ، خاصة أن كثيراً من الشعراء يخشون الحاكم إذا وجدوا فيه شدة ، فهذا بشار على جرأته المعهودة ، وسلاطة لسانه ، يدخل على إبراهيم بن عبد الله بن حسن " فأنشده قصيدة يهجو فيها المنصور ويشير عليه برأي يستعمله في أمره ، فلما قتل إبراهيم خاف بشار ، فقلب الكنية ، وأظهر أنه كان قالها في أبي مسلم وحذف منها أبياتاً"(٢) .

ولا يظن أن الشعراء الذين هجوا الخلفاء كانوا يعتمدون على قوة خفية تحمي ظهورهم إن صح التعبير كما يرى ذلك محمد عبد العزيز الموافي(٣) .

وذلك لأن الخلفاء في العصر العباسي (١٣٢-٢٣٢ هـ) كانوا حكاماً أقوياء قضوا على كل من يحاول مشاركتهم في سلطتهم ، فقد قضوا على أبي مسلم ،

---

(١) عز الين إسماعيل ، في الشعر العباسي الرؤية والفن ، المكتبة الأكاديمية ، ص ٣٦٢ .

(٢) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق إبراهيم الإبياري ، سنة ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ م ٣ / ١٠٠٤ .

(٣) حركة التجديد في الشعر العباسي ، مكتبة الشباب ، سنة ١٩٩١ م ، ص ٨٥ .

وعبد الله بن علي ، ثم فتكوا فتكاً ذريعاً بالبرامكة على الرغم من مكانتهم في قلوب الناس ، وبالرغم من قوتهم ونفوذهم ، فأرى أنه من غير المعقول أن يعجزوا عن القضاء على شاعر مهما كان سنده ، ولكنه في رأيي – التسامح والعفو الزائد عن الحد ، الذي أوصل الهجائين إلى مجاوزة الحد في فن الهجاء .

الاهتمام بالزهد :

هذا الغرض ليس جديداً على هذا العصر ، ولكنه غرضٌ قديمٌ ، له جذور سبقت العصر العباسي بزمن طويل ،وقد يكون من الطبيعي ألا يذكر هذا الغرض – خاصة – هنا ، لأن من الطبيعي أن الزاهدين ينأون عن بلاطات الحكام ، ويبتعدون عنهم ، زاهدين في كل ما يحيط بهم من زخارف الدنيا ، رافضين ما يعرض عليهم من متاعهم ، رغبة منهم في نيل الجزاء الأعظم في جنات النعيم ، مطمئنين إلى هذا ، لذا هُم ساخطون على الدنيا ، ذامون لها – فها هو عمرو بن عبيد الزاهد يسأله المنصور ، " يا أبا عثمان ، هل لك من حاجة ؟ قال : نعم ، قال: وما هي ؟ قال : لا تبعث إليَّ حتى آتيك ، ولا تعطني حتى أسألك . قال المنصور : إذاً لا نلتقي ، فقال عمرو : عن حاجتي سألتني. فودعه وانصرف "(١).

فطبيعي أن يكون شعرهم متعلقاً بذم الدنيا ، والرجوع إلى الله ، والإنابة إليه ، ولا علاقة لهم بالحكام على هذه الصورة ، أو من هذا المنظور ، ولا علاقة للحكام بالشعراء الزهاد ، أو شعرهم ، سواء أكان جديداً أو قديماً .

وإذا نظرنا إلى نزعة الزهد نفسها – سواء كانت في شعر أو بدونه – فإن بعض الباحثين يرى أنها كانت رد فعل للهو والمجون والزندقة ، ووجود فوارق اجتماعية بين طبقات المجتمع(٢) .

ويرى الباحث أن ظهور مجموعة من الزهاد في مجتمع مسلم ليس له كبير الصلة بما حل بالمجتمع من فساد ، أو من فروق طبقية بين أفراده ، وإلا لوقفنا

---

(١) الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بين كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ، المنصورة ، طبعة مكتبة الإيمان ، خرج أحاديثه محمد بيومي ، عبد الله المنشاوي ، محمد رضوان مهنا ، د.ت ، ٤٨٢/١٠.

(٢) ينظر محمد مصطفى هدارة ، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ط ١ ، بيروت ، مطبعة دار العلوم العربية ، سنة ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ ، ص ٣٠٨ .

حائرين أمام زهد الصحابة ، وتقواهم ، وذمهم للدنيا ، مع مـا كـان يمتلـئ بـه مجتمعهم من تقوي وصلاح ، أو لوقفنا حائرين أيضاً أمام أصحاب الأموال الـذين باعوا الدنيا بكل ما فيها وأقبلوا على الله طامعين في ثواب الآخرة ، وهم كثيـرٌ ، ويرى الباحث أن حركة الزهد هذه ليست في حاجة إلى تعقيد في تفسيرها ، إنمـا هي من نوع تفاوت الناس في قبول تعاليم السماء ، فلا نستطيع أن نقول أن قبـول الناس لوعظ والنصح في ذم الدنيا يكن على وتيرة واحدة ، وإنما يتفاوت ذلك مـن نفس إلى أخرى ، هؤلاء الزهاد سمعوا الوعظ فاتعظوا ، فـي حـين لـم يـتعظ آخرون، وهذا طبيعي من الجائر أن يحدث سواء وجدت فـي مجتمـع صـالح أو مجتمع مملوء بالفاسدين .

أما شعر الزهد وسبب إثباته هنا فإن الباحث صادف في بعض خلفاء بنـي العباس ميلاً إلى شعر الزهد ، وترحيباً به ، بل وقولاً فيه ، وتشجيعاً له .

وإذا كانت طبيعة الزاهد نفسها قد لا تهتم بالقدح أو بالمدح ، فأنني وجـدت في بعض الحكام طلباً مباشراً لشعر الزهد . ومن الطبيعي أن يكون ذلك دافعاً إلى تطوره وإلى ازدهاره ، فإن البضاعة التي يطلبها الحكام لابد لهـا مـن نهـوض بصورة أو بأخرى .

كان أبو العتاهية ترك قول الشعر ، فحكى فقال : " لما امتنعت من قول الشـعر ، أمر المهدي بحبسي في سجن الجرائم وهدده بالقتل أو قول الشعر فقال : بل أقول الشعر "(١). وأبو العتاهية من رواد شعر الزهد ، وإن كان الخبر لم يـذكر نـوع الشعر الذي طلبه الخليفة ، إلا أن أخباراً أخرى كثيرة تؤكد رغبـة الخلفـاء فـي سماع شعره ، حتى ولو كان قاسياً ، فها هو الأصمعي يقول : " صنع الرشيد يوماً طعاماً كثيراً ، وزخرف مجالسه ، وأحضر أبا العتاهية فقال : صف لنا ما نحـن فيه من نعيم هذه الدنيا فقال :

عِـشْ مَـا بَـدَالَكَ سَـالِماً ∴ فـي ظِـلِ شَـاهِقَةِ القُصُـورْ

فقال : أحسنت ثم ماذا ؟ فقال :

---

(١) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ط ١ ، مكتبة النهضة المصرية ، تحقيق ، محمد محي الدين عبد الحميد ، سنة ١٩٤٨ م ، ٢٠٣/١.

يَسْـــعى إليْـــك بمَـــا اشْتَهَيـــــــ ∴ ت لَـــدَى الـــرَّوَاح وَفِـــي البُكُـــور

فقال : أحسنت ثم ماذا ؟ فقال :

فـــــإذَا النُفُـــــوسُ تَقعقعَـــــتْ ∴ فِـــي ظِـــلِ حَشْـــرَجَةِ الصُـــدُوْر

فَهُنَـــــاكَ تعْلَـــــمْ مُوْقِنـــــاً ∴ مَـــا كُنْـــتَ إلاَّ فِـــي غُـــرُوْرْ

فبكى الرشيد ، وقال الفضل بن يحيى : بعث إليك أمير المؤمنين لتسره ، فحزنته فقال : دعه فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا "[١] .

فلم يستجب الرشيد لتحريض الفضل ضد أبي العتاهية ، وما ذلك إلا لسمو نفسه ، ووجود بذرة الزهد داخله ، وإن كانت زخارف الدنيا في من هو في موضعه ثقيلة، يصعب الانتباه إليها إلى غرورها إلا لمن رحم الله .

والرشيد خاصة كان من أكثر الناس دموعاً ، لخوفه الشديد من الله ، وكان كثير النظر في شعر أبي العتاهية الزاهدة ، قال الأصمعي : " دخلت يوماً على الرشيد وهو ينظر في كتاب ، ودموعه تنحدر على خديه ، فظللت قائماً حتى سكن ، وحانت منه التفاتة ، فقال : اجلس يا أصمعي ، أرأيت ما كان ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : أما والله لو كان لأمر الدنيا ما رأيت هذا ، ورمى بقرطاس فإذا فيه شعر لأبي العتاهية :

هَـــلْ أنْـــتَ مُعْتَبِـــرٌ بِمَـــنْ خَلَّيْـــتَ ∴ مِنْـــهُ غَـــدَاةَ مَضَـــى دَسَـــا كِـــرُهُ

وبِمَـــنِ أذَلَّ المَـــوْتُ مَصْـــرَعَهُ ∴ فَتَبَـــــرَّأتْ مِنْـــــهُ عشَـــــائِرُهُ

وَبِمَـــنِ خَلَـــتْ مِنْـــهُ أسِـــرَّتُهُ ∴ وَبِمَـــــنْ خَلَـــتْ مِنْـــهُ مَنَـــابِرُهُ

أيْـــنَ المُلُـــوْكُ وَأيْـــنَ غَيْـــرُهُمْ ∴ صَـــارُوْا مَصِـــيْراً أنْـــتَ صَـــائِرُهُ

يَـــا مُـــؤْثِرَ الـــدُّنْيَا بلذَّتِـــهِ ∴ وَالمُسْـــتَعِدَّ لِمَـــــنْ يُفَـــاخِرُهُ

نَلْ مَا بَـدالَكَ أنْ تَنَـالَ مِـنَ الـدُّ ∴ نْيَـــا فَـــإنَّ المَـــوْتَ آخِـــرُهُ

قال الرشيد : كأني والله أخاطب بذلك دون الناس " [١].

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، تحقيق : محمد يوسف الدقاق ، ٥ / ٣٥٩.

ثم هو نفسه يقول لأبي العتاهية : عظنى بأبيات من الشعر ، فيقول أبو العتاهية :

لاَ تَأمَنِ المَوْتَ فِيْ طَرْفٍ وَلاَ نَفَسٍ ∴ وَلَوْ تَمَتَّعْتَ بالحُجَّابِ وَالْحَرَسِ

وَاعْلَمْ بأنَّ سِهَامَ المَوْتِ صَائِبَةَ ∴ لِكُلِ مُدَّرعٍ مِنْهَا وَمُتَّرسٍ

تَرْجُوْ النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا ∴ إنَّ السَّفِيْنَةَ لاَ تَجْرِىْ عَلَى اليَبَسِ(٢)

وإذا كان الخلفاء كثيري الاستماع إلى الزهد بهذه الطريقة ؛ فإن هذا يفسر لنا المقطوعات الشعرية التي رواها المؤرخون للخلفاء ، كالمنصور والمهدي والرشيد، وأمكننا أن ننسب كثيراً من المقطوعات غير المنسوبة لقائل إلى الخلفاء أنفسهم ، فإنهم يمتلكون نفساً زاهدة ، قد ترتكب الكثير من التصرفات غير المقبولة في كثير من الأحيان ، ولكنها تنضح زهداً عند تذكر الموت والآخرة .

من ذلك ما يروى للمنصور أنه " لما دخل آخر منزل نزله من طريق مكة ، نزل في صدر البيت الذي نزله فإذا فيه مكتوب :

أبَا جَعْفَرٍ حَانَتْ وَفَاتُكَ وانقْضَتْ ∴ سُنُوْكَ ، وأمْرُ اللهِ لاَ بُدَّ وَاقِعُ

أبَا جعْفَرِ هَلْ كَاهِنٌ أوْ مُنَجِّمٌ ∴ لك اليَومَ مِنْ حَرِّ المَنِيَّةُ مَانِعُ

قال : فدعا المتولي لإصلاح المنازل ، فقال له : ألم أمرك ألا يدخل المنزل أحدٌ من الدعَّار ! قال : يا أمير المؤمنين والله ما دخلها أحد منذ فرغ منها ، فقال : اقرأ ما في صدر البيت مكتوباً ، قال : ما أرى شيئاً يا أمير المؤمنين ، قال : فدعا برئيس الحجبة فقال : اقرأ عليَّ ما على صدر البيت مكتوباً ، قال : ما أرى شيئاً ، فأمر أن يكتبا عنه "(٣) .

---

(١) المسعودي ، أبو الحسن على بن الحسين بن علي ، مروج الذهب ومعان الجوهر ، ط ٣ ، مصر ، طبعة السعادة ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، سنة ١٩٥٨ م ، ٣ / ٣٧٦.

(٢) الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ، المنصورة ، طبعة مكتبة الإيمان ، خرج أحاديثه الشيخ : محمد بيومي ، أ. عبد الله المنشاوي ، أ. محمد رضوان مهنا ، د.ت ، ٥٧٩/١٠.

(٣) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل ، والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، طبعة دار المعارف ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، سنة ١٩٦٦ ، ٨ / ١٠٩ .

وقد روى مثل ذلك للمهدي والرشيد ، وأرى أن سبب ذلك ميل الخلفاء الدفين إلى الزهد ، وسماعهم الكثير له ، وعدم تعصبهم عليه رغم قسوته في بعض الأحيان ، وقد ترك ذلك لهم حساً زهدياً ، خرج في هذه المقطوعات غير معروفة القائل .

ومن هذا يجوز أن نعتبر بعض الحكام مشاركين للشعراء الزاهدين في زهدهم ، ألهجت ألسنتهم بالزهد ، فتعمق في نقوس بعضهم ، وخرج فناً وأدباً راقياً.

ولا داعي في هذا البحث لذكر الكثير من الشعراء الزهد في هذا العصر من أمثال أبي نواس وما دار حول زهدياته من جدل ، أو محمود الوراق ، أو محمد بن كناسة ، أو عبد الله بن المبارك ، فإننا لا ننتهج الحديث عن الغرض بصفة عامة ، بل نبتغي التوصل إلى صلة الحاكم بالغرض إن كان إلى ذلك من سبيل .

الاهتمام بالشعر التعليمي :

هذا النوع من النظم بدعة عباسية خالصة ، استوت ملامحها على يد الشاعر العباسي أبان بن عبد الحميد ، وإن كان هدَّارة يثبت في كتابه " اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري " أن هناك محاولات سبقت من هذا النوع على لسان الوليد بن يزيد أو محمد بن إبراهيم الفزاري ، أو اسحق بن حنين[١] ، إلا أنني أرى أن هذه المحاولات لم تكن تامة الجوانب كما كان شعر أبان التعليمي.
وقد كان هذا النوع من النظم بإرشاد وتوجيه مباشر من الوزير يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد ، أي أنه صاحب الفضل في فكرة النظم التعليمي برمتها ، فقد روى الصولي في كتاب الأوراق عن حماد بن إسحق قال : " ألزم يحيى بن خالد البرمكي أبان بن عبد الحميد داراً لا يخرج منها حتى ينقل كتاب كليلة ودمنة من الكلام إلى الشعر ، فنقله ، فوهب له عشرة آلاف دينار "[٢].
وروى أيضاً أن ابناً لأبان بن عبد الحميد اللاحقي قال : " أحب يحيى بن خالد أن يحفظ كتاب كليلة ودمنة ، فاشتد عليه ذلك ، فقال له أبان بن عبد الحميد : أنا

---

(١) ص ٣٨٤ .

(٢) ص ٢ .

أعمله شعراً ليخف على الوزير حفظه ، فنقله إلى قصيدة عملها مزدوجة ، عدد أبياتها أربعة عشر ألف بيت ، في ثلاثة أشهر ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل خمسة آلاف دينار "[١] .

وبهذا النظم عُدَّ أبان بن عبد الحميد مبتكر هذا الفن في الأدب العربي . يقول طه حسين – في أثناء حديثه عن أبان بن عبد الحميد – " إن أبان بن عبد الحميد لا يثبت للشعراء المعروفين في فنون الشعر التي اعتادها الشعراء ، ولكنه يفوقهم في شيء نحسب أنه هو الذي ابتكره وسبق إليه ، فهو إمام طائفة عظيمة الخطر من الناظمين ، بمعنى أنه ابتكر في الأدب العربي فناً لم يتعاطه أحد من قبلهل ، وهو فن الشعر التعليمي "[٢] .

ويقول أيضاً : " إلى هذا الفن سبق أبان بن عبد الحميد في الأدب العربي ، فأنشأ كثيراً من الشعر التعليمي ، طرق فيه فنوناً مختلفة من العلم والحكمة والدين "[٣] .

ومن قصيدته التي نقل فيها كليلة ودمنة :

هَذَا كُتَابُ كَذِبٍ وَمِحْنَهْ ∴ وَهْوَ الَّذِيْ يُدْعَي كَلِيْلَ دِمْنَهُ
فِيْهِ دِلاَلاَتٌ وَفِيْهِ رُشْدُ ∴ وَهْوَ كِتَابٌ وَضَعَتْهُ الهِنْدُ
فَوَصَفُوْا آدَابَ كُلِّ عَالِمْ ∴ حِكَايَةً عَنْ أَلْسُنِ البَهَائِمْ
فالحُكَمَاءُ يَعْرِفُوْنَ فَضْلَهُ ∴ وَالسُّخَفَاءُ يَشْتَهُوْنَ هَزْلَهُ
وَهْوَ عَلَى ذَاكَ يَسِيْرُ الحِفْظِ ∴ لذٌّ عَلَى اللّسَانِ عِنْدَ اللَّفْظِ[٤]

ثم عمل أبان بعد نظم كليلة ودمه كتباً منظومة في التاريخ ، والصوم ، والصلاة ، وغير ذلك مما طلبه منه بعض رجالات البرامكة ، الذين أجز لواله العطاء .

وعلى منوال نسج أبان ، نسج أبو العتاهية (ذات الأمثال) ، التي احتوت على كثير من الوعظ والحكم :

---

(١) نفسه ، ص ٣ .

(٢) حديث الأربعاء ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، ٢ /٢٢٠ .

(٣) نفسه : ٢/٢٢١ .

(٤) أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي ، الأوراق ، ط ٢ ، بيروت ، طبعة دار المسيرة ، عني بنشره ج ، هيورث ، دن ، سنة ١٤٠١ هـ – ١٩٨٢ م ، ص ٤٦ .

حَسْـــبُكَ مِمَّـــا تَبْتَغِيْـــهِ القُـــوْتُ .·. مَـــا أكْثَـــرَ القُـــوْتَ لِمَـــنْ يَمُـــوْتُ
لِكُلِّ مَا يُـــؤْذِيْ – وَإِنْ قَـــلَّ – أَلَـــمْ .·. مَا أَطْوَلُ اللَّيْلَ عَلَى مَـــنْ لَـــمْ يَـــنَمْ
مَـــنْ جَعَـــلَ النَّمَّـــام عَيْنـــاً هَلَكَـــا .·. مُبْلِغُـــكَ الشَّـــرَّ كَبَاغِيْـــهِ لَكَـــا
مَـــا انْتَفَـــعَ المَـــرْءُ بِمثْـــلِ عَقْلِـــهِ .·. وَخَيْرُ ذُخْـــرِ المَـــرءِ حُسْـــنُ فِعْلِـــهِ
إنَّ الفَسَـــــادَ ضِـــــدُّهُ الصَّـــــلاَحُ .·. وَرُبَّ جِـــــدٍ جَـــــرَّهُ المِـــــزَاحُ[١]

وبهذا فإن بإمكان الباحث أن يرى دوراً لحكام بني العباس في اختراع هـذا النوع من النظم ، ولكنني أذهب مذهب بعض الباحثين الذين يرون أن هذا النوع من الشعر إن هو إلا نظم بعيد عن روح الشعر الحقيقية " والحقيقة أنَّ عَدَّ مثل هذا النظم من الشعر فيه كثير من التجوز ، فالشعر بمعناه الدقيق ليس هو الكلام الموزون المقفى ، بل إنه يتعامل مع اللغة بطريقة مختلفة تماماً عن النظم التعليمي، ويعبر عن المشاعر المتصلة بوجدان الإنسان ، ويعتمد على الصورة في تشكيل مضمونه ، ويبتعد عن المباشرة ، والتقريرية ، لأن جوهره هو الإيحاء ، وهو بذلك يختلف عن تلك المنظومات "[٢] .

الخمريَّات :

اختلف الفقهاء في تفسير قوله تعالى :

﴿ يأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِنَّمِاَ الخَمْرُ والمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِـنْ عَمَـلِ الشَّيْطَنِ فَاَجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾ (المائدة : ٩٢) .

وكان اختلافهم يرتكز على المراد بالخمر ، وإن كانوا قد اتفقوا على تحريم كل ما هو مسكر ، إلا أن بعض الفقهاء " أداة اجتهاد إلى تحليل بعض أنواع من الأنبذة ، كنبيذ التمر الزبيب إن طبخ أدنى طبخ ، وشرب منه قدر لا يسكر " [٣].

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف تحقيق إبراهيم الإبياري ، سنة ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ م ، ٣٦/٤ .

(٢) محمد عبد العزيز الموافي ، حركة التجديد في الشعر العباسي ، مكتبة الشباب ، سنة ١٩٩١ م ، ص١٢٩.

(٣) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، الهيئة العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، سنة ، ٢٠٠٢ ، ١٣٥/١.

وقد كان هذا الرأي تكأة يستند عليها أصحاب النفوس الضعيفة ، فأسرفت طوائف مختلفة من المسلمين على نفسها في شرب الخمر ، وشاعت هذه الظاهرة في المجتمع كله ، وجاهر الناس بمجالس الشراب ، وصور مجموعة من مجان الشعراء مجالس الشراب دون رادع من خلق أو دين استناداً على هذا الرأي وتحميلاً له أكثر مما يحتمل .

وتبع هذه الظاهرة الواضحة ، والمنتشرة في مجتمع العصر العباسي ، حركة أدبية إبداعية أبدع فيها عدد من الشعراء المستهترين قصائد مطولة ، تدور حول الخمر وحول مجالسها ، وسمى هذا الشعر في الأدب العربي بالخمريات .

أما علاقة الحاكم بهذا الفعل فيرى الباحث أنها كانت مباشرة ، بدأت بالوليد بن زيد، مروراً بخلفاء وحكام العصر العباسي (١٣٢-٢٣٢ هـ) إذا استثنينا منهم أبا جعفر المنصور ، فقد روى أن المهدي كان يشرب نوعاً من النبيذ ، وكان يسمح للشعراء في إنشاد الخمريات بحضرته ، وهذا بلا شك تشجيع للشعراء على التمادي في هذا النوع من الشعر .

فيروي حماد الراوية يقول " دخلت على المهدي فقال : أنشدني أحسن أبياتٍ في السُّكْرِ ، ولك عشرة آلاف درهم وخلعتان من كسوة الشتاء والصيف ؛ فأنشدته قول الأخطل :

ثَرَى الزُّجَاجَ ولَمْ يَطْمِثْ يُطِيفُ بِهِ ∴ كَأَنَّهُ مِنْ دَمِ الأَجْوَافِ مُخْتَضَبُ

حَتَّى إِذَا افْتَضَّ مَاءُ المُزْنِ عُذْرَتِهَا ∴ رَاحَ الزُّجَاجُ وَفِي أَلْوَانِهِ صَهَبُ

تَنْزُوْ إِذَا شَجَّهَا بالمَاء مَا ذِجُهَا ∴ نَزْوَ الجَنَائِبِ فِي رَمْضَاءَ تَلْتَهِبُ

رَاحُوْا وَهُمْ يَحْسَبُوْنَ الأرضَ فِي فَلَكٍ ∴ أصُرِّعُوا وَقْتَ الرَّاحَاتِ والرُّكَبُ

فقال لي : أحسنت وأمر لي بما شرطه ووعدني به فأخذته "(١) .

ومجالس الرشيد ، وما أحاط بها من شراب ، بل ومن جدل حول مسألة الشراب خاصة في مجلسه ، أشهر من أن يعاد ذكرها هنا ، فقد أحدثت مجالس الرشيد

---

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ،طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق : إبراهيم الإبياري ، سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ . ٢١٦٨/٥ .

عامة بما تحويه من شراب ولهو ضجة كبيرة بين المدافعين عن تقواه وورعة ، وبين من سجلوا في تاريخه صورة لمجالس الشراب هذه .

أما الأمين فقد صحب أبا نواس شاعر الخمرية الأول غير منافس ، وشرب وسكر وعربد ، وهذا معروف مشهور ليس عليه كبير خلاف .

وبناء على هذه التجاوزات من أفراد البيت الحاكم ، بالغ أبو نواس في وصف مجالس الشراب ، وفي تقديس الخمر ، ولم يتوقف عند النوع الحلال منها ، بل جاهر بالحرام فقال :

وإنْ قالُوا حرَامٌ قُلْ حَرَامُ ∴ ولَكِنَّ اللَّذائذَ في الحَرَامِ(١)

وقد كان وقوع الخلفاء في هذا المزلق سبباً في ذيوع شعر الخمرية على هذا النحو.

---

(١) أبو نواس ، ديوان ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، حققه وضبطه وشرحه : أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص ٦٩٣ .

الفصل الرابع

دور الحكام في تطور النشر

المبحث الأول

تطور النثر والنهوض به

تطور النثـــــــر :

من طبيعة الأمور أن يتطور النثر في عصر العباسيين كما تطور كل شيء ، فقد تحدثنا عن النهضة العلمية التي عمت العصر ، وأثرت في نواح كثيرة مـــن نواحي الحياة فيه ، وتركت أثرها الواضح في رقي المجتمع العباسي بصفة عامة ، والطبقة الحاكمة على وجه الخصوص ، وقد تركت هذه الطفرة العلميـــة الكبيـــرة أثرها على العلماء والشعراء والكتاب ؛ بل وتركت بصمتها في الحياة الاجتماعية، وفي الحياة السياسية أيضاً وقد تحدثنا عن توفر الروافد الثقافية ، وسخاء الدولة في الاهتمام بها ، ووقوف الخلفاء من العلم والعلماء موقفاً كان له أثره البعيد في بلوغ هذا النهضة الثقافية أعلى مستوى لها بما جعلها تبدو واضـــحة الملامـــح ظـــاهرة القسمات عبر تاريخ العرب الطويل ، فقد ضم هذا العصر (١٣٢ – ٢٣٢ هـــــ) أئمة كل العلوم العربية ، ولا يمكن البتة إنكار الدور الكبير لحكومة العباسيين فـــي هذا التطور الثقافي والعلمي ، الذي يفتقر على طبقة واحدة من طبقات المجتمـــع ، بل احتوى هذا التطور العلمي والفني الطبقات الفقيرة كما احتوى غيرها ، فأصبح المجتمع كله ينعم بالفكر والفن والثقافة .

أما النثر فقد شهد تطوراً ملحوظاً في المعاني وفي الألفاظ وفي التراكيب ، وقد شهد العصر العباسي (١٣٢– ٢٣٢ هــ) مجموعة من أرباب الكتابة النثرية وشهدت رسائلهم وخطبهم وتوقيعاتهم التي بين أيدينا احتواء هذه الثقافات الكثيـــرة التي سادت المجتمع ، فتركت أثرها في هذه الرسائل ، وهـــذه الخطـــب ، وهـــذه التوقيعات " وعلى سنن من طبائع الحياة ، أخذ النثر يتطور تطـــوراً واســـعاً ، إذ حمل خلاصة هذه المدينة ، وملئت أوانيه بشرابها الجديد ، الذي اختلفـــت ألوانـــه باختلاف ينابيعه الكثيرة ، وقد أظهر النثر العربي مرونة واسعة ، إذ اســـتطاع أن

يحتوي كل هذه الينابيع ، وأن يتسع لها صدره ، بل لقد غدا كمجرى نهر كبيــر ، روافده جداول من ثقافات متنوعة لا يكاد يحد أو يحصى "[١].

النهوض بالنثـــر :

وقد كانت لحكومة العباسيين عدة أدوار في هذا التطور ، الذي شـــمل كـــل فنون النثر ، فإذا ذهبنا نتتبع دور الحكام في هذا التطور ؛ لمسنا أن أهم أدوارهـــم للنهوض بالنثر تتمثل في :

أ- الترجمة :

كان لاهتمام الخلفاء ووزرائهم بالترجمة أكبر الأثر في النهــوض بـــالنثر بصفة عامة ، " بما ترجم عن الفارسية من آثار أدبية ، وما نقل عن اليونانية مـــن المسائل العقلية والمنطقية ، وكان لتطور الإدارة دورٌ كبير في تطور النثـــر "[٢] . فقد أنفق العباسيون الأموال الطائلة على ترجمة علوم ومعارف الأمم الأخرى إلى اللغة العربية ولم يقتصر دور الترجمة على ترجمة العلوم التطبيقية العملية كالطب والفلك والرياضيات فقط ، بل اتسع نطاق الترجمة - برعاية الحاكم – وترجمـــت علوم وآداب اليونان ، من مثل كتب أفلاطون في الفلسفة والأدب ومنها[٣] :

١- كتاب السياسة .

٢- كتاب المناسبات .

٣- كتاب النواميس .

٤- كتاب طيماوس .

٥- كتاب التوحيد .

٦- كتاب الحس واللذة .

---

(١) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف سنة ١٩٦٦ م ، ص ٤٤١.

(٢) مصطفى الرافعي ، حضارة العرب في العصور الإسلامية الزاهرة ، ط ٢ ، بيروت ، منشورات الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، سنة ١٩٦٨ م ، ص ٢٢٨ .

(٣) جورجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ، القاهرة ، دار الهلال ، طبعة راجعها وعلق عليها : حســين مؤنس ، ص ١٧١ .

٧- كتاب أصول الهندسة .

وكتب أرسطو طاليس ومنها على سبيل المثال[١] :

١- كتاب المقولات .

٢- كتاب العبارة .

٣- كتاب البرهان .

٤- كتاب الجدل .

٥- كتاب المغالطات أو الحكمة المنوهة .

٦- كتاب الخطابة .

٧- كتاب الشعر .

٨- كتاب الكون والفساد .

٩- كتاب النفس .

١٠- كتاب الأخلاق .

١١- كتاب المرأة .

وغيرها من كتب الطب وفروعه ، وكتب الرياضيات والنجوم ، ورسائل العلوم[٢].

ولقد رأى بعض المؤرخين أن ترجمة الكتب اليونانية يرجع إلى رؤية رآها المأمون في منامه ، أو نحو ذلك ، فقد ذكر صاحب الفهرست " أن أحد الأسباب التي من أجلها كثرت كتب الفلسفة ، وغيرها من العلوم القديمة : أن المأمون رأى في منامه كأن رجلاً أبيض اللون ، مشرباً حمرة ، واسع الجبهة ، مقرون الحاجب، أجلح الرأس ، أشهل العينين ، حسن الشمائل ، جالس على سريره ، قال المأمون:

وكأني بين يديه قد ملئت هيبة ، فقلت : من أنت ؟ قال : أنا أرسطاليس ، فسررت به وقلت : أيها الحكيم ! أسألك ؟ قال : سل ، قلت : ما الحسن ؟ قال : ما حسن في العقل ؟ قلت ثم ماذا ؟ قال : ما حسن في الشرع ، قلت ثم ماذا ؟ قال ما حسُن عند الجمهور ، قلت : ثم ماذا ؟ قال : لا ثم! وفي رواية أخرى ، قلت :

---

(١) نفسه : ص ١٧٢ .

(٢) نفسه : ص ١٧٤ .

زدني ، قال : من نصحك في الذهب فليكن عندك كالذهب ، وعليك بالتوحيد. فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب "[١].

من غير المعقول أن يكون المأمون جاهلاً بأرسطاليس ولا يعلم عنه شيئاً إلا من المنام ، لأن هذا غير لائق علمياً ، فمن أين يأتيه في المنام من لا يعرفه في الحقيقة ، ثم إننا رأينا أن المأمون شخصية اشتهر عنها موسوعية العلم بكل أصنافه ، فكان يمتلك شخصية علمية فذة موسوعية ، فإذا صحت هذه الراوية دلتنا على أن الحلم كان انعكاس صورة طبيعية لما كان يفكر فيه المأمون في اليقظة ، كما يرى ذلك أحمد أمين [٢].

ولقد كان لهذه الثقافة اليونانية دورها في نشأة علم الكلام ، وأثرها في مناظرات المتكلمين لخصوم الدين الإسلامي جليٌّ واضح، وقد اتضح " أن حاجة المتكلمين إلى الفلسفة لوقوفهم أمام خصومهم يجادلونهم بمثل حججهم اضطرتهم إلى أن يقرأوا الفلسفة اليونانية ، وينتفعوا بالمنطق وباللاهوت اليونانيين ، فنرى النظَّام يقرأ أرسطو ويرد عليه ، وأبا الهذيل العلاف كذلك ، نرى كثيراً من المعتزلة يتكلمون في الطفرة والتولد ، والجوهر والعرض ، والجوهر الفرد ، ونحو ذلك من المسائل التي تعد من صميم الفلسفة اليونانية ، وتدخل في بحوث المتكلمين "[٣] .

ولقد كان تأثير لهذه الثقافة اليونانية التي حث الحكام على ترجمتها أثرها في النثر الفني ، فقد وجدنا رؤوس المعتزلة يتعرضون في كلامهم وفي مناظراتهم للأجسام ، والأعراض ، والجواهر ، والحركة ، والسكون ، والكمون ، والتولد ، والطفرة ، والوجود ، والعدم ، والروح ، والنفس ، والعقل ، وأدارك الحواس ، والكم ، والكيف ، والألوان ، والخير ، والشر .

---

(١) ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن أبي يعقوب ، الفهرست ، بيروت ، دار المعرفة ، نسخة طبعة مصر ، سنة ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م ، ص ٢٤٣ .

(٢) ضحى الإسلامي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكة الأسرة ، ١٩٩٨ م ، طبعة سنة ٢٠٠٢ ، ٢٨٤/١.

(٣) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ط ٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، نسخة الجزء الثالث، سنة ١٩٧٨ م ٨/٣.

" وكل ذلك كان له آثار بعيدة في النثر العربي ، لا من حيث الألفاظ والمصطلحات الجديدة فحسب ، بل أيضاً من حيث ذخائر الفكر الفلسفي اليوناني والعربي ، التي التقت في أوعيته وأوانيه ، والتي جعلته يعرف صوراً من تحليل الأفكار وتركيبها لا عهد له بها "(١) .

ولم يقتصر دور الحكام في الترجمة التي خدمت النثر العربي على التراث اليوناني وإنما اهتموا أيضاً بنقل كثير من ثقافات الهند ، التي نقلها الفرس إلى لغتهم الفارسية ، فلما دخلوا الإسلام نقلوها إلى اللغة العربية ، ومن أهم الكتب التي ترجمت عن الثقافة الهندية كتاب كليلة ودمنة ، الذي نقله (عَبْدُ اللهِ بنُ المُقَفَّع) وإن كان الأطباء الهنود أهم من انتقل بعلمه إلى الثقافة العربية والإسلامية ، حيث أحضرهم الحكام ، وأمروهم بنقل علومهم إلى العربية ، وكان كثير من الفكر والفن قد انتقل إلى العربية عن طريق هؤلاء ، فكانت لهم آراء مهمة في بلاغة القول ، وفي الأدب ، فقد كان من أتى بغداد من هؤلاء الأطباء يحمل معه كتباً وصحفاً في مواضيع شتى " حكى الجاحظ أن معمراً أبا الأشعت قال : قلت لبَهْلَة الهنْدِيّ – أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند – : ما البلاغة عند أهل الهند ؟ قال بهلة : عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها ، وتلخيص لطائف معاينها ، قال أبوالأشعت : فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فإذا فيها " أول البلاغة اجتماع آلات البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأس ، ساكن الجوارج ، قليل اللحظ متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، ويكون في قواه فضل للتصرف في كل طبقة ، لا يدقق المعاني كل التدقيق ، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ، ولا يصفيها كل التصفية ، ولا يهذبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيماً أو فيلسوفاً عظيماً "(٢) .

---

(١) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ ، ص ٤٤٢ وما بعدها .

(٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين ، القاهرة ، طبعة الفتوح الأدبية ، تحقيق وشرح / عبد السلام محمد هارون ، وقف على طبعه محب الدين الخطيب ، سنة ١٣٣٢ هـ ٩٢/١ .

وإذا صح وجود هذه الصحيفة ، وصح ما هو موجود فيها من حدث عن البلاغة ، كان ذلك تفسيراً منطقياً لما كان يحدث من بلاغة في ديوان الكتابة العباسية ، ولخلفاء العباسيين ووزرائهم ، فلم يكن الكتاب يكلمون الخلفاء والسادة بكلام السوقة ، وإنما يتخيرون للحكام فصيح القول ، متينه سبكاً ، وأقواه أسلوباً.

ولم يقتصر دور الثقافة الهندية على الأدب العربي عامة ، والنثر خاصة ، في هذا الأثر فقط ، بل قد حدد أحمد أمين ما أستفاده الأدب العربي من الهند في أمور ثلاثة :

أولها : ألفاظ هندية عُربت مثل (زنجبيل – كافور)

ثانيها : القصص الهندي.

ثالثها : الحكم الهندية.

وقد ملئت كتب الأدب المؤلفة في هذا العصر بهذا النوع [1].

وقد كان انتقال هذه الثقافة الهندية ، عن طريق الفرس أصحاب الدعوة العباسية بداية ، وأصحاب الكلمة المسموعة لدى حكومة العباسيين طيلة العصر العباسي (١٣٢–٢٣٢ هـ) كله ، بل نقول : أقرب الناس إلى الخليفة العباسي ، فهم وزراؤه وكتابه وقضاته ، وقد اتضحت آثار الثقافة الهندية في كتاباتهم.

أما الفرس فهم شيعة العباسيين في انتزاع الخلافة ، وعلى أكتافهم تقلد العباسيون مقاليد حكم المسلمين ، وقد انتقلوا إلى العرب بحضارتهم وقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم وآدابهم ، فأصبحوا هم أنفسهم أصحاب كثير من السلطان ، وكثير من الأمر ، وكثير من النهي ، وقد تركوا في العرب عامة ، وحكام العباسيين خاصة آثار قوية ، في طريقة حكمهم ، وفي تنظيم دولتهم ، وفي قصورهم ، وملابسهم ، ومأكلهم ، ومشاربهم ، ومجالسهم ، وفي أعيادهم ، وفي معاملاتهم للناس ، وفي كثير من ضروب حياتهم.

ولو ذهبنا نعدد آثار الفرس في كل مناحي الحياة لطال بنا القول ، أما حين نتحدث عن أثرهم في النثر الفني ، فسنجد أنفسنا ننتقل إلى النوع الثاني من جهود الحكام وهو :

---

(١) ضحى الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ١٩٩٨ ، طبعة سنة ٢٠٠٢م ١ / ٢٦٥ .

ب- الاهتمام بديوان الكتابة :

كان الفرس يعتنون عناية بالغة بالكتاب ، ويهتمون بتنشــئتهم ، والاهتمــام بهم، ثم بعد ذلك امتحانهم امتحاناً قاسياً ، ليختاروا من يلتحق بأحد دواوين الحكــام "وكان الرسم جارياً في أيام الفرس ، أن يجتمع أحداث الكتاب ومن نشأ منهم بباب الملك ، متعرضين للأعمال ، فيأمر الملك رؤساء كتابه بامتحانهم ، والتفتيش عــن عقولهم ، فمن رضى منهم عرض عليه اسمه ، وأمر بملازمة الباب ، ليستعان به ثم أمر الملك ، بضمهم إلى العمال ، وتصريفهم في الأعمال ، وتنقلهم على قــدر آثارهم وكفاياتهم من حال إلى حال ، حتى ينتهي بكل واحد منهم إلى ما يســتحقه من المنزلة " (١).

وكان للكاتب في الدولة الفارسية مكانة عالية ، لا يبلغها أحدٌ من الناس ، إلا مــن كان من طبقته " ولم يكن (الهماليج) (٢) في أيــام الفــرس إلا الملــك والكاتــب والقاضي " (٣).

وقد انتقل هذا الاهتمام بالكتاب إلى دولة الإسلام في عهد العباسيين ، وزاد عليــه بأن أصبحت الإجادة الكتابية طريقاً ممهداً للوصول إلى منصب الــوزير ، الــذي استحدثه العباسيون بتوجيه من الفرس ، فقد كان يشترط في هذا المنصب القــدرة الكتابية ، والفصاحة ، والبيان ، وقد جعل هذا الشرط منصب الوزير مطمحاً يرنوا إليه الكثيرون ، ولم يصلوا إليه إلا إذا بلغوا شأوًا بعيــداً فــي تقــويم ألســنتهم ، وتدريبها على الفصاحة والبيان ، مما كان له أثره في النثر الفني ، وفــي رقيــه "وتاريخ الوزراء يدلنا على أن أكثر من اختير للوزارة لوحظ في اختياره الكفايــة العلمية والبلاغة ، فأبو سلمة الخلال كان فصيحاً عالماً بالأخبار والأشعار والسير

---

(١) الجهشياري ، أبو عبد الله محمد بن عبدوس ، الوزراء والكتاب ، ط ١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبــي وأولاده ، حققه ووضع فهارسه ، مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ الشــلبي ، ســنة ١٩٣٨ م ، ص٣.

(٢) الهماليج : البرادين ، فارسي معرب ، الواحد هملاج .

(٣) الجهشياري ، أبو عبدالله محمد بن عبدوس ، الوزراء ، الكتاب ، ط ١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبــي وأولاده ، حققه ووضع فهارسه ، مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ الشــلبي ، ســنة ١٩٣٨ م ، ص٩.

والجدل ، والبرامكة كانوا ذوي مشاركة في كثير من العلوم والآداب ، والفضل بن سهل كان يسمى ذا الرياستين لجمعه بين رياسة السيف ورياسة القلم "[1] .

ولم يكن منصب الوزير إلا نهاية يصل إليها بعض من بزغ نجمه في ديوان الكتابة لدى العباسين ، فلقد " كان لكل وزير كاتب بل كتاب يعينونه ولولاة الأقاليم ورجال الدولة كتاب ، فكان حماد عجرد كاتباً ليحيى بن محمد بن صول بالموصل، وكان ابن المقفع يكتب لداود بن عمر بن هبيرة والي كرمان ، وكان عمرو بن مسعدة يكتب للمأمون ، وكان الحسن بن عيسى يكتب لعمرو بن مسعدة، وكان يكتب ليحيى بن خالد البرمكي عبد الله بن سوار بن ميمون ، وهكذا " [2].

وقد كان منصب الكاتب أيضاً منصباً تطمح إليه النفوس ، مما حفز كل من اتصل بديوان الكتابة إلى الإجادة في فنه ، والإفصاح بأوضح وأقوى الأساليب عن المعاني المطلوبة منه ، حتى أوصلت الإجادة الكتابية كثيرين من صغار الكتاب إلى بلاطات الخلفاء والوزراء ، وكان لهذا دوره بطبيعة الحال في النهوض بالنثر في هذا العصر " فقد بلغ النثر الفني منزلة سامقة ، وامتاز بسهولة العبارة ، وانتقاء الألفاظ ، وجودة الأسلوب ، كما امتاز بجودة المعاني واختراعها ، ودقة الأخيلة وابتداعها ، وظهور آثار الثقافات الحديثة وخاصة اليونانية فيه "[3] .

" وكل ذلك معناه أن النثر تهيأت له أسباب كثيرة في هذا العصر لكي ينمو ويزدهر فقد أخذ يمتد ليستوعب العلوم والفلسفة ، كما يستوعب مادة عقلية عميقة حتى في المجال الأدبي ، إذ أخذت تغذوه آداب الفرس السياسية والاجتماعية كما أخذت تغدوه الثقافات الأجنبية ، وكل ما وصل بها الفكر اليوناني "[4] .

---

(١) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، مكتبة الأسرة ١٩٩٨ م ، طبعة سنة ٢٠٠٢ م ، ١ / ١٨٣ .

(٢) نفسه : ١/١٨٤ .

(٣) محمد عبد المنعم خفاجي ، الحياة الأدبية في العصر العباسي ، ط ١ ، القاهرة ، نشر رابطة الأدب الحديث دار العهد الجديد سنة ١٩٥٤ م ، ص ٣٤ .

(٤) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦م ، ص ٤٤٨.

المبحث الثاني
أنواع النثـــر

ينقسم النثر بشكل عام إلى نوعين : نثر فني ، ونثر غير فني ، أمـــا النثـــر غير الفني فمنه النثر العلمي ، والنثر التاريخي ، والنثر الفلسفي ، وبعــض النثـــر الديني ، وكل هذه الأنواع لا تدخل في نطاق البحث الأدبي بمعناه الدقيق ، ولقــد كان التطور في النثر الفني أعمق أثراً وأكثر بروزاً ، وذلــك لأن أنـــواع النثـــر الأخرى لا يلتفت أصحابها إلى جمال الصياغة وروعة الأسلوب ، ودقـــة الأداء ، أما النثر الفني فمنظور فيه إلى الجانب الجمالي ، لذا أثر فيه حكام بني العباســـي تأثيراً واضحاً.

النثر الفنـــــي :

كان النثر الفني قبل العصر العباسي يتميز في أسلوبه بالإيجاز والاقتضاب، كما كان في أغراض لا يكاد يعدو رسائل الخلفاء إلى الملوك والقـــواد ورؤســـاء الدولة ؛ لتنفيذ أمر من الأمور العظام بجانب الخطب الرائعة في العصر الأموي . إلا أنه كان محدود الآفاق في أسلوبه وأغراضه وسبب هذا أن الدولة العربية فـــي ذلك الوقت كانت دولة عربية خالصة ، لم تتعقد فيها الحياة الحضرية ، ولم تكن قد اتصلت بعد بالأمم المتحضرة كالفرس واليونان . فلما تحولت الدولة من بني أميـــة إلى بني العباس ، وقامت دولة هؤلاء على أكتاف الفرس ، وحدث هذا الانقـــلاب السياسي والاجتماعي والفكري ، تعقدت أمور الحياة ، وتشعبت فروعها ، واتســـع نطاقها الفكري والعقلي ، وتبع ذلك تطور في النثر الفني ، لأن النثر هو اللســـان المعبر عن هذه الحياة الفكرية ؛ بخلاف الشعر ، فإنه يتعلق بالعواطف ، ولا يكـــاد يمس الحياة العقلية إلا من جوانب محدودة ، وهكذا ، كان لابد للنثر الفني مـــن أن يتطور ، ويساير الحياة ، ويمضي في ركابها قبل غيره.

أهم أنواع النثر الفني :

أ- الخطب :

تنقسم الخطابة إلى سياسية ، وحفلية ، ودينية : أما الخطابة السياسية فقد كانت قوتها الحقيقية أيام بني أمية ، لأن العصر الأموي كان عصراً ذهبياً للخطابة العربية بشكل عام ، وذلك لما أحاط بحكومة الأمويين من ظروف سياسية استدعت نمو هذا اللون ، وازدهاره ، ووصوله إلى درجة عالية من الرونق والبيان ، حتى وصل الأمر إلى بني العباس ، استمرت الخطابة على قوتها في بداية الأمر ، وكان السبب في ذلك الجدال الدائر حول أحقية الخلافة ، ولمن تكون ، وقد انحسر هذا الجدال الخطابي في عصر العباسيين عنه أيام بني أمية ، فكان الصراع قائماً بينهم وبين أبناء على بن أبي طالب – كرم الله وجهه – كلٌ يرى لنفسه الأحقية الشرعية في إمامة المسلمين ، " نشطت الخطابة السياسية في مطلع هذا العصر ، إذ اتخذتها الثورة العباسية أداتها في بيان حق العباسيين في الحكم ، وكانوا يحثون منذ أول الأمر بأن أبناء عمهم العلويين يضطغنون عليهم استئثارهم بالخلافة من دونهم ، فمضوا يؤكدون في خطابتهم أنهم أصحاب هذا الحق " (١).

واشتد الصراع الكلامي بين الطرفين ، وأنتج عدة خطب سياسية مهمة ، للسفاح ، وداود بن علي ، وأبي جعفر المنصور من العباسيين ، ومحمد بن عبد الله (النفس الزكية) من أبناء على ، وكانت أول خطبة خطبها السفاح حين بويع له بالخلافة ، أن صعد المنبر ، فقام في أعلاه فقال :

" الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة ، وشرفه ، وعظمه ، واختاره لنا ، وأيده بنا ، وجعلنا أهله ، وكهفه ، وحصنه ، والقوام به ، والذابين عنه ، والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى ، وجعلنا أحق بها وأهلها ،وخصنا برحم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وقرابته ، وأنشأنا من آبائه ، وأنبتنا من شجرته ، واشتقنا من نبعته ، وجعله من أنفسنا عزيزاً عليه ما عنتنا ، حريصاً

(١) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ ، ص ٤٤٨.

علينا بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضـــع الرفيـــع ، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم ، فقال عز من قائل فيما أنزل مـــن محكم القرآن : ﴿ **إنَّمَا يُرِيْدُ اللهُ لِيُذهِبَ عنْكُمُ الـــرِّجسَ أهْـــلَ البَيْـــتِ وَيُطَهِّـــرُكُمْ تَطْهِيَرا** ﴾ وقال : ﴿ **قُلْ لاَ أسْألُكُم عَلَيْهِ أجْراً إلاَّ المَوَدَّةَ في القُرْبَى** ﴾ ، وقـــال : " وأنْذِرْ عِشيْرتَكَ الأقْرَبِينْ " وقال : ﴿ **مَا أفاءَ اللهُ على رَسُوْلِهِ مِنْ أهْلِ القرى فَلِلَّهِ ولِلرَّسُوْلِ ولِذِيْ القُرْبَي واليَتَامَى** ﴾ وقال : ﴿ **وَاعْلَمُوْا أنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيءٍ فَـــإنَّ للهِ خُمُسَهُ ولِلرَّسُوْلِ ولِذِي القُرْبَي وَاليَتَامَى** ﴾ . فأعلمهم جل تناؤه فضلنا ، وأجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيباً ، تكرمـــه لنـــا ، وفضـــلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم ، وزعمت السبيئة الظُّلاَّلُ أنَّ غيرنا أحق بالرياســـة والسياسة والخلافة منا ، فشاهت وجوهم ، بم ولم أيها الناس ، وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم ، وبصرهم بعد جهالتهم ، وأنقدهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنـــا الحـــق وأدحض بناء الباطل وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ، ورفع بنا الخسيسة ، وأتم بنا النقيصة ، وجمع الفرقة ، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواســـاة في دينهم ودنياهم ، وإخواناً على سرر متقابلين في آخرتهم ، فتح الله ذلـــك منـــة ومنحة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعـــده أصحابه ، وأمرهم شورى بينهم فحووا مواريث الأمم ، فعدلوا فيها ، ووضـــعوها مواضعها ، وأعطوها أهلها ، وخرجوا خماصاً منها ، ثـــم وثبـــت بنـــو حـــرب ومروان، فابتزوها وتداولوها بينهم ، فجاروا فيها ، واستأثروا بها ، وظلموا أهلها، فأملي الله لهم حيناً حتى آسفوه ، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ، ورد علينا حقنـــا ، وتدارك بنا أمتنا ، وولي نصرنا والقيام بأمرنا ، ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا ، وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيـــث أتـــاكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله ، يـــا أهل الكوفة ، أنتم محل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلـــك ، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركـــتم زماننـــا وأتـــاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ، وقد زدتكم فـــي أعطيـــاتكم مائـــة

درهم ، فاستعدوا ، فأنا السفاح المبيح ، والثائر المبير" [١] ثم خطب عمه داود بن علي فقال :

" الحمد لله شكراً شكراً شكراً الذي أهلك عدونا ، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) أيها الناس الآن أقشعت حنادس الدنيا ، وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضُها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مطلعها ، وبزغ القمر من مبزغه ، وأخذ القوس باريها ، وعاد السهم إلى منزعه ،ورجع الحق إلى نصابه في أهل بيت نبيكم ، أهل الرأفة والرحمة بكم ، والعطف عليكم ، أيها الناس ،إنا والله ما خرجنا طلب هذا الأمر لنكثر لجيناً ولا عقياناً ، ولا نحفر نهراً ولا نبني قصراً ، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبني عمنا ، وما كرثنا من أموركم ، وبهظنا من شؤونكم ،ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم ، وخرقهم بكم ، واستدلالهم لكم ، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم ، علينا لكم ذمة الله تبارك وتعالى ، وذمة رسوله (صلى الله عليه وآله) ، وذمة العباس رحمه الله ، أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة والخاصة بسيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، تباً تباً لبني حرب بن أمية ، وبني مروان ، آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة ، والدار الفانية على الدار الباقية ؛ فركبوا الآثام ، وظلموا الأنام وانتهكوا المحارم ، وغشوا الجرائم ، وجاروا في سيرتهم في العباد ، وسنتهم في البلاد التي بها استلذوا تسربل الأوزار ، وتجلبب الأصار ، ومرحوا في أعنة المعاصي ، وركضوا في ميادين الغي جهلاً باستدارج الله ، وأمنا لمكر الله ، فأتاهم بأس الله بياناً وهم نائمون ، فأصبحوا أحاديث ، ومزقوا كل ممزق ، فبعدا للقوم الظالمين ، وأدالنا الله من مروان وقد غره بالله الغرور أرسل لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه ، فظن عدو الله أن لن نقدر عليه ، فنادى حزبه ، وجمع مكايده ، ورمى بكتائبه ، فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ، ومحق ضلاله ، وجعل

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٧ / ٤٢٥ .

دائرة السوء به ، وأحيا شرفنا وعزنا ورد إلينا حقنا وإرثنا ، أيها الناس ، إن أمير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً ، إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة إنــه كــره أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن اسحنفر فيه شدة الوعك ، وأدعوا لأمير المؤمنين بالعافية ، فقد أبدلكم الله بمروان عــدو الــرحمن وخليفة الشيطان ، المتبع للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد صــلاحها ، بإبــدال الدين ، وانتهاك حريم المسلمين الشاب المتكل المتمهل المقتــدي بســلفه الأبــرار الأخيار، الذين أصلحوا الأرض بعض فسادها ، بمعالم الهدى ومناهج التقوى "(١).

وقد أشاد الجاحظ ببيان داود وفصاحته قائلاً : " إنه كــان أنطــق النــاس وأجودهم ارتجالا واقتضاباً للقول ، وله كلام كثير معروف "(٢) .

وعلى نفس النهج يخطب أبو مسلم الخراساني خطبة رائعة في الدفاع عن أحقيــة العباسيين في الخلافة فيقول :

" الحمد لله الذي حمد نفسه ، واختار الإسلام ديناً لعباده ، ثم أوحــى إلــى محمد (صلى الله عليه وآله) من ذلك ما أوحى ، واختاره من خلقه ، نفسه مــن أنفسهم ، وبيته من بيوتهم ، ثم أنزل عليه في كتابه الناطق الذي حفظ بعلمه وأشهد ملائكته على حقه ، قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يُرِيْدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكَمْ تطْهيْراً** ﴾ ، ثم جعل الحق بعد محمد صلى الله عليه وأله في آل بيتــه ، فصبر من صبر منهم بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على الــلأواء والشدة ، وأغضى على الاستبداد والأثرة ، ثم إن قوماً من أهــل بيــت الرســول (صلى الله عليه وسلم) ، جاهدوا على ملة نبيه وسنته بعد عصر من الزمــان ، من عمل بضاعة الشيطان وعداوة الرحمن ، بين ظهراني قوم أثروا العاجل علــى الآجل ، والفاني على الباقي ، إن رتق جور فتقوه ، أو فتق حــق رتقــوه ، أهــل خمور وماخور ، وطنابير ومزامير ، إن ذكروا لم يذكروا ، أو قدموا إلى الحــق أدبروا ، وجعلوا الصدقات في الشبهات ، والمغانم في المحارم ، والفيئ في الغي ، هكذا كان زمانهم ، وبه كان يعمل سلكانهم ، وزعموا أن غير محمد أولى بــالأمر

(١) نفسه ٧ / ٤٢٦ .

(٢) البيان والتبيين ، ج١ ، ص ٣٣١ ، وما بعدها .

منه ، فلم وبم أيها الناس ؟ ألكم الفضل بالصحابي دون دوي القرابي؟ ، الشـــركاء في النسب ، والورثة في السلب ، مع ضربهم على الدين جاهلكم ، وإطعامهم فـــي الجدب جائعكم ، والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قط ، ما زلتم بعد نبيه تختارون تميمياً مرة ، وعدوياً مرة ، وأموياً مرة وأسدياً مرة ، وسفيانياً مرة ، ومروانياً مرة ، حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيتـــه ، يضـــربكم بســـيفه ، فأعطيتموها عنوة ، وأنتم صاغرون ، ألا إن آل محمد أئمة الهدى ومنـــار ســـبيل التقى ، القادة السادة الذادة ، بنو عم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ومنـــزل جبريل بالتنزيل ، كم قسم الله بهم جبار طاغٍ ، وفاسق باغٍ ، شيد الله بهم الهـــدى ، وجلى بهم العمى ، لم يسمع بمثل العباس ، وكيف لا تخضع له الأمم لواجب حـــق الحرمة ؟ أبو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد أبيه ، وإحدى يديه ، وجلـــدة بين عينيه ، أمينه يوم العقبة ، وناصره بمكة ، ورسوله إلى أهلها ، وحاميه يـــوم حنين ، عند ملتقي الفئتين ، لا يخالف له رسماً ، ولا يعصي له حكماً ، الشافع يوم نيق العقاب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وله في الأحزاب ، إن في هذا أيها الناس لعبرة لأولي الأبصار "(١) .

ويخطب أبو جعفر المنصور بمكة فيقول :

" أيها الناس ، إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده ، وأنا خازنه على فيئه ، أعمل بمشيئة ، وأقسمه بإرادته ، وأعطيه بإذنه ، قد جعلني الله عليه قفلاً ، إذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم وقسم فيئكم وأرزاقكم فتحنى ، وإذا شاء أن يقفلني أقفلني ، فارغبوا إلى الله أيها الناس ، وسلوه في هذا اليـــوم الشـــريف ، الذي وهب لكم في من فضله ما أعملكم به في كتابه إذ يقـــول تبـــارك وتعـــالى : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وأتمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الإِسْـــلاَمَ دِيْنَـــا** ﴾ أن

(١) أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب ، ط ١ ، مصر مطبعة مصـــطفى البـــابي الجلبـــي وأولاده ١٩٣٣م . ١٥/٣.

يوفقني للصواب ، ويسددني للرشاد ، ويلهمني الرأفة بكم ، والإحسان إليكم ، ويفتحني لأعطياتكم ، وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم ، إنه سميع قريب" (١) .

ويقول أيضاً :

" يا أهل خراسان ، أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا ، وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة ، فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير ، فقام فيها على بن أبي طالب ، فتلطخ ، وحكم عليه الحكمان ، فأفترقت عنه الأمة ، واختلف عليه الكلمة ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه ، ثم قام من بعده الحسن بن علي ، فو الله ما كان فيها برجل ، قد عرضت عليه الأموال فقبلها ، فدس إليه معاوية إني أجعلك ولي عهدي من بعدي ، فخدعه ، فانسلخ له مما كان فيه ، وسلمه إليه ، فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطلقها غداً ، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ، ثم قام من بعده الحسين بن علي ، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة ، أهل الشقاق والنفاق والأغراق في الفتن ، أهل هذه المدرة السوداء ، وأشار إلى الكوفة ، فوالله ما هي بحرب فأحاربها ، ولا سلم فأسالمها ، فرق بيني وبينها ، فخذلوه وأسلموه حتى قتل ، ثم قام من بعده زيد بن علي ، فخدعه أهل الكوفة وغروه ، فلما أخرجوه وأظهروه أسلموه ، وقد كان أتى محمد بن علي فناشده في الخروج ، وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة ، وقال له : إنا نجد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة، وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب ، وناشده عمي داود بن علي ، وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل ، وأتم على خروجه ، فقتل وصلب بالكناسة ، ثم وثب علينا بنو أمية ، فأماتوا شرفنا ، وأذهبوا عزنا ، والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها ، وما كان لهم ذلك كله إلا فيهم ، وبسبب خروجهم عليهم ، فنفونا من البلاد ، فصرنا مرة بالطائف ، ومرة بالشام ومرة بالشراة ؛ حتى أبعثكم الله شيعة وأنصار فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ، ودمغ بحقكم أهل الباطل ، وأظهر

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ١ ، بيروت ، طبعة دار الكتب العلمية ، سنة ١٤٠٧ هـ ج ٤ / ص ٤٥٣.

حقنا ، وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، فقر الحق مقــره ، وأظهر مناره ، وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمــد لله رب العالمين ، فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا ، وثبوا علينا ظلماً وحسداً منهم لنا ، وبغياً لما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا به خلافته ، وميراث نبيه (صلى الله عليه وسلم) جَهْلاً عَلَيَّ وجُبْناً عَنْ عَــدْوِهِم .. لَبئُسَتِ الخُلَّتانِ الجَهْلُ وَالجُبُنُ. فإني والله يا أهل خراسان ، ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة ، بلغني عنهم بعض السقم والتعرم ، وقد دسست لهم رجالاً فقلت: قم يا فلان ، قم يا فلان فخذ معك من المال كذا ، وحذوت لهم مثالاً يعملون عليه، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة ، فدسوا إليهم تلك الأموال ، فوالله ما بقى منهم شــيخٌ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي ، وطلبهم الفتنة ، والتماسهم الخروج عليَّ ، فلا يرون أني أتيت ذلك غير يقين ، ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية ﴿ **وَحِيْــلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُوْنَ كَماَ فَعَل بأشْيَاعِهِم مِــنْ قَبْــل إنَّهُــمْ كَــانُوا فِــيْ شَــكٍّ مُرِيْب** ﴾ " [1].

وعلى الجانب الآخر يخطب محمد بن عبد الله بن حسن (النفس الزكيــة) حيث خرج على المنصور فيقول :

" أمّا بعد ، أيها الناس ، فإنه كان من أمر هذه الطاغية عدو الله أبي جعفــر ما لم يخف عليكم ، من بنائه القبة الخضراء التي بناها معانــداً لله فــي ملكــه ، وتصغير للكعبة الحرام ، وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلــى ، وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين ، والأنصار المواسين ، اللهم إنهم قد أحلو حرامك ، وحرموا حلالك ، وآمنوا من أخفت وأخافوا مــن آمنــت ، اللهم فأحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تغادر منهم أحداً ، أيها الناس ، إنــي والله ما خرجت من بين أظهركم وأنتم عندي أهل قوة ولا شدة ، ولكني اخترتكم لنفسي، والله ما جئت هذه وفي الأرض مصرٌ يعبد الله فيه إلا وقد أخذ لي فيه البيعة[2].

(١) نفسه : ج ٤ / ص ٥٣٤.
(٢) نفسه : ج٤ / ص ٤٢٥ .

وهذه القوة البيانية التي رأيناها في هذه الخطب السياسية بدأت تختفي – كمًّا – بعد تمكن العباسيين من الحكم ، والقضاء على مناوئيهم من أبناء عليٍّ ، فلم نر الخطابة السياسية تكمل مسيرة ازدهارها ، لأن " قوة الشيء ترجع إلى قوة عوامله وأسبابه "[1] " فلم تستمر على القوة التي كانت عليها في صدر تلك الدولة حينما استقرت ورسخت " إذ فترت عند ذلك الدواعي وهدأت الدوافع "[2] .

فقد جعلتها الظروف السياسية المحيطة بكرسي الخلافة تزدهر وتنمو ، حتى إذا ما استقر القصر ، وهدأ إلى حد ما الصراع عليه ، هدأت الخطابة بل " ضعفت الخاطبة العباسية في هذا العصر ضعفاً شديداً ، لأنها إنما تزدهر حينما تكفل للناس حريتهم السياسية ، على نحو ما كان الشأن في عصر بني أمية ،أما في هذا العصر فقد اخذ العباسيون الناس بالشدة ، فضعفت الأحزاب السياسية "[3].
واستمر ضعف الخطابة السياسية زمناً طويلاً ، حتى جاءت فتنة الأمين والمأمون عادت إلى شيء من القوة لم تدم طويلاً ، وإن كانت لم تواز الخطابة في صدر العصر العباسي ، ولا في أيام بني أمية ، ونستطيع أن نعتبر حركة الخطابة – جودة أو ضعفاً – متعلقة بالبيت الحاكم نفسه ، لما قوى ضعفت الخطابة السياسية ، لما مر ببعض الضعف في بداية الدولة أو في فتنة الأمين والمأمون ، فهناك تناسب عكسي بين قوة الدولة وقوة الخطابة في هذه العصر.

ولما اشتد النزاع بين الأمين والمأمون اشتد على أثره اللسان الخطابي ، يقول المأمون في إحدى خطبه :

" قد عرفتموني من حق أمير المؤمنين أكرمه الله ما لا أنكره ، ودعوتموني من المؤازرة والمعونة إلى ما أوثره ولا أدفعه ، وأنا لطاعة أمير المؤمنين مقدم ، وعلى المسارعة إلى ما سره وواقفه حريص ، وفي الروية تبيان الرأي ، وفي إعمال الرأي نصح الاعتزام والأمر الذي دعاني إليه أمير المؤمنين لا أتأخر عنه تثبطاً ومدافعة ، ولا أتقدم عليه اعتسافاً وعجلة ،وأنا في ثغر من ثغور المسلمين

---

(١) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المأمون ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ م ٣١٧/١.
(٢) نفسه : ١٤٣/١ .
(٣) شوقي ضيف العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ ، ص ٤٥٠.

كلب عدوه ، شديد شوكته ، وإن أهملت أمره لم أمن دخول الضرر والمكروه على الجنود والرعية ، وإن أقمت لم آمن فوت أحب من معونة أمير المؤمنين وموازرته وإيثار طاعته ، فانصرفوا حتى أنظر في أمري ، ونصح الرأي فيما أعتزم عليه من مسيري إن شاء الله "(١) .

ويخطب الأمين حينما رأى أن الأمر قد تولى عنه ، وأن أنصاره يتسللون فيخرجون إلى طاهر بن الحسين ، فأشرف عليهم وقال :

" الحمد لله الذي يرفع ويضع ، ويعطي ويمنع ، ويقبض ويبسط ، وإليه المصير أحمده على نوائب الزمان ، وخذلان الأعوان ، وتشتت الرجال ، وذهاب الأموال ، وحلول النوائب ، وتوفد المصائب ، حمداً يدخر لي به أجزل الجزاء ، ويرفدني أحسن العزاء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كما شهد لنفسه ، وشهدت له ملائكته ، وأن محمداً عبده الأمين ، ورسوله إلى المسلمين (صلى الله عليه وسلم) ، أمين رب العالمين ، أما بعد يا معشر الأبناء ، وأهل السبق إلى الهدى ، فقد علمتم غفلتي كانت أيام الفضل بن الربيع وزير علي ومشير ، فمادت به الأيام بما لزمني به من الندامة في الخاصة والعامة ، إلى أن نبهتوني فانتبهت ، واستعنتموني في جميع ما كرهتم من نفسي وفيكم ، فبذلك لكم ما حواه ملكي ، ونالته مقدرتي ، مما جمعته ورثته عن آبائي ، فقودت من لم يجز، واستكفيت من لم يكف ، واجتهدت علم الله في طلب رضاكم بكل ما قدرت عليه، واجتهدتم علم الله في مساءتي في كل ما قدرتم عليه من ذلك توجيهي إليكم على بن عيسى شيخكم وكبيركم وأهل الرأفة بكم والتحنن عليكم ، فكان منكم ما يطول ذكره ، فغفرت الذنب ، وأحسنت ، واحتملت ، وعزيت نفسي عند معرفتي بشرود الظفر ، وحرصي على مقامكم مسلحة بحلوان مع ابن كبير صاحب دعوتكم ، ومن على يدي أبيه كان فخركم ، به تمت طاعتكم عبد الله بن حميد بن قحطبة ، فصرتم من التألب عليه إلى ما لا طاقة له به ، ولا صبر عليه ، يقودكم رجل منكم وأنتم عشرون ألفاً إليَّ عامدين ، وعلى سيدكم متوثبين ، مع سعيد الفرد

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ١ بيروت ، طبعة دار الكتب العلمية ، سنة ١٤٠٧ هـ ج ٥ / ص٤٩.

، سامعين له مطيعين ، ثم وثبتم مع الحسـين علـيّ ، فخلغتمـوني وشـتمتوني وانتهبتموني وقيدتموني ، وأشياء منعتموني من ذكرها حقد قلوبكم وتلكؤ طـاعتكم أكبر وأكثر ، فالحمد لله من حمد من أسلم لأمره ورضى بقدره والسلام "(١).

ويشارك في المعركة الكلامية الممثلة في الخطب غير الأمـين والمـأمون ، مـن أمثال طاهر بن الحسين ، ومحمد بن عيسى ، والعباس بن موسى ، والسيدة زبيدة ، وعبد الملك بن صالح ، وغيرهم ، نذكر منها خطبة رائعة لدواد بن عيسى يدعو إلى خلع الأمين فيقول :

" الحمد لله مالك الملك ، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكـيم ، وأشـهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالدين ، وختم به النبيين ، وجعله رحمة للعـالمين ، صلى الله عليه في الأولين والآخرين ، أما بعد يا أهل مكة ، فأنتم الأصل والفـرع والعشيرة والأسرة والشركاء في النعمة ، إلى بلدكم نفذ وفد الله ، وإلى قبلتكم يـأتم المسلمون ، وقد علمتم ما أخذ عليكم الرشيد هارون رحمة الله عليـه وصـلاته ، حين بايع لابنيه محمد وعبد الله بين أظهركم من العهد والميثاق لتنصرن المظلـوم منهما على الظالم ، والمبغي على الباغي والمغدور على الغادر ألا وعلمتم وعلمنا أن محمد بن هارون قد بدأ بالظلم والبغي والغدر ، وخالف الشروط التي أعطاهـا من نفسه في بطن البيت الحرام ، وقد حل لنا ولكم خلعه من الخلافة ، وتصييرها إلى المظلوم المبغي عليه ، المغدور به ، ألا وإني أشهدكم أني قد خلعت محمد بن هارون من الخلافة كما خلعت قلنسوتي هذه من رأسي ، وخلع قلنسوته عن رأسه فرمى بها بعض الخدم تحته ، وكانت من برود حبرة مسلسـلة حمـراء ، وأتـى بقلنسوة سوداء هاشمية فلبسها ثم قال : قد بايعت لعبد الله عبد الله المـأمون أميـر المؤمنين بالخلافة ، إلا فقوموا إلى البيعة لخليفتكم ، فصعد جماعة من الوجوه إليه إلى المنبر رجل فرجل ، فبايعوا لعبد الله المأمون بالخلافة وخعلوا محمداً "(٢).

---

(١) نفسه : ج ٥ / ص ١٠٢ .

(٢) نفسه : ج ٥ / ص ٧٠ .

والنوع الثاني الخطابة الحفلية ، وكما وضعفت الخطابة السياسية ضعفت الخطابة الحفلية ، وذلك بعد تحول شكل القصر الحاكم من الشكل العربي الذي يفتح أبوابه للواردين يدخلون على الخليفة دون كبير تكلف ، إلى نظام وشكل فارسي يضع بين الخليفة وبين رعيته سداً منيعاً من الحجاب والحراس ، فأصبح الوصول إلى الخليفة شيئاً غير ميسور للناس ، فضعفت الخطابة الحفلية في دواوين الحكام إلى حد بعيد ، واقتصرت على بعض التهاني بتولى الخلافة ، أو التعازي بموت عزيز للخليفة أو الوزير ، فلما ماتت البانوقة وذلك ببغداد ، أظهر عليها المهدي جزعاً لم يسمع بمثله ، فجلس للناس يعزونه ، وأمر ألا يحجب عنه أحد فأكثر الناس في التعازي ، واجتهدوا في البلاغة وفي الناس من ينتقد هذا عليهم من أهل العلم والأدب ، فأجمعوا على أنهم لم يسمعوا تعزية أو جز ولا أبلغ من تعزية (شَبِيْب بنُ شَيْبَة) فإنه قال :

" يا أمير المؤمنين ، الله خير لها منك ، وثواب الله خير لك منها ، وأنا أسأل الله ألا يحزنك ولا يفتنك "(١) .

وذكر صباح بن عبد الرحمن قال : حدثني أبي قال : توفيت البانُوقة بنت المهدي فدخل عليه (شَبيْب بنُ شَيْبَة) فقال :

" أعطاك الله يأمير المؤمنين على ما رزئت أجراً وأعقبك صبراً لا أجهد الله بلاءك بنقمة ولا نزع منك نعمة ، ثواب الله خير لك منها ، ورحمة الله خير لها منك ، وأحق ما صبر عليه ما لا سبيل إلى رده "(٢) .

وخطب (يوسف بن القاسم بن صُبَيْح) الكاتب يوم ولى الرشيد الخلافة فقال : " إن الله بمنه ولطفه منَّ عليكم معاشر أهل بيت نبيه ، بيت الخلافة ، ومعدن الرسالة ، وأتاكم أهل الطاعة من أنصار الدولة ، وأعوان الدعوة من نعمه التي لا تحصى بالعدد ، ولا تنقضي مدى الأبد ، وأياديه التامة ، أن جمع ألفتكم ، وأعلى أمركم ، وشدَّ عضُدَكَم ، وأوهن عدوكم ، وأظهر كلمة الحق ، وكنتم أولى بها وأهلها ، فأعزكم الله وكان الله قوياً عزيزاً ، فكنتم أنصار دين الله المرتضي ،

---

(١) نفسه : ج ٤ / ص ٥٩٣.

(٢) نفسه : ج ٤ / ص ٥٩٣ .

والذابين بسيفه المنتضى عن أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبكم استنقذهم من أيدي الظلمة أئمة الجور ، والناقضين عهد الله ، والسافكين الدم الحرام ، والآكلين الفيء ، والمستأثرين به ، فاذكروا ما أعطاكم الله من هذه النعمة ، واحذروا أن تغيروا فيغير بكم ، وإن الله جل وعز استأثر بخليفته موسى الهادي الإمام ، فقبضه إليه ، وولى بعده رشيداً مرضياً أمير المؤمنين رؤوفاً بكم رحيماً ، من محسنكم قبولاً وعلى مسيئكم بالعفو عطوفاً ، وهو أمتعه الله بالنعمة ، وحفظ له ما استرعاه إياه من أمر الأمة ، وتولاه بما تولى به أولياءه وأهل طاعته ، يعدكم من نفسه الرأفة بكم ، والرحمة لكم ، وقسم أعطياتكم فيكم عند استحقاقكم ، ويبذل لكم من الجائزة مما أفاء الله على الخلفاء مما في بيوت الأموال ما ينوب عن رزق كذا وكذا شهراً غير مقاص لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم ، وحامل باقي ذلك للدفع عن حريمكم ، وما لعله أن يحدث في النواحي والأقطار من العصاة المارقين إلى بيوت الأموال حتى تعود الأموال إلى جمامها وكثرتها ، والحال التي كانت عليها ، فاحمد والله وجددوا شكراً يوجب لكم المزيد من إحسانه إليكم ، بما جدد لكم من رأي أمير المؤمنين ، وتفضل به عليكم أيده الله بطاعته وارغبوا إلى الله له في البقاء ولكم به في إدامة النعماء لعلكم ترحمون وأعطوا صفقة أيمانكم ، وقوموا إلى بيعتكم ، حاطكم الله وحاط عليكم وأصلح بكم وعلى أيديكم وتولاكم ولاية عباده الصالحين"(١).

أما النوع الثالث من أنواع الخطابة ، وأعني الخطابة الدينية ، فإن طبيعتها تضمن لها الاستقرار والتطور ، فلا علاقة لها – بشكل عام – بالقصر وحده ، لأنها تتوجه إلى كافة المسلمين وقد تكون من غير خليفة أو حاكم ، لذا كثر الخطباء والبلغاء ، وكان منهم بطبيعة الحال خلفاء ووزراء ، وإذا كانت الخطابة الدينية من غير الحكام لا تدخل في مجال بحثنا ، لأن أثر الحكام فيها وفي توجيهها ليس بالأثر المباشر ، إلا أننا نجد من الخلفاء والوزراء من صدرت عنه خطب دينية بليغة ، أضيفت إلى ما لحكام العباسيين من درر الكلام ، وفصيح القول ، وإذا كانت خطب المنصور والسفاح قد اتخذت شكلاً سياسياً ، أو غلب عليها الجانب

(١) نفسه : ج ٤ / ص ٦١٨ .

السياسي، فإن للمهدي وللرشيد وللمأمون خطباً دينية قوية ، يقول أبو جعفر في أحدى خطبه الدينية :

" ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون أمر مبرم ،وقول عدل ، وقضاء فصل ، والحمد الله الذي أفلج حجته ، وبعداً للقوم الظالمين ، الذين اتخذوا الكعبة عرضاً ، والفيء إرثاً ، وجعلوا القرآن عضين ، لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فكم ترى من بئر معطلة وقصر مشيد ، أهملهم الله حتى بدلوا السنة ، واضطهدوا العترة ، وعندوا واعتدوا واستكبروا ، وخاب كل جبار عنيد ، ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمح لهم ركزاً "[١].

ويخطب المهدي فيقول :

" الحمد لله الذي ارتضى الإسلام لنفسه ، ورضي به من خلقه ، أحمده على آلائه ، وأمجده لبلائه ، واستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه توكل راضٍ بقضائه ، وصابر لبلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده المصطفى ، ونبيه المجتبى ، ورسوله إلى خلقه ، وأمينه على وحيه ، أرسله بعد انقطاع الرجاء ، وطموس العلم ، واقتراب من الساعة ، إلى أمةٍ جاهليةٍ ، مختلفة أميةٍ ، أهل عداوة وتضاغن ، وفرقة وتباين ، قد اسهتوتهم شياطينهم ، وغلب عليهم قرناؤهم ، فاستشعروا الردى ، وسلكوا العمى ، يبشر من أطاعه بالجنة وكريم ثوابها ، وينذر من عصاه بالنار وأليم عقابها " ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيَّ عن بينة ، وإن الله سميع عليم " أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن الاقتصار عليها سلامة ، والترك لها ندامة ، وأحثكم على إجلال عظمته ، وتوفير كبريائه وقدرته ، والانتهاء إلى ما يقرب رحمته ، وينجي من سخطه ، وينال بهما لديه من كريم الثواب وجزيل المآب "[٢] .

ويخطب الرشيد فيقول :

---

(١) نفسه : ج ٤ / ص ٥٣٤ .

(٢) أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب ، ط١ ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، وأولاده ، سنة ١٩٣٣ . ٣/٥٠ .

" الحمد لله نحمده على نعمه ، ونستيعينه على طاعته ونستنصره على أعدائه ونؤمن به حقاً ، ونتوكل عليه ، مفوضين إليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بعثه على فترة من الرسل ، ودروس من العلم ، وإدبار من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، بشير بالنعيم المقيم ، ونذير بين يدي عذاب أليم ، فبلغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله ، فأدى عن الله وعده ووعيده ، حتى أتاه اليقين فعلى النبي من الله صلاة ورحمة وسلام " [١].

ويخطب المأمون يوم الجمعة فيقول :

" الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومستوجبه على خلقه ، أحمده وأستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وحده ، والعمل لما عنده ، والتنجز لوعده ، والخوف لو عيده ، فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه ، وعمل له وأرضاه ، فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى بما ينزل عنكم ، وترحلوا فقد جدبكم ، واستعدوا للموت فقد أظلكم ، وكونوا قوماً صيح بهم فانتبهوا، واعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، فإن الله لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سدىً ، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به ، وإن غاية تنقصها اللحظة ، وتهدمها الساعة الواحدة ، لجديرة بقصر المدة ، وإن غائباً يحدوه الجديدان : الليل والنهار لحريٌّ بسرعة الأوبة ، وإن قادماً يحله بالفوز ، أو بالشقوة لمستحق لأفضل العدة ، فاتقى عبد ربه ، ونصح نفسه ، وقدم توبته ، وغلب شهوته ، فإن أجله مستور عنه ، وأمله خادع له ، والشيطان موكل به ، يزين له المعصية ليركبها ، ويمينه التوبة ليسوفها ، حتى تهجم عليه منيته أغفل ما يكون عنها " [٢].

---

(١) نفسه : ٣/٨٠.

(٢) نفسه : ص ١٢٠ .

ولقد كان للوعاظ خطب دينية في داويين الحكام جعلتهم يعترفون لهم بالورع والتقوى وأثرت فيهم تأثيراً قوياً ، حدث ذلك مع عمرو بن عبيد والمنصور ، ومع الرشيد وابن السمَّاك ، فقد ذكر محمد بن هارون عن أبيه قال :

" حضرت الرشيد وقال له الفضل بن الربيع : يا أمير المؤمنين قد أحضرت ابن السماك كما أمرتني ، قال أدخله فدخل ، فقال له : عظني ، قال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله وحده لا شريك له ، وأعلم أنك واقف غداً بين يدي الله ربك ، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالثة لهما ، جنة أو نار ، قال : فبكى هارون حتى أخضلت لحيته ، فأقبل الفضل على ابن السماك فقال : سبحان الله ، وهل يتخالج أحد شكٌ في أن أمير المؤمنين مصروف إلي الجنة إن شاء الله لقيامه بحق الله وعدله في عباده وفضله ، قال فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله ، ولم يلتفت إليه ، وأقبل على أمير المؤمنين فقال : يا أمير المؤمنين إن هذا يعني الفضل بن الربيع ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم ، فاتق الله وانظر لنفسك قال فبكى هارون حتى أشفقنا عليه ، وأفحم الفضل بن الربيع فلم ينطق بحرف حتى خرجنا "(١) .

وكان لغير الخلفاء من القواد والوزراء وعلية القوم خطب دينية أيضاً ، ولم تكن هذه الخطب على قوتها وبلاغتها – إلا نتيجة من نتائج ثقافة الحكام البلاغية العالية ، وأما خطب الوعاظ وخطباء المساجد العاديين فإن كان للحكام فيها من أثر فإنه سيكون متمثلاً في دورهم في تسهيل طرق الحصول على الثقافة كما أوضحنا في الفصل الثاني.

ب- الوصايا :

لم تقتصر بلاغة الحكام على الخطب – دينية كانت أم سياسية – ، وإنما تجلت بلاغتهم وأثارهم في النثر الفني في أنواع أخرى ، منها الوصايا ، ولقد تفنن الحكام يوصون أبناءهم وذويهم بكلمات محكمةٍ بلغيةٍ ، إن دلت على شيء فإنما

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ١ ، بيروت ، طبعة دار الكتب العلمية ، سنة ١٤٠٧ هـ ج ٥/ ص٢٢.

تدل على الثقافة الغزيرة بأسرار العربية وبلاغة القول فيها ، فالمنصور يوصي ابنه المهدي ، فيقول :

" انظر هذا السَّفْطِ فاحتفظ به ، فإن فيه علم أبائك ، ما كان ، وما هو كائن إلى يوم القيامة ، فإن أحزنك أمرنا فأنظر في الدفتر الأكبر ، فإن أصبت فيه ما تريد وإلا فالثاني والثالث ، حتى بلغ سبعة ، فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة ، فإنك واجدٌ فيها ما تريد ، وما أظنك تفعل ، وانظر هذه المدينة ، فإياك أن تستبدل بها ، فإنها بيتك وعزك ، قد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجند ، والنفقات ، وعطاء الذرية ، ومصلحة الثغور ، فاحتفظ بها ، فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً ، وما أظنك تفعل. وأوصيك بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم ، وتقدمهم وتكثر الإحسان إليهم ، وتعظم أمرهم وتوطئ الناس أعقابهم ، وتوليهم فأحسن إليهم ، وقربهم ، واستكثر منهم ، فإنهم مادتك لشدةٍ أن نزلت بك ، وما أظنك تفعل . وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك ، ودماءهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم في أهله وولده ، وما أظنك تفعل . وإياك أن تبني مدينة الشرقية ، فإنك لا تتم بناءها ، وما أظنك تفعل . وإياك أن تستعين برجل من بني سليم ، وأظنك ستفعل ، وإياك أن تدخل النساء في مشورتك في أمرك ، وأظنك ستفعل "(١) .

من أعظم ما كتب في الوصايا على مر العصور ، وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله ، التي يقول عنها ابن خلدون : أنها من الآداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية :

يقول فيها طاهر :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخشيته ومراقبته عز وجل ، ومزايلة سخطه ، وأحفظ رعيتك في الليل والنهار ، وألزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر إليه ، وموقوف

---

(١) نفسه : ج ٤ / ٥٤١.

عليه، ومسئول عنه ، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله عز وجل وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه ، فإن الله سبحانه قد أحسن إليك ، وأوجب الرأفة عليك بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وألزمك العدل فيهم ، والقيام بحقه ، وحدوده عليهم ، والذب عنهم ، والدفع عن حريمهم ومنصبهم ، والحقن لدمائهم ، والأمن لسربهم ، وإدخال الراحة عليهم ، ومؤاخذك بما فرض عليك ، وموقفك عليه ، وسائلك عنه ، ومنيبك عليه بما قدمت وأخرت ، ففرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك، ولا يشغلك عنه شاغلٌ وإنه رأس أمرك ، وملاك شأنك ، وأول ما يوفقك الله عليه ، وليكن أول ما تلزم به نفسك ، وتنسب إليه فعلك المواظبة على ما فرض الله عز وجل عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك وتوابعها على سننها ، من إسباغ الوضوء لها ، وافتتاح ذكر الله عزل وجل فيها ، ورتل في قراءتك ، وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك ، ولتصرف فيه رأيك ونيتك ، واحضض عليه جماعة ممن معك ، وتحت يدك وادأب عليها ؛ فإنها كما قال لله عز وجل " تنهي عن الفحشاء والمنكر " ثم اتبع ذلك بالأخذ بسنن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، والمثابرة على خلائقه ، واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده ، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله عز وجل وتقواه ، وبلزوم ما أنزل الله عز وجل في كتابه ، من أمره ونهيه وحلاله وحرامه ، وائتمام ما جاءت به الآثار عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم قم فيه بالحق لله عز وجل ، ولا تميلن عن العدل فيما أحببت أو كرهت ، لقريب من الناس أو لبعيد ، وأثر الفقه وأهله ، والدين وحملته ، وكتاب الله عز وجل ، والعاملين به ، فإن أفضل ما يتزين به المرء الفقه في الدين ، والطلب له ، والحث عليه ، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله عز وجل ، فإنه الدليل على الخير كله ، والقائد إليه ، والأمر به ، والناهي عن المعاصي والموبقات كلها ، ومع توفيق الله عز وجل يزداد المرء معرفة وإجلالاً له ، ودركاً للدرجات العلى في المعاد مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمرك والهيئة لسلطانك والأنسة بل والثقة بعدلك ، وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها ، فليس شيء أبين نفعاً ، ولا أخص أمناً ، ولا أجمع فضلاً منه ، والقصد داعية إلى الرشد ، والرشد دليل على التوفيق ، والتوفيق قائد

إلى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد ، وكذا في دنيـــاك كلهـــا ، ولا تقصر في طلب الآخرة ، والأجر ، والأعمال الصالحة ، والسنن المعروفة ، معالم الرشد ، والإعانة ، والاستكثار من البر ، والسعي له إذا كان يطلب به وجـــه الله تعالى الرشد ، والإعانة والاستكثار من البر ، والسعي له إذا كان يطلب به وجـــه الله تعالى ومرضاته ، ومرافقة أولياء الله في دار كرامته ، أما تعلم أن القصد فـــي شأن الدنيا يورث العز ، ويمحص من الذنوب ، وأنك لن تحوط نفسك من قائـــل ، ولا تنصلح أمورك بأفضل منه فأته واهتد به تتم أمورك ، وترد مقدرتك ، وتصلح عامتك وخاصتك وأحسن ظنك بالله عز وجل تستقم لك رعيتك ، والتمس الوســيلة إليه في الأمور كلها ، تستدم به النعمة عليك ، ولا تَتَّهِمَنَّ أحداً مــن النـــاس فيمـــا توليه من عملك قبل أن تكشف أمره ، فإن إيقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهـــم آثم إثم ، فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك ، وأطرد عنك سوء الظن بهـــم ، وارفضه فيهم يعنك ذلك على استطاعتهم ورياضتهم ، ولا يجدنَّ عدو الشيطان في أمرك مغمراً ، فإنه يكتفي بالقليل وهنك ، ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ما ينقص لذاذة عيشك ، وأعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة ، وتكتفي به ما أجبت كفايته من أمورك ، وتدعو به الناس إلى محبتك ، والاستقامة في الأمور كلها ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك ، والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة والبحث عـــن أمورك ، والمباشرة لأمور الأولياء ، وحياطة الرعية، والنظر فـــي حـــوائجهم ، وحمل مؤوناتهم أيسر عندك مما سوى ذلك ، فإنه أقـــوم للـــدين ، وأحيـــا للســـنة وأخلص نيتك في جميع هذا ، وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مســـئول عمـــا صنع ، ومجزي بما أحسن ، ومؤاخذٌ بما أساء ، فإن الله عز وجل جعـــل الـــدين حرزاً وعزاً ، ورفع من اتبعه ، وعززه الله تعالى في أصحاب الجرائم على قـــدر منازلهم ، وما استحقوه ، ولا تعطل ذلك ، ولا تتهاون به ، ولا تؤخر عقوبة أهـــل العقوبة فإن في تفريطك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك ، واعتزم على أمـــرك في ذل بالسنن المعروفة ، وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينـــك ، وتقـــم لـــك مروءتك ، وإذا عاهدت عهداً فأوف به ، وإذا وعدت خيراً فأنجزه واقبل الحســـنة وادفع بها ، وأغمض عن عيب كل ذي عيب من رعيتك واشدد لسانك عن قـــول

الكذب والزور ، وأبغض أهل النميمة ، فإن أول فساد أمورك في عاجلها تقريب الكذوب ، والجراءة على الكذب ، لأن الكذب رأس المآثم ، والزور والنميمة خاتمتها ، لأن النميمة لا يسلم صاحبها ، وقائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم له أمر ، وأحبب أهل الصلاح والصدق ، أعز الأشراف بالحق ، وآس الضعفاء ، وصل الرحم ، وابتغ بذلك وجه الله تعالى وإعزاز أمره ، التمس فيه ثوابه والدار الآخرة ، واجتنب سوء الأهواء والجور ، وإصرف عنهما رأيك ، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك ، وأنعم بالعدل في سياستهم وقم بالحق فيها ، وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى ، وأملك نفسك عند الغضب ، وأثر الحلم والوقار ، وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله ، وإياك أن تقول أنا مسلط أفعل ما أشاء ، فإن ذلك سريع إلى نقص الرأي وقلة اليقين بالله عز وجل ، وأخلص لله وحده النية فيه واليقين به ، وأعلم أن الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء وينزعه مما يشاء ، و لن تجد تغير النعمة وحلول النقمة على أحد أسرع منه إلى حملة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم في الدولة ، إذا كفروا نعم الله وإحسانه ، واستطالوا بما أعطاهم الله عز وجل من فضله ، ودع عنك شره نفسك، ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدخر وتكنز البر والتقوى واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد لأمورهم والحفظ لدمائهم والأغاثة لملهوفهم ، واعلم أن الأموال إذا اكتنزت وادخرت في الخزائن لا تنمو ، وإذا كانت في صلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف الأذية عنهم نمت وزكت وصلحت بها العامة ، وترتبت بها الولاية ، وطاب بها الزمان واعتقد بها العز والمنفعة فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله ، ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوف من ذك حصصهم ، وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم فإنك إذا فعلت ذلك قرت النعمة عليك واستوجبت المزيد من الله تعالى ، وكنت بذلك على جباية خراجك وجمع أموال رعيتك وعملك أقدر ، وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أساس لطاعتك ، وأطيب أنفساً بكل ما أردت ، وأجهد نفسك فيما

حددت لك في هذا الباب ، ولبعضهم حقك فيه ، وإنما يبقى من المال ما أنفق في سبيل الله ، واعرف للشاكرين حقهم وأثبهم عليه "[١] .

إذاً فإن الوصايا كانت باباً من أبواب القول ، أجاد فيها حكام بني العباس ، فأخرجوا لنا قطعاً فنية رائعة مملوءة بلاغة وبياناً .

جـ- الرسائل :

تنقسم الرسائل إلى قسمين : ديوانية وإخوانية ، أما الرسائل الديوانية فهي فن مستحدث في الأدب العربي ، يرجع الفضل كله فيه إلى حكام العباسيين وأنصارهم من الفرس ، فقد ظهر في الديوان العباسي بتأثير من الحضارة الفارسية ، والرسائل الديوانية أنواع عدة ، منها الرسائل ، التي كان يرسلها الخليفة إلى المخالفين من قادة الجنود ومنها رسائل الأمان التي كان يرسلها لمن أراد تأمينهم من المخالفين ، ومنها رسائل الإصلاح ، ورسائل المبايعات التي كان يرسلها خلفا بني العباس بالبيعة لأولادهم من بعدهم ، والعهود التي كان يكتبها الخلفاء لمن ينوب في ولاية الأقاليم وقد امتلأ ديوان الكتابة العباسية بالعظام من الكتاب المشهورين ، الذين تركوا آثاراً بيانية رائعة ، وقد كان من أهم أسباب ازدهار هذا النوع خاصة أنه الطريق الموصل إلى كرسي الوزارة جعل ذلك الكاتب يهتم اهتماماً زائداً ، بتثقيف نفسه بكل أنواع الثقافة " كان لابد لهم يجانب هذه القدرة البلاغية من أن يتقنوا طائفة من المعارف ، وفي مقدمتها علوم اللسان العربي وعلم الفقه ، وكان العلم الأخير ضرورياً لهم ، لأنهم كانوا يكتبون في شئون الخراج ، وفيما يجب على أهل الذمة أن يؤدوه من أموال ، وكذلك كان علم الحساب من الضرورة لهم بمكان ، وكانوا يلمون بكل علم ، مثل الكيمياء والطب والنجوم ، وأكبوا على الفلسفة والمنطق ليدعموا عقولهم "[٢].

قد كان كل هذا الاهتمام أثراً فارسياً خالصاً ، انتقل إلى حكومة العباسيين ، فاهتموا بالكتاب ، واختاروا وزراءهم من أحذقهم كتابة ، فبرزت شخصيات أدبية

---

(١) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ، مقدمة ابن خلدون ، ط ٥ ، بيروت ، دار القلم ، سنة ١٩٨٤ م ص ٢٠٦ .

(٢) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ م ، ص ٤٦٦.

راقية من بداية الدولة ، وأول من يصادفنا من الكتاب في عهود العباسيين (عمَارَة بن حمْزَة) ، كاتب السفاح والمنصور ، وكان أبــو العبـــاس قلــد (عِمَـــارة بـــن حمزة)*[1] من ولد أبي لبَابة مولي عبد الله بـــن عبـــاس ، ضـــياع مـــروان وآل مروان[2] .

ومن أهم رسائله الرسالة الماهانية التي كتبت في (عَلِيّ بن مَاهَان) والتي قال فيها : " قد علم أمير المؤمنين أنه لم يبلغ غاية التأديب ، فإنه لا يبلغ ذلك دون انقطاع الأمور التي يحتاج فيها إلى الأدب ، وليس لها نهايـــة دون الفنـــاء ، ولـــم يصبح يتعهد أحد من الناس بعد نفسه أحق منه يتعهده ، لأنه الثقة له ولعدوه الثائر الأعظم ، وإن الناس بأوساط الأرض وأقطارها يصيخون بأسماعهم إلى خبـــره : يودون أن تزل قدم بعد ثبوتها وتفسد حال بعد صلاحها ، وتكل بصيرة بعد نفاذها، متخذين ذلك ذريعة إلى الإخلال بحق أمير المؤمنين ولم يكن بين طاعته ومعصية إلا ساعة من نهار" [3].

من كتاب الرسائل للمنصور (غَسَّان بن عبَد الحَميد) [4] وهو من البلغـــاء المعدودين من كتاب المنصور ومن رسائله الرسالة التي يعزي بها المهدي ويقول فيها :

" أما بعد ، فإن الله تبارك وتعالى جعل المقادير علماً ثابتاً عنـــده ، وكتابـــاً سابقاً منه ، فخرجت عليه ومضت به الأمور في قدرته ، والعباد فـــي قبضـــته ، وليس عبد من عبيده إلا وقد كان عمره في الدنيا موظوفاً قبل خلقه ، وكـــان مـــا يصيبه منها مكتوباً عليه قبل أن ينزل به ، ثم جعل أهـــل عبادتـــه أهـــل حظـــوظ

---

(١) * كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، القاهرة ، دار المعارف ، نقه إلى العربيـــة ، عبـــد الحلـــيم النجار، سنة ١٩٦١ ، ١١٧/٢.

(٢) الجهشياري ، أبو عبد الله محمد بن عبدوس ، الوزراء ، والكتاب ، ط١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، حققه ووضع فهارسه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفـــيظ الشـــلبي ، ســـنة ١٩٣٨ م ، ص٩٠.

(٣) أحمد زكي صفوت ، جمهرة السائل العرب ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ١٢٨/٣.

(٤) الجهشياري ، أبوعبد الله محمد بن عبدوس ، الوزراء والكتاب ، ط ١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبـــي وأولاده ، حققه ووضع فهارسه ، مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري ، وعبد الحميد الشـــلبي ســـنة ١٩٣٨ م ، ص١١٠.

متكاملة في السعادة ، وأهل فضائل متظاهرة في الكرامة ، فاصطفى منهم أنبياءه، وانتخب منهم خلفاءه ، وألزمهم على ذلك الموت الذي لابد منه ، وجعله الحياة لهم فيما عنده ، فكانت وفاة من توفى منهم له سعادة فيما يصيرهم إليه ، وحياة من أحيا منهم له كرامة فيما يصطنعهم له "(١) .

ومن كتاب الرسائل للمهدي (أبو عُبَيدْ الله مُعَاوَية بن يَسَار) " كان كاتب المهدي ونائبه قبل الخلافة ضمه المنصور إليه " (٢) ومن مأثور كلامه : " الحمد لله الذي شرع لإظهار حقه ، وإنقاذ سابق قضائه فيمن ذرأ وبرأ من عباده . بإدخال من أراد يدخل في رحمته ، وإنجاز ما حق له من العبادة على خلقه ، بابتداء خلقه ، ومظاهرته الآلاء عليه ، وإحسانه البلاء عنده ، وإبلاغه في الحجج إلى عامته ، ديناً رضيه لنفسه وملائكته الذين أسكن سماواته ورسله فأتمه على وجه لم يرض إلا به ، ولم يقبل إلا إياه ، ثم كان ما أعز به نفسه وأظهر به نوره، وأراد أن يبلوا به عباده ، تحقيقاً لما سبق به علمه ، وإنفاداً لما جرت به مقاديره أن بعث لما شرع من دينه ، واصطفى لتسبيحه ، وتقديسه من ملائكته المكرمين ، من ارتضى واختار من أنبيائه ورسله المجتبين لتبليغ رسالته وإظهار حقه ، واستشلاء من أراد سعادته من خلقه بالرحمة التي أطلعت عليهم وعمتهم ، ليعبد مخلصاً له محموداً بها استحمد به إلى خلقه " (٣).

ومن كتاب المهدي أيضاً (إسْمَاعِيْلُ بنُ صُبَيْح) (٤) ومن كتاب الرشيد (يَحْيَى البَرْمَكِي) ، ومن رسائله إلى الرشيد " يا أمير المؤمنين إن كان الذنب

---

(١) أحمد زكي صفوت ، جمهرة ، رسائل العرب ، مصر مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، وأولاده ، ١٥٠/٣ والجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ص ١٥٦.

(٢) محمد بن علي بن طباطبا العلوي المعروف بابن الطقطقي ، الفخري في الأدب السلطانية والدول الإسلامية ، بيروت ، دار صادر ، ص ١٨٢ ، والجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ص ١٥٦.

(٣) أحمد زكي صفوت : جمهرة رسائل العرب ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، وأولاده ، ١٦٤/٣.

(٤) الجهشاري ، أبو عبد الله محمد بن عبدوس ، الوزراء والكتاب ، ط ١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، حققه ووضع فهارس ، مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ الشلبي ، سنة ١٩٣٨ م ، ص ١٥٠.

خاصاً فلا تعمن بالعقوبة ، فــإن الله عــز وجــل يقــول "ولا تــزر وازرة وزر أخرى"(١).

ومن أهم الكتاب في العصر كله (أحْمَد بن يُوسُف) ، وكتابه الذي ارتفــع به حين قتل الأمين ، يقول فيه :

" أما بعد فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة فقد فرق حكم الكتاب بينه وبينه في الولاية والحرمــة ، لمفارقتــه عصــمة الــدين ، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين ، يقول الله عز وجل فيما قص علينا من نبــأ نوح ، يا نوح ، " إنَّهُ ليْسَ مِنْ أهْلِكَ إنَّهُ عَمَلٌ غيْرُ صَالِحٍ " ولا طاعة لأحــد فــي معصية الله ، ولا قطيعة إذا ما كانت القطيعة في ذات الله ، وكتابي هذا إلى أميــر المؤمنين وقد قتل الله المخلوع، وأسلمه بغدره ونكثه ، وأحمــد لأميــر المــؤمنين أمره، وأنجز له ما كان ينتظره من سابق وعده والحمــد لله الراجــع إلــى أميــر المؤمنين حقه ، الكائد له فيمن خان عهده ، ونقص عقده ، حتى رد به الألفة بعــد فرقتها، وجمع به الأمة بعد شتاتها ، فأحيا به أعلام الدين بعد دثور سرائرها "(٢).

و (الفَضْلُ بن سَهْل) كاتب المأمون الذي كتب حينما وجــه إلــى رجــل بجائزة فقال : " قد وجهت إليك بجائزة ، لا أعظمها تكثراً ، ولا أقللها تجبــراً ولا أقطع لك بعدها رجاء ، ولا أستثيبك عليها ثناء "(٣).

و (الحَسَن بن سَهْل) أخو الفضل ، من أشهر كتاب العصر الذي كتب إلى أخيه ذي الرياستين في تهنئةٍ بمولود فقال :

" إنه ليس من نعم الله وفوائد قسمه ، وإن خص موقعها ، ووجب شــكرها نعمة تعدل النعمة في الولد ، لنمائها في العدد ، وزيادتها في قوة العضــد ، ومــا يتعجل به من عظيم بهجتها ، ويرجى من باقي ذكرها في الخلوف والأعقاب ، ولا حق بركتها في الدعاء والاستغفار ، وإن الله قد أفادك وأنا لك غلاماً ثرياً ســميته

---

(١) أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب ، مصر ، مطبعــة مصــطفى البــابي الحلبــي ، وأولاده ، ٢٢٠/٣.

(٢) أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر العباسي ، تاريخ اليعقوبي ، بيــروت ، دار صــادر ، بــدون محقــق ، ٤٤٢/٢.

(٣) أحمد زكي صفوت ، جمهرة السائل العرب ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ٤٠٠/٣.

فلاناً ، فكان ميلاده عند فتح الله على أمير المؤمنين ، فرجوت أن تكون موافاته بالنصر الذي أرسلنا الله به على عدو الدين والمسلمين "(١).

ومن أشهر الكتاب (طاهر بن الحُسَين) ، و (عَمْرُو بن مَسْعَدَة) كاتب المأمون ، الذي كتب إليه مرة في رجل من بني ضبة يستشفع له بالزيادة في منزلته ، وجعل كتابه تعريضاً يقول :

" أما بعد ، فقد استشفع بي فلانٌ يا أمير المؤمنين – لتطولك عليه – في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به ، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين ، وفي ابتدائه بذلك تعدي طاعته "(٢) .

ومن البارعين أيضاً (عبد الله بن طاهر بن الحسين) ، الذي كتب مرة إلى (نصْر بن شَبث) يقول فيها :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن الأعذار بالحق حجة الله المقرون بها النصر ، والاحتجاج بالعدل دعوة الله الموصول بها العز ، ولا يزال المعذر بالحق المجتمع بالعدل في استفتاح أبواب التأييد ، واستدعاء أسباب التمكين ، حتى يفتح الله وهو خير الفاتحين ، ويمكن وهو خير الممكنين ولست تعدو أن تكون فيما لهجتٍ به أحد ثلاثة : طالب دين ، أو ملتمس دنياً ، أو متهوراً يطلب الغلبة ظلماً ، فإن كنت للدين تسعى بما تصنعى فأوضح ذلك لأمير المؤمنين يغتنم قبوله إن كان حقاً ، فلعمري ماهمته الكبرى ولا غايته القصوى إلا الميل مع الحق حيث مال ، والزوال مع العدل حيث زال ، وإن كنت للدنيا تقصد فأعلم أمير المؤمنين غايتك فيها ، والأمر الذي تستحقها به ، فإن استحققها وأمكنه ذلك فعله بك فلعمري ما يستجيز منع خلق ما يستحقه وإن عظم ، وإن كنت متهوراً فسيكفي الله أمير المؤمنين مؤنتك ، ويعجل ذلك كما عجل كفايته مؤن قوم سلكوا مثل طريقك كانوا أقوى يداً ، وأكثف حبذاً وأكثر جمعاً وعدداً ونصراً منك فيما أصارهم إليه من مصارع الخاسرين ، وأنزل بهم من جوائح الظالمين ، وأمير المؤمنين يختم كتابه بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله (صلى الله

(١) نفسه : ٤٠٤/٣.

(٢) نفسه : ٥١١/٣.

عليه وسلم) ، ضمانه لك في دينه وذمته الصفح عن سوالف جرائمك ، ومتقدمات جرائرك ، وإنزالك ما تستأهل من منازل العز والرفعة إن أتيت وراجعت إن شاء الله والسلام ".(١)

ومحمد بن عبد الملك الزيات وغيرهم.

وهكذا ، امتلأ ديوان الكتاب في حكومة بني العباس بالكتاب الأفذاذ ، الذين أثـروا في النثر الفني ، وساعدوا في تطوره ورقيه ووصوله إلى مستوى رفيع أفادوا فيه العلوم العربية الأجنبية على حد سواء .

أما الرسائل الإخوانية ، وتقصد بها الرسائل التي تصور عواطف الأفـراد ومشاعرهم ، فقد أجاد كتاب الرسائل الديوانية الكتابية بشكل عام ، فكتبـوا أيضـاً رسائل إخوانية ، فقد كتب عمرو بن مسعدة إلى بعض أصحابه فقال : " أما بعد ، فموصل كتابي إليك سالمٌ ، والسلام " . أراد قول الشاعر :

يُدِيْرُونَني عَن سَالمِ وأدِيْـرُهم ∴ وجِلْدَة بين العَيْن والأنْفِ سَـالمِ

أي : يحل مني هذا المحل(٢) .

وقد جمع أحمد زكي صفوت في كتابه جمهرة رسائل العرب كثيراً مـن الرسـائل البليغة ، ديوانية وإخوانية لكتاب هذا العصر .

د- التوقيعات :

التوقيعات " عبارة موجزة بليغة ، تعوَّد ملوك الفرس ووزراؤهم أن يوقعوا بها على ما يقدم إليهم من تظلمات الأفراد في الرغبة وشكاواهم ، وحاكاهم خلفـاء بني العباس ووزراؤهم في هذا الصنيع " (٣) ، وقد برع حكام بني العباس في هـذا النوع من الأدب النثري الحديث على النثر العربي ، من ذلك ردُّ طاهر بن الحسين على كتاب من بعض عماله يقول فيه :

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ١ ، بيروت ، طبعة دار الكتب العلمية ، سنة ١٤٠٧ هـ ج ٥/ ص ١٦٦.

(٢) أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ٥١٤/٣.

(٣) شوقي ضيف ، العصر العباسي ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ م ، ص ٤٨٩.

" وقد وجهت إلى الأمير ثوب ديباج أحمر أحمر أحمر " فكتب طاهر إليه :
" قد قرأت كتابك ، فعلمت أنك أحمق أحمق أحمق ، فأقدم فأقدم فأقدم والسلام "(١)
وردُّ المأمون على عنبسة بن إسحق بهذين البيتين :

أسمعت غير كهام السمع والبصر ∴ لا يقطع السيف إلا في يد الحـذر
سيصبح القوم من سيفي وضاربه ∴ مثل الهشيم ذرته الريح بالمطر(٢)

وتوقيعاتهم البليغة مشهورة في كتب الأدب ومصادر التاريخ .

هـ- المناظرات :

باب مهم من أبواب النثر الفني ، أزدهر في عهد الخليفة المهدي ، حينما شحذ الكتاب ألسنتهم للرد على خصوم الدين ينافحون عنه ويحمون حوزته وقد تعددت موضوعات المناظرات ، من مناظرات في النحو ، إلى مناظرات في الفلسفة ، إلى مناظرات في الفقه ، إلى مناظرات في العقيدة ، وقد اشتهرت هذه المناظرات في قصور البرامكة وفي قصر المأمون على وجه الخصوص ، حتى جعل المتكلمون والمتناظرون وفي مقدمتهم المعتزلة يبحثون في بلاغة القول ، ويكثرون من ملاحظاتهم في هذا الاتجاه ، وقد اشتهر من المناظرين أبو الهذيل العلاف ، يقول الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد على لسان أبي الهذيل : " كنت اختلف إلى عثمان الطويل صاحب واصل بن عطاء ، فبلغني أن رجلاً يهودياً قدم البصرة ، وقد قطع عامة متكلميهم ، فقلت لعمى : ياعم امض بي إلى هذا اليهودي أكلمه ، فقال لي : يا بني ، هذا اليهودي قد غلب جماعة متكلمي أهل البصرة ، من أخذك أن تكلم من لا طاقة لك بكلامه ، فقلت له : لا بدمن أن تمضي بي إليه، وما عليك مني غلبني أو غلبته ، فأخذ بيدي ودخلنا على اليهودي ، فوجدته يقرر الناس الذين يكلمونه بنبوة موسى ثم يجحدهم بنوة نبينا ، فيقول : نحن على ما اتفقنا عليه من صحة نبوة موسى إلى أن نتفق على غيره فنقربه ، قال فدخلت عليه فقلت له : أسألك أو تسألني ، فقال لي : يا بني أو ما ترى ما أفعله بمشايخك ،

(١) أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، وأولاده ، ٤٩٧/٣.
(٢) نفسه : ٤٨١/٣.

فقلت له : دع عنك هذا واختر إما أن تسألني أو أسألك ، قال : بل أسألك ، خبرني أليس موسى نبي من أنبياء الله قد صحت نبوته ، وثبت دليله تقر بهذا أو تجحده فتخالف صاحبك ، فقلت له : إن الذي سألتني عنه من أمر موسى عندي على أمرين أحدهما أني أقر بنبوة موسى الذي أخبر بصحة نبوة نبينا ، وأمر باتباعه ، وبشر به وبنبوته ، فإن كان هذا تسألني فأنا مقرٌّ بنبوته ، وإن كان موسى الذي تسألني عنه لا يقر بنبوة نبينا محمد ، ولم يأمر باتباعه ولا بشر به فلست أعرفه ، ولا أقر بنبوته ، بل هو عندي شيطان يحرق ، فتحير لما ورد عليه ما قلته له وقال لي : فما تقول في التوراة ، قلت : أمر التوراة أيضاً على وجهين : إن كانت التوراة التي أنزلت على موسى النبي الذي أقر بنبوة محمد فهي التوراة الحق ، وإن كانت أنزلت على الذي تدعيه فهي باطل غير حق وأنا غير مصدق بها " [١].

ومن أشهرهم النظّام ، إذ ذكر له ابن النديم مناظرة مع الحسن بن النجار ، بل إن بعض المؤرخين يقول أنها كانت السبب في موته ونصها كالتالي :

" أجتمع مع إبراهيم النظام عند بعض إخوانه ، فسلم الحسين ، فقال له إبراهيم : تجلس حتى أكلمك فجلس ، فقال له إبراهيم : يجوز أن تفعل خلق الله ، فقال الحسين : يجوز أن أفعل الذي هو خلق الله ، قال إبراهيم فالذي هو خلق الله خلق الله أو ليس بخلق له ، قال الحسين : هو خلق الله ، قال إبراهيم : فقد فعلت خلق الله فلم لا يجوز أن تخلق خلق الله كما جاز أن تفعل خلق الله ، قال حسين : لم أفعل خلق الله وإنما فعلت الذي هو خلق الله ، قال إبراهيم : والذي هو خلق الله خلق الله أو ليس بخلق له ، قال الحسين فهو خلق الله ، فرفسه إبراهيم وقال : قم أخزى الله من ينسبك إلى شيء من العلم والفهم ، وانصرف محموماً ، وكان ذلك سبب علته التي مات فيها "[١] .

---

(١) الخطيب البغدادي ، أبوبكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد ، تاريخ بغداد ، بيروت ، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع ، ٣٦٦/٣.

(١) ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن أبي يعقوب الفهرست ، بيروت دار المعربة ، سنة ١٣٩٨ – ١٩٧٨ ، ص ٣٥٤ .

وهكذا ازدهر النثر الفني بأنواعه المختلفة ، من خطب ، ورسـائل ، ووصـايا ، وتوقيعات ، ومناظرات وما كان ذلك ليكون إلا بفضل هذه الفئة الراقية من حكـام بني العباس ووزرائهم ، وقادتهم وقضاتهم ، وباقي حاشيتهم .

خاتمة البحث

وبعد هذا التجوال عبر أيام العصر العباسي (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) ومروراً بجوانب جده ولهوه ، حضوراً ، من خلال مصادر العصر الأدبية والتاريخية ، لأنديته ومناظراته ومجالسه العلمية ، ومعايشة لحكامه – السفاح والمنصور والمهدي وموسى الهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق من الخلفاء ورموزه البارزة من الوزراء ، كالبرامكة ، وابن الزيات ، وغيرهم من القواد والقضاة والولاة وكل حكام بني العباس ، وما كان له بهم صلة من الأدباء والشعراء والكتاب ، أقول : بعد كل هذا فإن الرؤية قد اتضحت لي ، وأصبحت من الجلاء بمكان ، ويمكن تلخيص ما توصل إليه البحث من نتائج وما كان جلياً بالنسبة لي في النقاط التالية :

١- إن هذا العصر كان مملوءاً بالأحداث السياسية المهمة والخطيرة ، التي تركت أثرها الكبير في تاريخ العرب والمسلمين على طوله وتأرجحه بين القوة والضعف ، وقد كان نجاح وصولها إلى كرسي الحكم ، ثم تم لهم ما أرادوا ، فأحاطوها بما يضمن لها القوة والازدهار ، ولا يمكن لنا إلا أن نعترف لهم بغير قليل من القوة ، أرهبت أعداءهم في الداخل والخارج على حد سواء ، بالرغم من الثورات التي هزت كرسي العباسيين وكادت تعصف به ، كفتنة الأمين والمأمون داخلياً ، وثورة بابك الخُرّمي خارجياً إلا أن الدولة لم تفقد أسباب قوتها وظلت محتفظة بقوة فقد العرب والمسلمون كثيراً منها بعد ذلك .

٢- أن المجتمع في هذا العصر قد ضم بين دفتيه طرفي النقيض في الجد والهزل ، والغنى والفقر ، والنعمة والبؤس ، مما أورث المجتمع كثيراً من المتناقضات في الخير والشر على حد سواء ، فكانت ظاهرة المجون الزائد ، وكانت حركة الزهد ، وكانت ظاهرة الشعوبية وظاهرة الزندقة ، كما كانت علوم الكلام وأئمة العلماء المسلمين في الفقه والحديث والسيرة ، واستطيع أن أشير إلى أن هذا العصر كان عصر المتناقضات في كل شيء .

٣- أن هذا العصر – خاصة – شهد نهضة علمية تظهر واضحة المعالم عبر تاريخ العرب الطويل بروزاً لافتاً للنظر ، مثيراً لكثير من التساؤلات للوهلة الأولى وللناظر من بعيد إلى أسباب هذه النهضة الكبيرة ، أما لمن يعايش العصر ١٣٢ – ٢٣٢ هـ فسيجد أن هذا التطور العلمي وهذه النهضة الثقافية كانت نتيجة طبيعية لأسباب كثيرة منها : أولها : أن حكام هذا العصر كانوا حريصين على العلم ، مشغوفين به ، مدركين لقيمته وأهميته ، لذا شجعوا العلماء ، ووفروا لهم سبل النهوض بالعلم ونظروا إليهم نظرة احترام وتقدير ، وثانيها : أن بيت مال المسلمين كان عامراً بالأموال ، مملوءاً بالخيرات ، فلم يصادف الحكام حاجة أو عوزاً يجعلهم يُقدمون على العلم غيره من الأمور التي تحتاج إلى المال ، خاصة وأنهم كانوا يحتكرون الأسلوب الذي ينفق به المال العام ، والمصارف التي ينفق فيها ، ثالثها : أن عنصراً بشرياً ذا حضارة ، وثقافة قد حمل عبء دعوة بني العباس حتى أوصلهم إلى الحكم ، حتى إذا وصلوا نقل إليهم علمه وحضارته ، لذا كان ضرورياً وطبيعياً أن نرى هذا الازدهار العلمي والثقافي الذي عم العصر كله .

٤- أن حكام هذا العصر (١٣٢ – ٢٣٢ هـ) كانوا يحبون العلم ، ويحرصون على مدارسته وحفظه ومجالسة أهله ، والاهتمام بهم ، وكفالتهم ورعايتهم بصور مختلفة ، وقد تركت هذه الرعاية وهذه المدارسة وهذا الحرص على العلم والتعلم أثره في نفوس حكام العصر أنفسهم ، فأصبحوا على قدر عال من الثقافة والعلم خلفاء ووزراء وقضاة وولاة وغيرهم .

٥- أن هذه الثقافة التي تثقف بها الحكام متنوعة ، بين عربية وأجنبية ، فتركت الثقافة العربية أثرها على جوانب من الأدب ، وتركت الثقافة الأجنبية أثرها على جوانب أخرى .

٦- أن الأدب بشقيه ، الشعر والنثر قد تأثر بثقافة الحكام هذه ، أما الشعر فقد ازدهرت أغراض شعرية قديمة ، ونمت وتطورت ، وولـــدت أغــراض شعرية جديدة بتوجيه من بعض الحكام بصورة مباشرة ، وأغراض جديدة أخرى كان للحكام أثر في وجودها بالمشاركة مع آخرين ، أما النثر فقــد كان لهم دور مهم في ازدهار بعض أنواعه كالرسائل ، ودورٌ أيضاً فـــي ابتعاد بعض الأغراض عن ازدهارها أيام بني أمية كالخطابة مــثلاً ، إذاً فإن حكام بني العباس قد تركوا في الأدب بصمة واضحة تظهر لكل مـــن يطالع عصرهم أو يتتبع الحركة الثقافية فيه .

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم ، مصحف الجماهيرية ، برواية الإمام قالون .

١- ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، د. ت .

٢- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، تحقيق : محمد بن يوسف الدقاق ، بيروت ، د.ت .

٣- ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دار الفكر العربي ، د.ت .

٤- ابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج ، صفة الصفوة ، ضبطها وكتب هوامشها ، إبراهيم رمضان وسيعد اللحام ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م ، ط١ . تحقيق : محمود فاخوري ، محمد رواس قلعة جي ، بيروت ، نسخة طبعة دار المعرفة ، ١٩٧٩ م ، ط٢ .

٥- ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن أبي يعقوب ، الفهرست ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م . نسخة وطبعة مصر .

٦- ابن المرتضى ، طبقات المعتزلة ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦١م.

٧- ابن المعتز ، طبقات الشعراء . تحقيق : عبدالستار أحمد فراج ، مصر ، دار المعارف ، د. ت .

٨- ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف ، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، مصر ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، د. ت .

٩- ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ، وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان ، تحقيق : محي الدين عبدالحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ م ، ط١ .

١٠- ابن رشيق ، أبو الحسن بن علي ، العمدة في صناعة الشعر ونقده ، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٧٤ م .

١١- ابن طيفور ، أبو الفضل أحمد بن أبي ظاهر ، كتاب بغداد ، تحقيق : محمد زاهد الكوثري ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، نشر ، عزت العطار الحسيني ، د.ت .

١٢- ابن عبد ربه ، أبو عمر جمال الدين يوسف بن عمر ، العقد الفريد ، ضبطه وعنون موضوعاته ، ورتب فهارسه ، أحمد أمين ، وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦م.

١٣- ابن وادران ، تاريخ العباسيين ، تحقيق : المنجي الكعبي ، بيروت ، طبعة دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٨ - ٤٠٨ هـ ، ط١ .

١٤- أبو إسحاق الحصري القيرواني ، زهر الآداب وثمر الألباب ، تحقيق : زكي مبارك ، مصر ، المطبعة الرحمانية ، د.ت .

١٥- أبو العتاهية،ديوان، تحقيق وشرح: كرم البستاني ، بيروت ، دار صادر، د.ت .

١٦- أبوبكر محمد بن يحيى بن عبدالله الصولي ، الأوراق ، عنى بنشره ، ج. هيورث ، د.ن ، بيروت ، طبعة دار المسيرة ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨٢ م ، ط٢.

١٧- أبو تمام ، ديوان ، تحقيق : محمد عبده عزام ، القاهرة ، دار المعارف، د.ت ، ط٤ .

١٨- أبوجعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة دار المعارف ، ١٩٦٦ م ، ط٣ . وبيروت ، نسخة طبعة دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧ ، ط١ .

١٩- أبو دلامة ، ديوان ، شرح وتحقيق : إميل بديع يعقوب ، بيروت ، ١٩٩٤م ، ط١ .

٢٠- أبو سعيد الحسين بن الحسين السكري ، شرح أشعار الهذليين ، تحقيق : عبدالستار فراج ، راجعه ، محمود محمد ساكر ، د.ت .

٢١- أبو عثمان عمرون بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين ، بيروت ، طبعة دار الكتب العلمية ، ونسخة السندوبي ١٩٢٧ م . وتحقيق وشرح : عبدالسلام محمد هارون ، القاهرة ، مطبعة الفتوح الأدبية ، وقف على طبعه محب الدين الخطيب ، ١٣٣٢ هـ .

٢٢- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، الحيوان ، القاهرة ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ١٩٣٨ م .

٢٣- أبو علي القالي ، الأمالي ، تحقيق : محمد عبدالجواد الأصمعي ، طبعة دار الكتب المصرية ، د. ت .

٢٤- أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق : إبراهيم الإبياري ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م. ونسخة طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٥ م .

٢٥- أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، الشعر والشعراء ، قدم له الشيخ ، حسن تميم ، وراجعه وأعد فهارسه الشيخ ، محمد عبدالمنعم العريان ، بيروت ، دار إحياء العلوم ، د.ت .

٢٦- أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، عيون الأخبار ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٨ م ، ط١ ، ج٢ .

٢٧- أبو نعيم الأصبهاني ، حلية الأولياء ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٥ هـ .

٢٨- أبو هلال العسكري ، الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه ، تحقيق : عبدالمجيد دياب ، د. ت .

٢٩- أبو نواس ، ديوان ، تحقيق : علي فاعورة ، بيروت ، طبعة دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م ، ط١ .

٣٠- أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة ، ١٩٩٨ م ، طبعة ٢٠٠٢ م . ونسخة الجزء الثالث مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨ م ، ط ٩ .

٣١- أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر العباسي ، تاريخ اليعقوبي ، بيروت ، دار صادر ، د. ت .

٣٢- أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ١٩٣٣ م .

٣٣- أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، د.ت .

٣٤- أحمد فريد الرفاعي ، عصر المأمون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ م ، ط٢ .

٣٥- الأبشيهي ، شهاب الدين محمد بن أحمد ، المستطرف في كل فن مستظرف ، بيروت ، دار الجيل ، د.ت .

٣٦- الأعشى ، ديوان ، شرح : يوسف شكري فرحات ، بيروت ، دار الجيل ، ١٤١٣ هـ .

٣٧- الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ، خرج أحاديثه ، محمد بيومي ، عبدالله المنشاوي ، محمد رضوان مهنا ، طبعة مكتبة الإيمان ، د . ت .

٣٨- الإمام الذهبي ، المعين في طبقات المحدثين ، تحقيق : همام عبدالرحيم سعيد ، عمان ، ١٤٠٤ هـ ، ط١ .

٣٩- الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، صحيح الإمام البخاري ، راجعها ورقم أحاديثها ووضع فهارسها محمد عبدالقادر أحمد عطا ، دار التقوى للتراث ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م ، ط١ .

٤٠- الإمام مسلم ، مختصر صحيح مسلم ، تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني ، عمان طبعة المكتبة الإسلامية ، ومكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤١١ هـ.

٤١- بشر بن برد ، ديوان ، شرح : السيد محمد الطاهر بن عاشور ، علق عليه ، محمد رفعت فتح الله ، محمد شوقي أمين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٤ م .

٤٢- البيهقي ، المحاسن والمساوئ ، مصر ، مكتبة النهضة ، د . ت .

٤٣- توفيق الفيل ، القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي ، الكويت ، مطبوعات جامعة الكويت ، نشر مكتبة ذات السلاسل ، د . ت .

٤٤- جلال الدين عبدالرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق ، جمال محمود مصطفى ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، ١٩٩٩ م ، ١٤٢٠ هـ ، ط١ .

٤٥- جلال الدين السيوطي ، طبقات الحفاظ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣ هـ ، ط١ .

٤٦- جميل بثينة ، ديوان ، تقديم : بطرس البستاني ، بيروت ، دار صادر ، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .

٤٧- جميلة نخلة المدور ، حضارة الإسلام في دار السلام ، بولاق ، المطبعة الأميرية ، ١٩٣٧ م .

٤٨- الجهشياري ، أبو عبدالله محمد بن عبدوس ، الوزراء والكتاب ، حققه ووضع فهارسه ، مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري ، وعبدالحفيظ شلبي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ١٩٣٨ م ، ط١ .

٤٩- جورجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، راجعها وعلق عليها ، شوقي ضيف ، القاهرة ، دار الهلال ، د . ت .

٥٠- جورجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ، راجعها وعلق عليها ، حسين مؤنس ، القاهرة ، دار الهلال ، د . ت .

٥١- الخطيب البغدادي ، أبوبكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد ، تاريخ بغداد، بيروت ، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع ، د.ت .

٥٢- خير الدين الزركلي ، الأعلام ، بيروت ، دار العلم للملايين ، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٩٢ م ، ط ١٠ .

٥٣- سامي عابدين ، الاتجاهات الأدبية في قصر المأمون ، مطبعة دار العلوم العربية ، د. ت .
٥٤- شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦ م ، ط ١٤ .
٥٥- صلاح الدين الهادي ، اتجاهات الشعر في العصر الأموي ، القاهرة ، دار الثقافة العربية ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
٥٦- الطاهر أحمد مكي ، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، القاهرة ، دار المعارف ، د . ت ، ط٣ .
٥٧- الطاهر أحمد مكي، دراسة في مصادر الأدب، القاهرة، دار المعارف، د.ت.
٥٨- طه حسين ، حديث الأربعاء ، القاهرة ، دار المعارف ، د.ت ، ط١٤ .
٥٩- عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ، مقدمة ابن خلدون ، بيروت ، دار القلم ، ١٩٨٤ م ، ط٥ .
٦٠- عز الدين إسماعيل، في الشعر العباسي الرؤية والفن، المكتبة الأكاديمية، د.ت .
٦١- علي بن جبلة ، ديوان ، جمع وتحقيق وتقديم ، حسين عطوان ، دار المعارف ، د . ت ، ط٣ .
٦٢- علي محمد هاشم ، الأندية الأدبية في العصر العباسي في العراق حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨٧ م .
٦٣- كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، نقله إلى العربية ، عبدالحليم النجار ، القاهرة ، ١٩٦١ م ، د. ت .
٦٤- محمد أبو الأنوار ، الشعر العباسي ، تطوره وقيمه الفنية ، مكتبة الشباب ، ١٩٨٣ م .
٦٥- محمد بن سعيد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري ، الطبقات الكبرى ، بيروت ، دار صادر ، د . ت .

٦٦- محمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبدالله ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، ومحمد نعيم العرقسوسي ، بيروت ، مؤسسة الرسـالة ، ١٤١٣ هـ ، ط ٩ .
٦٧- محمد بن علي بن طباطبا العلوي المعروف بابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، بيروت ، دار صادر ، د.ت .
٦٨- محمد عبدالعزيز الموافي ، حركة التجديد في الشعر العباسي ، مكتبة الشباب ، ١٩٩١ هـ .
٦٩- محمد عبدالمنعم خفاجي ، الحياة الأدبية في العصر العباسي ، القاهرة ، نشر رابطة الأدب الحديث ، ١٩٠٤ م ، ط١ .
٧٠- محمد مصطفى هدارة ، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، بيروت ، مطبعة دار العلوم العربية ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ، ط١ .
٧١- محمد مصطفى هدارة ، المأمون الخليفة العالم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥ م .
٧٢- المرزباني ، محمد بن عمران بن موسى بن سعيد ، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، تحقيق : علي البجاوي ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٦٥ م .
٧٣- مروان بن أبي حفصة ، ديوان ، جمع وتحقيق وتقديم : حسين عطوان ، دار المعارف ، د . ت ، ط٣ .
٧٤- المسعودي،أبو الحسن علي بن الحسين بن علي،مروج الذهب ومعادن الجوهر،تحقيق:محمد محي الدين عبدالحميد،مصر،مطبعة السعادة ، د.ت ، ط٣
٧٥- مصطفى الرافعي ، حضارة العرب في العصور الإسلامية الزاهرة ، بيروت ، منشورات الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ م .
٧٦- مصطفى الشكعة ، الشعر والشعراء في العصر العباسي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، د.ت .
٧٧- المفضل الضبي ، المفضليات ، القاهرة ، طبعة دار المعارف ، ونسخة طبعة المطبعة الرحمانية بمصر ، ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م .

٧٨- منصور الرفاعي عبيد ، مكانة المسجد ورسالته ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، د.ت .
٧٩- ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، اختارته وانفقت على ترجمته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، ١٩٧٤ م ، ط٣ .
٨٠- ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، القاهرة ، دار المأمون ، عناية ، أحمد فريد الرفاعي ، نسخة طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . ونسخة دار الفكر العربي ، ط٣ .
٨١- يوسف خليف ، تاريخ الشعر في العصر العباسي ، القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٨١ م .